

سبع معارك فاصلة في القرون الوسطى

جوزيف داهموس



فهرس

٥	تصدير
٧	١ - الحرب فى العصور الوسطى
٢٣	٢ - معركة شالون
٥٥	٣ - معركة اليرموك
٧٤	٤ - معركة هيسينجز
٩٧	٥ - معركة حطين
١٢٥	٦ - معركة بوفين
١٤٧	٧ - معركة كريسى
١٦٩	٨ - معركة أنقرة
١٩٥	المراجع

تصدير

متى تكون المعركة فاصلة ؟ يقول فليتشر برات Fletcher Pratt لكي تكون المعركة فاصلة « لابد أن تشير بلا أدنى ريب الى احدى علامات التحول التي لولاها لتغيرت الأحوال ولربما اختلفت اختلافا هائلا ولسار الحسم في الاتجاه الآخر » (١) . ونظرا لأنه أغفل ذكر معركة هيستنجز Hastings بين المعارك التي اعتبرها فاصلة ، وهي المعركة التي أورد ذكرها معظم المؤلفين الآخرين ، فاننا نستطيع أن نقرر أن مسألة كون معركة فاصلة أو غير فاصلة انما هي مسألة ذاتية في أغلب الأحوال .

ومن الممكن أن يعتبر الصرب معركة كوسوفو Kossovo التي حدثت سنة ١٣٨٩ م معركة فاصلة لأن الأتراك وضعوا حدا للطموحات الصربية في اقامة امبراطورية في البلقان . وربما حكم على تلك المعركة مواطنون أوريبيون حكما مختلفا ، أو فكروا مليا في السؤال الذي طرحه الناسك بولس على أنطونيوس في القرن الرابع الميلادي ، عندما سأل فجأة بعد سنوات طويلة في العزلة الصحراوية ، « ما هو حال الجنس البشري ٠٠٠ وامبراطورية من تلك التي تسيطر على العالم » (٢) . فبالنسبة الى بولس لا يوجد شيء يتعلق بالانسان يمكن اعتباره حاسما على نحو تام ، وهذا افتراض يبدو أن المؤرخ الحديث أوتو مينشين - هيلفين Otto Maenchen-Helfen كان مستعدا لقبوله . فعند حديثه عن هؤلاء العلماء الذين أخذوا على عاتقهم تبرير كتاباتهم التاريخية المفصلة علق قائلا : « هل لي أن أشير الى أنني لم أتمكن من معرفة لماذا يلقي تاريخ باجا كاليفورنيا Baja California مثلا احتراما أكثر مما يلقاه الهن مثلا في البلقان في الستينيات من القرن الخامس ؟ » (٣) .

ان المعارك السبع التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب تستحق كلها
اهتماما كبيرا ، نظرا للنتائج التى تمخضت عنها مباشرة . وثمة معارك
أخرى فى العصور الوسطى ربما كان لها نتائج حاسمة بقدر مماثل ،
مثلا حدث فى معركة تور tours (٧٣٢ م) ، ومعركة ليجهانو
Leghano (١١٧٦ م) ، ومعركة أجينكورت Angincourt
(١٤١٥ م) أو غيرها . بيد أن المعارك السبع المختارة تستحق أن يرد
ترتيبها بين أكثر المعارك الفاصلة أهمية ، كما يغطى اختيارها الوقت الزمنى
للعصور الوسطى من شالون Chalon (٤٥١ م) ، الى أنقره (١٤٠٢ م) .

١ - الحرب فى العصور الوسطى

لكى نقوم بدراسة تمهيدية لموضوع تاريخ الحرب فى العصور الوسطى ، لابد للمرء من الرجوع الى عصر اضمحلال روما . اذ ان معظم دول أوروبا فى العصور الوسطى ظهرت لأول مرة على امتداد الحدود الشمالية لتلك الامبراطورية وتأثرت عاداتها وثقافتها ، ونظمها الاجتماعية بنموذج روما الى حد ما ، ويدخل ضمن ذلك أساليبهم فى شن الحروب . وقد ساعد أسلاف كثير من شعوب تلك المنطقة فى الدفاع عن حدود الامبراطورية ابان قرون تدهورها . فمنذ القرن الثانى الميلادى استعانت روما لأول مرة بتجنيد من لم يتمتعوا بحق المواطنة من الذين عاشوا داخل حدود الامبراطورية ، ثم من الشعوب الوافدة حديثا من خارج حدودها . وأدخل ماركوس أورليوس *Marcus Aurelius* عادة توطيد آلاف من الجرمان داخل الامبراطورية حيث طلب منهم الدفاع عن الحدود . وفيما بعد جلب الامبراطور جوليان قبائل بأكملها ، ومنحهم وضع المحالفين *Statu of Foederati* من الناحية القانونية مع تحملهم مسئولية حماية المناطق التى عاشوا بها على الحدود ضد الشعوب الأجنبية من غيرهم . وبحلول القرن الرابع كان عدد الجنود غير الرومانيين قد زاد للدرجة أن التعبير اللاتينى *barbarus* ، الذى يعنى أحد البرابرة ، اكتسب الدلالة على الجنود .

ومن المؤكد بصفة عامة أن أعظم مآثر روما فى التاريخ هو أنها حفظت الكثير من التراث الحضارى للعالم القديم ، وعلى وجه الخصوص العالم اليونانى ، وسلمته الى الغرب . فاذا كان لروما (وبلاد اليونان) تأثير على الفكر ، واللغة ، والقانون ، والدين ، والفن ، والعلم الطبيعى - ونعنى بذلك حضارة دول المستقبل فى غرب أوروبا - فانها تركت أيضا بصماتها على فن الحرب الذى مارسته تلك الدول الناشئة . وهى بالتأكيد فعلت ذلك ولكن بقدر محدود فحسب . واذا كان لدى روما الكثير لتقدمه الى تلك الشعوب شبه المتحضرة ، فانها فى مجال الحرب كانت على قدم المساواة تقريبا . فأفضل جندى فى عالم يوليوس قيصر عندما فتح بلاد الغال (٥١ - ٥٨ ق م) كان جندى المشاة من المواطنين الذين شكلوا

الفرق الرومانية المشهورة . وبحلول القرن الرابع الميلادي ، كان هذا المحارب السابق مجرد ذكرى ، اذ كان أكثر المحاربين فعالية في هذا العصر المتأخر ، هو الفارس الذي يحمل السلاح ، وهو نوع من الجنود لم تكن روما قد استخدمته أبدا ، والواقع انها اعتمدت على الشعوب غير الرومانية لتمدها بالفارسان عندما دعت الحاجة . ان هذا الفارس قدر له أن يسود ميدان المعركة في معظم العصور الوسطى .

ولقد أدركت روما بمرارة تفوق الفارس المسلح في أغسطس ٣٧٨م في موقعة أدرينوبل Adrianople عندما أباد فرسان القوط الغربيون Visigoths « البرابرة » جيشا رومانيا ، وأردوا امبراطورها قتيلا على أرض المعركة . اذ كان تحرك القوط الغربيين من الأراضي السهلة الواسعة والخالية من الأشجار شمال البحر الأسود الى نهر الدانوب هربا من قبائل الهن Huns الذين طاردوهم بصفة مستمرة ، والذين انطلقوا من آسيا وأخضعوا بالفعل أبناء عمومتهم القوط الشرقيين Ostrogoths وعندما وصل القوط الغربيون الى نهر الدانوب ، منحهم الامبراطور فالنز Valens مكرها اذنا بالعبور والاقامة في أراضى اقليم تراقيا Thrace وهناك قاموا بثورة بسبب سوء معاملة الموظفين الرومان لهم ، ثم قضوا على الجيش الروماني في أدرينوبل مستخدمين أسلحة وخيولا « بربرية » وليست رومانية . ومن النتائج المهمة لهذه المعركة زيادة عناصر « البرابرة » في جيوش روما على حساب العناصر الرومانية .

وتشير معركة أدرينوبل الى الانهيار الشديد والسريع للامبراطورية في الغرب (أما القسم الشرقي من الامبراطورية ، والمعروف باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية ، أو بيزنطة ، فقد استمر لألف سنة أخرى) - وهؤلاء القوط الغربيون الذين قضوا على الجيش الروماني في أدرينوبل ، هم الذين قادهم ملكهم الشهير آلارك Alaric ، ونهبوا مدينة روما سنة ٤١٠ م . وبعد موت آلارك بوقت قصير تحركوا غربا وأقاموا ممالك « البرابرة » ، في جنوب فرنسا « بلاد الغال » ، وفي اسبانيا عندما سحبت روما قواتها من حصونها الدفاعية على امتداد الحدود الشمالية للتصدى لتحدي آلارك والقوط الغربيين ، وانهارت تلك الحدود ، وعبرت أفواج من الوندال Vandals ، والسوف Sueves ، ومن البورجونديين Burgundians ، والفرنجة Franks ، والالان Alans ، والانجلز Angles ، والسكسون Saxons « البرابرة » الحدود وأقامت لأنفسها امارات على الأراضي التي كانت تسيطر عليها روما من قبل.

ووافقت أغلبية تلك الشعوب على الاعتراف بالسيادة المطلقة لروما ، وقبلت الوضع القانوني كمحالفين حفاظا على ماء وجه روما . ان ذلك لم يكلفهم شيئا وانما ضمن لهم الحصول على القمح الرخيص من الأقاليم الافريقية التابعة لروما . كما حقق لهم قدرا من الاستقرار أيضا فى عالم كانت أحواله فى تغير مستمر . والواقع أن كثيرا من الشعوب اتحدت معا سنة ٤٥١ م - القوط الغربيون ، الفرنجة ، والبورجنديون - ضد عدو فرض اقترابه طرح أحقادهم جانبا على الفور .

كان الهن هم ذلك العدو ، وهم الذين شقوا طريقهم بالقوة فى الأراضى الواقعة شمال البحر الأسود حوالى سنة ٣٧٥ م ، وأقاموا امبراطورية مترامية الأطراف مركزها فى المجر ، وخلال سنوات قلائل أجبروا جيرانهم من القبائل الجرمانية على قبول سيطرتهم . ومن عاصمتهم على نهر ثيس Theisis حصلوا على الاتاوات من روما ومن القسطنطينية . على أن الالتزامات التى فرضوها على القسطنطينية كانت أكبر بكثير ، واستمرت فى الازدياد حتى سنة ٤٥٠ م ، عندما تحدى مارقيان Marcian الامبراطور البيزنطى ، أتيليا Attila ملك الهن ، وأعلن انتهاء دفع الاتاوة . ودفع هذا التحدى أتيليا الى قيادة جيشه الضخم من الهن غربا تجاه بلاد الغال . وفى سنة ٤٥١ م ، عند شالون Chalons واجه أتيليا الجيش « الرومانى » وحلفاءه من القوط الغربيين ، والفرنجة ، والبورجنديين ، والألن ، فى احدى المعارك الفاصلة فى التاريخ . وكانت هذه المعركة بمثابة تهديد خطير كان من الممكن أن يقضى الى القضاء السريع على مراحل الحضارة الرومانية التى كانت فى طريقها الى التطور لولا الهزيمة المنكرة التى تعرض لها أتيليا وجماعته وعودتهم الى المجر ثم ظهر أتيليا للمرة الثانية فى العام التالى ، فى شمال ايطاليا فى تلك المرة . بيد أن الخطر الهنى انتهى بعد وقت قصير ، وتركت الأمم الجرمانية لتقيم دولا خاصة بها بحرية كاملة تقريبا .

واتضح أن دولة الفرنجة فاقت الدول التى قامت حديثا نجاحا . فعلى عكس الشعوب الجرمانية التى عبرت الى داخل حدود الامبراطورية مثل القوط الغربيين ، والوندال ، لم يبتعد الفرنجة عن مواطنهم الأصلية أو يهجروا الى أراض بعيدة اذ لم يبتعدوا كثيرا تجاه الغرب عن موطنهم الأصلى شرق نهر الراين . وتحت حكم ملكهم المشهور كلوفس Clovis بسطوا السيطرة الفرنجية على الجزء الأكبر مما يعرف الآن باسم فرنسا . وحدثت خطوة مهمة ابان ظهور كلوفس الا وهى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكي . وحقق له هذا الاجراء ولاء الهيئة الكهنوتية للكنيسة فى بلاد الغال ، وهى المؤسسة المنظمة الوحيدة التى ظهرت فى غرب أوروبا .

وينسب جريجورى أسقف مدينة تور Tours الورع ، الى الـ
المسيحيين الانتصارات التى حققها كلوفس فى اجبار الشخصيات المهمة فى
بلاد الغال على الاعتراف بحكمه وسلطانه . وبرغم مساعدة السماء المضافة
الى ذكائه ، فان كلوفس احتاج الى محاربين وأسلحة لانجاز ما فعله .
كانت أيام كلوفس فترة يكتنفها الغموض ، بيد أن هناك مبدأين عامين
مقبولين بشكل معتدل يتعلقان بفن الحرب ويمكن ذكرهما : أولهما نوعية
الحرب التى خاضها كلوفس ورجاله ، وكذلك الأسلحة التى استخدموها ،
مما لم يختلف كثيرا عن الحالة عند جيرانهم ، وثانيهما ، أن تلك الحرب
وما بها من أسلحة ظلت دون تغيير حتى النصف الثانى من القرن الثامن .
شكل جماعة خدام كلوفس قلب جيشه . وضمن كلوفس ولاء
هؤلاء الرجال بمشاركتهم ثمار فتوحاته وبالقضاء على أى شخص حاول
الاعتراض على سلطته . وكانت تلك الجماعات المسلحة شائعة ابان عصور
الاضطراب عندما ضاعت هيبة السلطة الرومانية ، وكان ملوك الجرمان
مجرد أسماء فحسب . اذ افتقر هؤلاء الملوك الى الثروة ، والجهاز الادارى
والقوة المفروضة على الشعب التى تمكنهم من الحكم بفعالية ، اللهم الا اذا
كانت سلطتهم فى مناطق محدودة .

وفىما يتعلق بنشأة تلك الجماعات الحربية ، يستطيع المرء أن
يجد مفتاحا فى فرقة الزملاء Comitatus القديمة ، وهو اجراء
نسبه تاكيتوس Tacitus المؤرخ الرومانى الى الجرمان على عهده .
اذ اعتاد شباب أى قبيلة على اسلام أنفسهم لقيادة محارب يعجبون به ،
« ويدافعون عنه ويتولون حمايته ، وينسبون الأعمال البطولية للفرد منهم
الى فضله وشرفه ! » (١) وهناك نمط بدائى أكثر اقترابا من فرقة الزملاء ،
وجد فى الجماعات المسلحة التى بدأت الشخصيات الرومانية البارزة فى
تجنيدها ، عندما أخذت السلطة الرومانية فى الضعف ، من أجل حماية
أنفسهم وممتلكاتهم الزراعية . وعرف قادة تلك الجماعات المسلحة باسم
الكونتات Counts (الكلمة اللاتينية Comes ، وتعنى رفاق
كفاح) ، أو الأدواق dukes (الكلمة اللاتينية dux ، وتعنى
قائد) ، وكونوا العمود الفقرى للسلطة الملكية فى العصر الميروفنجى
(٤٥١ - ٧٥٢ م) .

وبالاضافة الى فرقة الزملاء ذكر تاكيتوس أيضا عادة الجرمان فى
الاحتياج الى قوات مسلحة من كل الرجال الأقوياء البنية . اذ كان
مبنوهم القتال ، اذا لم تكن مسئوليتهم الوحيدة وفقا لأحوال القبيلة .
ومن هذا التراث يستطيع المرء أن يتتبع الاشارات الى القوات المجنسة ،
التي وجدها العلماء فى وثائق القصر الميروفنجى وربما تكون الاشارة عن

حالة تجنيد عامة ، بالرغم من ندرة ذلك ، اذ ان تجنيد معظم الناس على هذا الوضع كان يفتقر الى الخبرة والاحساس بالنظام مما قلل من فائدتهم . ومع ذلك ، فان قوات مجندة ومنتقاة يمكن أن تكون مفيدة في الدفاع عن أسوار مدينة أو في القيام بواجب الحراسة ، أو في المساعدة في محاصرة مدينة ، أو في تولي حراسة الأسرى . ولا شك أن الرجال الذين عملوا في مثل هذه الخدمة العسكرية ورثوا وظائفهم عن آبائهم وأجدادهم الذين عملوا بالمثل في الامبراطورية السابقة .

وقد وضع الأفراد المحظوظون من تلك الجماعات في العصر الميروفنجي خوذا على رؤوسهم وارتدوا قمصانا مدرعة ، على الرغم من أن تلك الملابس الوقائية لاتضاهي مثيلتها التي لايمكن أن تصاب بأذى والمستخدمة في عصر الاقطاع . وحمل المحاربون تروسا أيضا . وأما عن الأسلحة فانهم اختاروا مجموعة متنوعة من الرماح والحراب ، والسيوف ، والبلطات ، والأقواس والسهام ، والسكاكين ، التي اختلفت في النوع والحجم ، وفقا لظروف القتال سواء كانوا مشاة ، أو على ظهور الخيل . وأثارت هذه النقطة سؤالا مثيرا للجدل والخلاف يتعلق بفن الحرب في هذا الوقت ، وأعني بذلك هل ركبت جماعات كلوفس ، وأبنائوه ، وأحفاده ، الخيول لمجرد هدف الانتقال أم أنهم حاربوا وهم على ظهور الخيل ؟

ان الدليل غير كاف وغير مقنع . فبعض الوحدات الفرنجية التي خدمت في الجيش الروماني في أوائل القرن الخامس الميلادي حاربت على ظهور الخيل . بيد أن الدليل يشير الى أنه حتى سنة ٧٣٢ م ، قام جيش شارل المطرقة Charles Martel قائد الفرنجة بالذهاب الى محاربة المسلمين المغاربة على ظهور الخيل ، ثم ترجل جيشه عندما وصل الى ميدان المعركة ، وهزم الأعداء ثم ركب الخيل ثانية ، وطارد فلولهم وهو على ظهور الخيل . ومن المحتمل احتفاظ الملوك الميروفنجيين ببعض الخيول ، نظرا لأنهم كان لديهم أتباع في خدمتهم من الآلن والسارماتيين Sarmatians ، والقوط ، وكلهم لهم تاريخ طويل في استخدام الخيول في الحرب ويرجع تاخر الفرنجة في الأخذ بطريقة استخدام الخيول في الحرب الى أنماط حياتهم في موطنهم الأصلي حيث أعاقتهم الغابات الكثيفة عن استخدام الخيول .

وعلى الرغم من أن معركة تور هي المعركة الوحيدة الكبرى التي حدثت طوال العصر الميروفنجي ، فإن هناك عددا كبيرا من المعارك الصغرى دار حول المدن الكبرى والصغرى . ففي تلك الأماكن كان العدو يأمل في الحصول على الغنيمة - وتركزت قوة العدو على المدن المحصنة .

وتشير المصادر الى آلات المنجنيق (آلة تستخدم لدك أسوار المدن) (*)
المحمولة على عربات ضخمة ، والمغطاة بسقيفات من الخشب لحماية
ما بداخلها من القذائف ، ومن السلالم المصنوعة من الجبال ، من
الواقعين تحت الحصار ، الذين كانوا يلقون مراجل من الزيت والقار
المغلي ، على الذين يحاصرون أسوار المدن . وهناك اشارة أيضا الى
استخدام الحرفة البحرية في تلك العصور . وربما يرجع ذلك الى
عصور الامبراطورية عندما تولت روما الحفاظ على الأمن في انهيار بلاد
الغال أو تركت ذلك لمقدرة السكان .

وفي سنة ٧٥٢ م ، أعلن بيبين القصير Pepin the Short
ابن شارل المطرقة ، نفسه ملكا ، وأسس الأسرة الكارولنجية وهي الأسرة
الفرنجية الحاكمة الثانية وحملت هذه الأسرة اسم شارلمان بن بيبين ، الذي
أثبت أنه أشهر شخصيات تلك الأسرة وفوق كل ذلك فان انجازاته
العسكرية الموفقة كانت سببا في اصفاء لقب « الكبير » عليه ، اذ قضى على
اللومباردين Lombards ، والآفار Avars ، وأخضع
الساكسون Saxons الأشداء ، وشيد امبراطورية بلغت حدودها من
الدانمارك الى كرواتيا Croatia ، ومن روما الى جبال البرانس حتى
أراضي إسبانيا .

وفيما يتعلق بفن الحرب ، فقد شهد عصر شارلمان انطلاقة في الاتجاه
الى جعل الفارس المسلح سيد ميدان المعركة دون منازع . فلم يكن أمام
شارلمان من خيار سوى الاعتماد الكلي على الفرسان نظرا لأن جيوش أعدائه
الثلاثة - المسلمين المغاربة في إسبانيا ، واللومباردين في إيطاليا ،
والآفار في شرق أوروبا - تكونت بصفة أساسية من الفرسان . وإذا ما كان
شارلمان راغبا في القضاء على الأعداء الذين طوقوا مملكته ، فلم يكن
أمامه من خيار سوى تجنيد فرسان مملكته ، ومشاركتهم في القتال وفقا
لشروطهم .

وهناك تفسير شخصي للاتجاه نحو استخدام الفرسان على أنه تطور
أرجعه العلماء الى أوائل القرن الثامن الميلادي . هذه هي المقدمة لاستخدام
الخيول في الحرب . واستمر التفكير في منشأ الخيل وبداية ظهورها في
أوروبا على وجه التحديد بيد أنه لا ريب في أهميتها بشأن التأثير القوي على
فن الحرب . وفي هذه المرحلة أثبت الفارس المسلح أنه محارب لا يقهر
باستخدامه الرمح ، والقوس ، والسهم ، والسيف . غير أنه نظرا
لافتقاره الى قاعدة ثابتة لكي يعمل عليها ، فلم يكن شديد الدقة ، كما
لم يتمكن من استخدام أسلحته بقوة كاملة . اذ كان الجواد الذي يمتطيه

(*) ما بين قوسين ايضاح من المترجم .

بمثابة القاعدة التي يعمل عليها . وما أن وجد الفارس نفسه مشدودا
باحكام الى ظهر جواده حتى استطاع أن يقذف برمحه بأقصى سرعة ودقة ،
واستطاع أن يسدد طعنة قوية بسيفه واستطاع أن يقف في ركاب جواده ،
وأن يسدد ضربة قاضية باستخدام أقصى قوته في استعمال دهبوس مشوك
لكسر الدروع mace ، أو فأس الحرب battle-axe .

ولم يحدث ذلك في يوم وليلة ، بل انه إبان عصر شارلمان استمر
جزء كبير من جيشه يتكون من المشاة . ومن الجدير بالذكر أن مجموعة
الشرائع في عهده ألزمت كل الرجال الذين لديهم اقطاعات - ممتلكات
زراعية منتجة بقدر كاف للوفاء بحاجاتهم أن يعملوا كفرسان ، وأن
يزودوا أنفسهم بالترس ، والرمح ، والخنجر ، والقوس وجعبة السهام ،
والسهام . وعلى الأرجح لم يمض وقت طويل قبل أن تختفى الحاجة الى
القوس والسهام عندما اكتشف الفارس أن أسلحته الأخرى أكثر فعالية
بكثير وأسهل في الاستعمال .

ان ظهور الفارس المسلح في مركز التفوق بلا منازع في ميدان
القتال في القرن التاسع الميلادي لم يعمل على تطوير فن الحرب فحسب ،
وانما غير بدرجة كبيرة من البنية الأساسية والاجتماعية للمجتمع . والأمور
الأساسي الذي يفسر هذا العبء الثقيل الذي ألقي على عاتق المجتمع هو
التكاليف الباهظة للحصان الواحد التي قدرت في ذلك العصر بما يعادل
قيمة أربعة وعشرين ثورا تقريبا ، في وقت كان ينظر فيه الى المزارع الذي
يملك ثورا واحدا على أنه سعيد الحظ .

ان المشكلة الخطيرة التي واجهت الملك أو الاقطاعيين الكبار هي من
أين يجدون الوسائل التي تمكنهم من تحويل جيوشهم أو الجماعات
الحربية من الأتباع من جنود من المشاة الأرخص نسبيا الى الفرسان الذين
كانت تكاليفهم باهظة .

ونظرا لأن هذا العصر كان عصر اقتصاد زراعي لم يستطع الملك فيه
سوى تحقيق دخل حكومي قليل من المكوس ، والضرائب الأخرى من
التجارة ، فانه كان مضطرا الى اللجوء الى الأرض ليحصل على الموارد المالية
ليجهز فرسانه . وفعل ذلك بتوزيع قطع من ممتلكاته الزراعية على
محاربين مختارين في بداية الأمر ، ومن دخل تلك الأراضي الزراعية ،
أمكن الحصول على الحصان ، والمستلزمات الحربية والأسلحة . وعندما
أوشكت الأراضي الزراعية على النفاد ، اتجه الملك الى الكنيسة ، كما فعل
شارل المطرقة ، وأصر على أن يسلم الأساقفة ورؤساء الأديرة الاقطاعات
الزراعية للمحاربين ليتمكنوا من الحصول على ما يحتاجون اليه . وفي مدى
سنوات قلائل ، فرض على كل الرجال الذين يمتلكون قدرا معيشتيا من

الأراضي الزراعية ، كما ورد ذكره في مجموعة القوانين ، أن يتقدم بحصان كامل العدة ، والمعدات ، والأسلحة ، عندما يستدعيه الملك ، أو سيده الاقطاعي .

وعلى ضوء التأكيد على الأرض باعتبارها المصدر الذي يجهز الفرسان المسلحين كانت النتيجة الحتمية لذلك هي ظهور الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض ، التي هيمنت على كل جوانب الحياة تقريبا إبان فترة توازن العصور الوسطى . وعلى حين استمرت الشهرة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة فترة طويلة ، بعد أن فقدت مبرر وجودها - وهو القدرة على تجهيز الفرسان المسلحين وقيادتهم في المعركة - فإن دورها ظل واضحا طوال الفترة من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر ، وهي الفترة التي يطلق عليها عصر الاقطاع . وإبان تلك القرون ظلت قوة الملك أو السيد الاقطاعي تحسب وفقا لقدرته على الحصول على فرسان تابعين له بالإضافة إلى ما يستطيع أن يقدمه إليه أتباعه الاقطاعيون من فرسان .

على أن التفوق العسكري إبان عصر الاقطاع ، وما له من تأثير على المجتمع في العصور الوسطى ، إنما كان مرده في المقام الأول التكاليف الباهظة ، لمعدات الفارس الحربية ، وأسلحته وجواده . وتكونت أسلحته الهجومية من الرمح ، والدبوس الثقيل لكسر الدروع والسيوف . وكان الفارس يضع على رأسه قلنسوة مخروطية الشكل من الصلب . وفي العادة كان لها امتداد طولي فوق الأنف لحماية الوجه . وفيما بعد وضعت لوحة معدنية من خلفه لحماية الجزء الخلفي من الرقبة . واستعمل قميص به حلقات معدنية يصل حتى الرقبة . وحمل الفارس ترسا أخذ حجمه في الصغر كلما ازدادت ملابسه الحربية قوة . وبنهاية القرن الثاني عشر أصبح شائعا استخدام خوذة على شكل قدر اسطوانى إلى حد كبير وبه شقوق طولية للعينين . وفي ذلك الحين أيضا ، أصبح قميص الفارس الذي به الدروع طويلا لقدر كاف حتى أصبح قسمين في النهاية لغطاء الساقين حتى أنه وصل إلى الخداء . وحملت أيضا أطواق من الحديد قديمه . وكان الحديد يحمي هؤلاء الفرسان بشكل كامل في القرن الثاني عشر لدرجة أن الأتراك أطلقوا عليهم « الناس الحديد » . بيد أن تلك التعديلات تكلفت أموالا باهظة للغاية ، لذلك هبطت أعداد الفرسان ثقيل العدة على نحو مطرد ، وبدأت تظهر طبقة من الخيالة خفيفة العدة نسبيا ، أطلق عليها اسم « المساعدون Sergeants » .

وكان الحصان أساسيا بالنسبة لفعالية الفارس في ميدان المعركة بنفس درجة معداته الحربية وأسلحته . ويستطيع الفارس أن يتحدى أي

عدد وهو على ظهر جواده المفضل . غير أنه اذا ترجل من على صهوة جواده استطاع أى جندي متواضع من المشاة أن يقطعنه أو يحتفظ به من أجل الفدية . وكما ارتدى الفارس معدات حربية ثقيلة ليحمى نفسه ، فانه فعل ذلك قدر استطاعته مع حصانه . اذ كسا جسده جواده بدروع مرنه ذات زرد ، وكانت تقترب من الأرض شريطة الا تتعوق سرعة حركته . ولسوء الحظ فان ذلك لم يكن كافيا أبدا لحماية بطن الحصان من طعنة خنجر أو سكين ، أو سن مدبب لرمح غرزه العدو بالأرض . لقد أثبت جواد الفارس أنه نقطة ضعف قاتلة فى بعض الأحوال .

وثمة عامل آخر فى الاقطاع الحربى ساهم فى ايجاد طبقة أرستقراطية متعالية من ملاك الأراضي . هذا العامل هو القلعة . اذ ظهرت القلاع فى العصر الكارولنجى ، وازداد عددها ابان سنوات الاضطراب فى أواخر القرن التاسع ، وفى القرن العاشر ، عندما تدهورت أحوال الامبراطورية الكارولنجية وفقد الملوك معظم سلطتهم . وفى إنجلترا برز للوجود الكثير من القلاع فى عهد ستيفن Stephen الضعيف (١١٣٥ - ١١٥٤ م) . وفى عدد القلاع وازدياد شهرتها اشارة الى وجود من يملك أكثر مما يحكم بصفة عامة .

كانت القلاع الأولى مباني صغيرة قوية تستخدم كماوى ضد هجمات العدو يحميها سور من الحديد القوى المدبب ، أو من الأعمدة الخشبية ومحاطة بخندق مائى ، وغالبا ما كانت تقام فوق تل للعمل على زيادة قوتها ولسهولة التعرف عليها . وفى القرن الثانى عشر حلت القلاع المبنية من الأحجار محل القلاع الخشبية نتيجة للتجربة التى استفاد منها المسيحيون ابان الحروب الصليبية عندما عرف الفرسان المسيحيون الجديد عن القلاع المبنية فى سوريا . وكان النمط العادى للقلعة هو المبنى الذى له سور خارجى حوله خندق moat-bailey ، وتكون بصفة أساسية من كومة عالية من الأحجار ، وفناء . وعلى الكومة العالية من الأحجار يقام الحصن ، والذى عرف باسم البرج الضخم أو المعقل donjon or keep الذى بلغ ارتفاعه أحيانا مائة قدم أو يزيد ، وفناء يحميه سور ضخم عال ، وخندق مائى عميق يحيط بالسور ، وجسر متحرك فوق الخندق المائى ، للتحكم فى الدخول الى الحصن أو الخروج منه . وحتى انتشار البارود والمدفع الضخم المثبت فى القرن الخامس عشر ، استطاعت أسوار القلاع أن تتحدى جهود أى مهاجم افتقر الى الوسائل التى تمكنه من فرض حصار لفترة طويلة ، وتعرض المحاصرين للموت جوعا . وفى عصر كانت فيه وسائل النقل صعبة ، والخدمات المطلوبة للفارس وجندى المشاة محدودة ، فان فرض الحصار الطويل لم يكن من السهل تحقيقه .

ورغم الاهتمام الشديد الذي حظيت به الطبقة الأرستقراطية وكذلك الفارس في الكتب والصور التي تصف عصر الاقطاع ، لم يتلاش شأن جندي المشاة تماما .

والحقيقة أن مكانته انخفضت انخفاضا شديدا ، على امتداد الحروب . واستطاع الفارس طرده تقريبا من ميدان المعركة ، على حين انخفضت مكانته الاجتماعية أكثر عندما تولت طبقة ملاك الأراضي المراكز القيادية . وبالرغم من ذلك ظل جندي المشاة محتفظا ببعض الأهمية . اذ كان يستخدم في حماية قلعة ، وفي المساعدة في الدفاع عن المدن المسورة ، وبخاصة في إيطاليا ، وفي الأراضي المنخفضة Low Countries ، وساعد في نقل المعدات وكل ما يلزم لطبقة الفرسان وكان متوقعا أن يقود فرسا آخر على استعداد لتقديمه للفارس عندما يفقد فرسه الأول . ويستطيع جندي المشاة التغلغل بين صفوف الفرسان المعادين ، ويطن خيولهم أو يشل حركتهم ، وفي استطاعته قتل أو أسر أي فارس يقابله يفقد حصانه ، ومع ذلك ظلت هذه المهام أعمالا اضافية .

ان تاريخ الجيوش المكونة من المشاة الذين كانوا على استعداد لشن الهجوم في القرن الخامس عشر الميلادي لا يعود بنا الى هؤلاء الجنود الذين انتشروا بين صفوف الفرسان ، وانما الى جنود المشاة الذين حاربوا دائما باعتبارهم مقاتلين محترفين . ووجدت تلك النوعية في ويلز Wales واسكتلندا ، وسويسرا حيث أعاقت الأراضي الجبلية استخدام الفرسان ، أو في بلاد الأراضي المنخفضة ، وفي شمال إيطاليا ، حيث احتاجت المدن المسورة الكبيرة والصغيرة منها الى وجودهم للحماية وأعمال الحصار . فبفضل جهود المشاة استطاع الملوك الانجليز مد نفوذهم على ويلز ، وهو الأمر الذي لم ينجحوا أبدا في تحقيقه مع الشعب الاسكتلندي . ان ممرات جبال الألب في سويسرا مكنت سكان المناطق الجبلية من إلحاق سلسلة من الهزائم الشنيعة بالجيوش الاقطاعية لأسرة هابسبورج Hapsburgs ، والحصول على استقلالهم . ان جنود المشاة في اقليم فلاندر Flanders حبالوا دون تحقيق طموحات الفرنسيين في الاستيلاء عليه مرارا وتكرارا كما حدث في معركة كورتراي Courtrai سنة ١٣٠٢ م ، وفي إيطاليا كان لجندي المشاة الفضل في تحقيق انتصار مدن شمال إيطاليا على فرديريك بربروسا Frederick Barbarossa الامبراطور الروماني المقدس ، في معركة ليغنانو Legnano سنة ١١٧٦ م .

وتفاوتت أنواع الأسلحة التي استخدمها هؤلاء المشاة الى حد ما وفقا للفترة التاريخية ، والبلد ، والمنطقة . وبعض هذه الأسلحة كان لا مثيل له في مكان آخر مثل فأس الحرب الدانمركية التي لها مقبضان واستخدمها الأنجلو سكسون نقلا عن الغزاة الدانمرك . وكان السلاح الواحد الذي يضم رمحا وفأسا للمعركة halberd شائعا بين أهالي سويسرا ، وهو نوع من الرمح طوله حوالى عشرين قدما ، ويحمل مجموعة متنوعة من الأدوات الملحقة المدمرة في طرفه ، خطاف ليجذب به الفارس أرضا من فوق جواده ، ورمح ، وفأس معركة يستطيع أن يصوبه جندي المشاة القوي بأقصى قوة لينجم عنها تحطيم درع أفضل الفرسان من حيث العدة القتالية . واشتهر أهالي ويلز بأقواسهم الطويلة التي استخدموها بدقة وقوة فائقة . ويدعى جيرالد من ويلز Gerald of Wales مؤرخ شعب ويلز الذي اتصف باطالة الحديث عن الأمور غير المهمة أنه شاهد أطراف سهم انطلق من القوس الطويل ، وقد انغرز لمسافة أربع بوصات في باب مصنوع من خشب البلوط . وتحدث أيضا عن فارس تسمر جسده بجواده بسهم اخترق أطراف قميصه الحربي وسرواله القصير ، وفخذيه ، وصهوة فرسه ، الى أن استقر جزء من السهم في خاصرة جواده .

وهناك القوس والنشاب ، وهو أشد فتكا بالرغم من أنه أقل دقة وأكثر صعوبة في اطلاقه . ويرتبط هذا السلاح في العادة بالقوات المرتزقة من أهالي جنوة ، الذين كانوا من بين أول المواطنين في أوروبا الذين حاربوا لقاء أجر . وتنطلق قذيفة هذا السلاح بقوة مروعة وتشوه أى شخص تشويها شديدا ان لم تقتله . انه كان سلاحا وحشيا للغاية لدرجة أن الكنيسة أصدرت قانونا كنسيا بتحريم استخدامه . ثم يأتى دور الرمح حيث يتم دفن طرفه الغليظ في الأرض ، أو يغرس في الأرض بالضغط عليه بالقدم ، عند ذلك يمكن لهذا الرمح أن يبقّر بطن أى جواد مهاجم . وبصرف النظر عن تلك الأسلحة الخاصة فينك الأسلحة الشائعة مثل السكاكين ، والخناجر ، والسيوف الطويلة ، وبلطات الحرب ، والسيوف المعقوفة عريضة الشفرة ، والقبضة الحديدية ، والرماح ، وكلها مجموعة أسلحة جندي المشاة . ومن أجل الوقاية استخدم جندي المشاة ما يمكن أن يحميه ، مثل الخوذة عندما كان ذلك متاحا ، واستخدم تروسا وقميصا به دروع ، وقفازات حديدية .

وعلى الرغم من أن جنود المشاة استطاعوا تحدى تكبر الطبقة الارستقراطية الاقطاعية وفرسانهم في أماكن من بلاد الأراضى المنخفضة وسويسرا ، فان هذه المنطقة المغرورة التزمت في النهاية بالسلوك الحسن عند ظهور حاكم قوى . ان الظروف التي ساهمت في اضعاف الدولة في

أوائل العصور الوسطى بدأت تعمل لصالح الدولة بعد نهاية عصر الاقطاع .
 ففي نهاية القرن الحادى عشر ، وبعد أن أشبع الفايكنج والمجريون رغباتهم
 أو تم استيعابهم ، بدأت أوروبا تنعم بحالة استقرار وسلام نسبي وانتشرت
 الصناعة والتجارة ، وازدادت المدن الكبرى والصغرى فى العدد ، وفى
 الكثافة السكانية ، وبدأ قدر متزايد من تدفق رأس المال يعمل على
 تنشيط اقتصاد غرب أوروبا - وفى وقت قصير استطاع الملوك جمع
 دخول حكومية كبيرة الى الحد الذى مكنهم من تمويل معظم تكاليف الحرب ،
 وانتزاع توجيه الحرب من أيدي الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض الذين
 اعتمد عليهم الملوك من قبل . فعلى سبيل المثال ، سمح هنرى الثانى ملك
 انجلترا لاتباعه الاقطاعيين بدفع مبلغ محدد عرف باسم البدلية ، بدلا
 من تأدية الخدمة العسكرية . ومن هذه المبالغ استطاع هنرى الثانى
 استئجار قوات مركزية ، وتعيين قادة لها وفقا لاختياره . ولقد عبرت
 الكنيسة ، وكذلك الصليبيون عن تأييدهم لظهور الملوك نظرا لأنهم هم
 الذين لبوا دعوة البابوات بصفة عامة لقيادة الجيوش المحاربة ضد غير
 المسيحيين . وبفضل ازدياد قوة الحكومات الملكية ، عقدت الكنيسة
 الآمال الكبرى على اقامة عالم مسيحى ينعم بالسلام .

كان وليم دوق نورماندى أحد الحكام الأول الذين تعاملوا مع
 أتباعهم الاقطاعيين بحزم ، وهو المشهور بوليم الفاتح لانتصاره فى موقعة
 هيستنجز سنة ١٠٦٦ م التى على أثرها صار ملكا على انجلترا . وبعد ذلك
 بوقت قصير وضع لويس السادس ، ملك فرنسا أسس سلطة ملكية
 قوية استخدمها فيليب الثانى أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) فى
 مد سلطته الى معظم فرنسا . وكان أروع انجاز حققه فيليب هو حرمان
 حنا ملك انجلترا الذى كان تابعا اقطاعيا له ، ويحكم غرب فرنسا ، من
 تلك الأقاليم ، وهى نورماندى ، واقطاعات أخرى شمال نهر اللوار .
 وفى سنة ١٢١٤ م شدد فيليب قبضته على تلك الأقاليم ، بعد أن هزم
 أتو الخامس ملك ألمانيا ، وحليف حنا فى موقعة بوفين . وبعد ذلك
 بمائة عام تقريبا ، كان فيليب الخامس يأمل فى استكمال العمل الذى
 بدأه فيليب الثانى ، وطرد الانجليز كليّة من فرنسا ، غير أنه منى
 بهزيمة منكرة فى موقعة كريس سنة ١٣٥٦ م . واستغرق ذلك الأمر قرنا
 آخر من الصراع قبل أن يتم انجازه فى حرب المائة عام (١٣٣٧ -
 ١٤٥٣ م) .

وكما ذكر من قبل ، فقد كانت الكنيسة أحد عوامل ظهور السلطة
 الملكية . ففي القرن الحادى عشر ، أوشكت البابوية أن تنزلق فى
 مستنقع النزاع السياسى الايطالى ، وناضلت من أجل انتزاع قدميها
 بمساعدة الملك الألمانى . ثم أخذت على عاتقها مهمة قيادة أوروبا لشن

الحملات العدوانية ضد المسلمين والتي عرفت باسم الجروب الصليبية بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين . ولم يشترك ملك واحد في الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) . إذ كان الاقطاع في أوج قوته في تلك الفترة ولم يكن الملوك في العادة يزيدون قوة عن أتباعهم الاقطاعيين الذين لديهم تطلعات قيادية . بيد أن ملكي فرنسا وانجلترا توليا قيادة الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ م) . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، أصبح من عادة الملوك قيادة جيوش بلادهم بناء على مطالبة البابا الملحة .

ولا توجد مشكلة استحوذت على جهد واهتمام البابوية منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية العصور الوسطى مثل تنظيم الحملات الصليبية ضد تركيا . ولمعرفة الخلفية التاريخية لتلك الحملات ، على المرء أن يرجع الى ظهور الاسلام والدولة التي أقامها محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) كدولة دينية سنة ٦٣٠ م عندما فتح مكة المكرمة . ثم حمل الخلفاء (الراشدون) (*) بعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) الدعوة الاسلامية الى خارج حدود الجزيرة العربية . وعند نهر اليرموك أحرزوا نصرا حاسما سنة ٦٣٦ م على الجيش البيزنطى ، وسيطروا على سوريا ، وفتح لهم الطريق الى فتح مصر وشمال أفريقيا بسرعة . وبعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) وضع شارل المطرقة حدا للتوسع الاسلامى عندما هزم المسلمين المغاربة فى موقعة تور سنة ٧٣٢ م .

وفى ذلك الحين ، وبرغم امتداد الدولة الاسلامية من نهر الهندوس الى بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ومصر ، وشمال أفريقيا ، وعبر آسيا الى جنوب غرب فرنسا ، فان غرب أوروبا ظل فى حالة من القلق غير الحاد . ان الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية هى التى زودت الغرب المسيحى بالشعور بالأمن وعزلته عن أى هجوم خطير من قبل المسلمين اذ ان سيطرتها على الأناضول Anatolia ، والقسطنطينية جعلها تتصدى بصفة مستمرة لمحاولات المسلمين الوصول الى البلقان . وفى سنة ١٠٩٥ م أرسل الامبراطور البيزنطى طلبا ملحاً للبابا أوربان الثانى Urban II للمساعدة ضد الأتراك السلاجقة ، الذين استولوا على الجزء الأكبر من الأناضول . ان الغرب قد أخذ على عاتقه مهمة الحملات الصليبية تحت قيادة البابوية لتدعيم أركان

(*) ما بين قوسين من عند المترجم .

الدولة البيزنطية الى حد ما ، وبصراحة أكثر لطرد المسلمين من بيت المقدس
وبيت ولحم .

حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحا كبيرا اذ لم تقتصر نتيجتها
على الاستيلاء على بيت المقدس فحسب ، وانما تلا ذلك بعد فترة قصيرة
قيام سلسلة من الامارات المسيحية التي امتدت على طول ساحل سوريا
الى الشمال . ومع ذلك ، فان مجرد نظرة الى الخريطة تكفى لتحذير أى
فرد من غرب أوروبا أنه ليس من الواقع فى شئ أن يفكر فى السيطرة على
تلك الأراضي اذا ما اتحد المسلمون . ان صلاح الدين هو الرجل الذى
استطاع توحيد معظم المسلمين ، وأظهر ضعف مركز المسيحيين - ان
انتصاره الساحق على جيش الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧ م وما تلاه
من فتحه بيت المقدس ، كان أروع أعماله فى حياته .

كان نجاح صلاح الدين فى فتح بيت المقدس ، ومن ثم انهائه تقريبا
الوجود المسيحى فى سوريا ، دافعا للملوك الثلاثة الذين يقودون أوروبا -
ريتشارد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفريدريك
برباروسا ملك المانيا - الى القيام بالحملة الصليبية المعروفة بالحملة
الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢ م) . وتبع ذلك حملات صليبية
أخرى دون تحقيق نجاح كبير ، ومات لويس التاسع سنة ١٢٧٠ م ابان
حدوث ما عرف باسم الحملة الصليبية الأخيرة . وواصلت الحركة
الاسلامية موقفها الهجومى ، بظهور الأتراك العثمانيين فى القرن الرابع عشر
الميلادى ، فى الوقت الذى ذهب فيه كل ما يتعلق بنوايا الفتح المسيحى
لسوريا ، أدراج الرياح ففى ذلك الحين أصبح شغل البابوية الشاغل
وكذلك أوروبا المسيحية هو عرقلة تغلغل الأتراك فى البلقان . وتحت
الحاح البابوية المستمرة ، أعد غرب أوروبا جيشا ضخما سنة ١٣٩٦ م
تقدم بحذاء نهر الدانوب ، والبهجة تملو وجوه الجميع لتوقعهم احراز نصر
مين ، الى أن وصلوا الى مدينة نيقوبوليس Nicopolis . وفى ذلك
المكان استطاع بايزيد السلطان التركى وجيشه تمزيق الجيش المسيحى
شر ممزق . ان بايزيد الذى عرف باسم الصاعقة ، كان يتطلع الى
الاستيلاء على مدينة القسطنطينية اذ ان استيلاء عليها يعطيه السيطرة
الكاملة على جنوب شرق أوروبا وأكبر المدن فى العالم الغربى . وكان فى
استطاعة بايزيد الاستيلاء على القسطنطينية فى ذلك الحين لولا الخان
المغولى ، تيمور الأعرج (تيمولانك) حيث فقد بايزيد جيشه فى موقعة أنقرة
سنة ١٤٠٢ م على يد تيمور ، وبعد ذلك بوقت قصير مات أسيرا فى مدينة
سمرقند عاصمة تيمور .

ان معركة أنقرة تحمل علامتين مميزتين للعصور الوسطى : فعلى الأرجح أنها اعتمدت على عدد من المحاربين ، الذين كانوا بلا ريب من الفرسان يفوق بكثير عدد قوات أى معركة قبل العصور الحديثة ، وأنها كانت إحدى المعارك الكبرى الأخيرة التى لم يلعب فيها البارود والمدافع الضخمة دورا بارزا . ووصل تأثيرهما الى العصر الجديد ، الذى كان فجره على وشك البزوغ .

٢ - معركة شالون

من بين الصور التاريخية التي تثير اهتمام المرء ، لوحة جصية للفنان رفاثيل Raphael تحمل عنوان « البابا ليو الكبير وأتिला » حيث يظهر البابا محاطا بالكرادلة وبعض رجال الكنيسة الآخرين في مواجهة ملك الهن وجماعيته من المحاربين ، كما يظهر والدخان والدمار الذي خلفه أتिला Attila ، الذي كان يتوعد به روما وامتلأت خلفيته اللوحة ببعض مبانيها المشهورة ، بما فيها مدرج روما القديم ، الكولوسيوم Colosseum . وفي الصورة تظهر يد ليو مرفوعة ، ويبدو بوضوح أنه يأمر ملك الهن بالعودة من حيث أتى . على أن أروع الشخصيات التي ظهرت في الصورة بطرس الرسول وبولس الرسول وهما يحومان في السماء فوق البابا ليو ، وفي أيديهما سيفان يهددان أتिला بالموت اذا ما حاول أن يتحدى أمر البابا ، والعبرة من هذه الصورة أن أتिला ارتد على أعقابهِ ، متأثرا اما بالموقف الصلب الذي سبلكه الحبر المقدس أو بسيفي الرسولين ، وأنه انسحب ومعه جيشه الى المجر .

واذا تساءلنا عن مدى صحة الأحداث المترابطة مع الحياة الواقعية المعبرة عن الماضي والتي تكون عرضة لرفضها ، فإن بهذه القصة شيئا من الصحة ، إذ ان البابا ليو الكبير قابل أتिला بالفعل ، ومن المحتمل أن هذه المقابلة تمت في أواخر صيف ٤٥٢ م ، على بعد حوالي ستين ميلا شمالي روما بالقرب من شاطئ بحيرة جاردا Lake Garda حيث كان ملك الهن معسكرًا . ولم يرافق ليو في هذه المهمة أحد من الكرادلة - إذ لم يتم التعرف عليهم وعلى قبعاتهم الحمراء الا بعد ذلك بكثير - وإنما رافقه اثنان من أشهر رجال السناتو المشهورين : هما تراجيتيوس Trygetius وأفينوس Avienus . كما أن طبيعة مباحثاتهم مع أتिला ليست معروفة ولم يذكر البابا ليو شيئا عن المجادلة كما ذكر المؤرخ المسيحي بروسبير Prosper الذي كتب تقريرا عما حدث بعد هذه الحادثة بسنوات قلائل . أما الرمولان والسيوف فقد أضيفوا فيما بعد لزخرفة أحداث القصة ، ومع ذلك تبقى حقيقة أن أتिला عاد الى المجر فور اجتماعه بالبابا ليو .

كان أتيلا أشهر القادة « البرابرة » الذين أنزلوا الخراب والدمار بالامبراطورية الرومانية ابان فترة تدهورها . ولقد فعل ذلك ملوك برابرة آخرون . على أن كلمة برابرة كانت تستعمل على نطاق واسع بمعنى غير الرومانيين أو شبيه المتحضرين - وكان الاريك Alarik ملك القوط الغربيين أول رؤساء القبائل الجرمانية العديدين الذين « اجتاحوا » مدينة روما سنة ٤١٠ م . وبعد ذلك بخمس وأربعين عاما قام الملك الجرمانى جزريك Gaiseric الوندالى ، الذى حكم شمال أفريقيا غربى مصر ، بنهب المدينة الخالدة Eternal City مرة ثانية . وجاء أودواكر Odovacer بعد أتيلا ، الذى يحتمل أن يكون جرمانيا سكيريان Scirian . وكان أقل رعبا كقائد من البرابرة . وعلى الرغم من أنه حظى بشهرة راسخة على أنه الرجل الذى عزل رومولوس أوغسطس Romulus Augustulus آخر « الأباطرة الرومان » فى الغرب . وبعد أودواكر جاء ثيودوريك الذى جعل ايطاليا قاعدة لمملكة القوط الشرقيين القوية الشكيمة التى اقتطعها من الامبراطورية التى كانت تحتضر . هؤلاء وملوك آخرون من البرابرة حظوا بشهرة فى فترة تدهور الامبراطورية الرومانية أكثر من أتيلا الذى ينتمى الى قبائل الهن . وبالرغم من ذلك استمرت شهرة أتيلا على أنه أشد الأعداء تخريبا ، واثارة للفرح حيث تعرضت لأفعاله الامبراطورية الرومانية المنهارة .

والشيء الذى أعطى أتيلا هذه السمعة المخيفة هو ميل الكتاب فى العصور الوسطى الى الاشارة اليه على أنه «سوط الله» Scourge of God اذ رأوا الله غضب على البشر فسلطه عليهم لانغماس الانسان فى الرذيلة . ولئن كانت بعض الكوارث من عمل الطبيعة فانها لم تكن لتثير من الخراب والدمار ما أحدثه أتيلا والهن . حقيقة أن أتيلا لم يحتل مدينة روما قط ، غير أن قدومه كان كفيلا باثارة ذعر الرومان اذ خطر ببالهم على نحو أشد من تفكيرهم فى الاريك ، على سبيل المثال الذى « نهب » مدينة روما فعلا . فقبل كل شيء لم يكن أتيلا مسيحيا كما كان الاريك الأريوسى المذهب الذى كان مسيحيا لا يؤمن بمذهب الكنيسة الكاثوليكية . بيد أن الطوائف المسيحية التى لاتدين بمذهب الدولة كان ينظر اليها على أنها أفضل بكثير من الوثنيين من أمثال أتيلا . كما أن الروايات التى قدمها المعاصرون عن الهن جعلت الشعب المتحضر يرتعش خوفا ، حتى ان أتيلا وجيشه دفعوا شعوبا مختلفة وكثيرة الى نبذ عداوتهم المتبادلة وحمل السلاح فى موقعة شالون Chalons . ففي هذه الموقعة كانت كل الشعوب من نهر الفولجا Volga الى المحيط

الأطلسي اما متحالفة مع ملك الهن العنيد أو ضده ، كما ذكر المؤلف ادوارد جيبون في كتابه ، « تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها » .

قليل من الرومان هم الذين شاهدوا الهن ، بيد أنهم سمعوا عنهم ، وعن أساليبهم الوحشية ، من المسافرين والعبيد الذين سقطوا في أيديهم ، ويقول عنهم جوردين Jordanes أنهم كانوا من ذرية الساحرات والأرواح النجسة ، ولا عجب حينئذ أنهم كانوا « قبيلة من الأقزام الأشرار الضعاف النفوس ، والمجردين من الانسانية ولم تكن لهم لغة خاصة بهم ، وانما مجرد أصوات شبيهة بصوت البشر » (١) . وكان مظهرهم مخيفا لدرجة أن الشعوب القوية كانت تهرب في فزع تجنباً للقاءهم ، « لأن لونهم الداكن كان يبعث على الخوف ، وكان الفرد منهم عبارة عن كتلة من اللحم لا شكل لها وليس لها رأس ، وبدلاً من العينين يوجد ثقبان صغيران . . ومع أنهم كانوا يعيشون كما يعيش البشر فانهم كانوا وحوشاً في قسوتهم . . . » (٢) .

ووردت هذه الأوصاف عن الهن في كتابات أحد القوطيين في القرن السادس الميلادي ، وهو مؤرخ قليل البراعة في أحسن الأحوال ، عاش في زمن كان فيه خطر الهن مجرد ذكرى كئيبة . أما ما يمكن الاعتماد عليه في وصف الهن فهو ما كتبه جندي يوناني يدعى أمينوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus الذي دون تاريخ الامبراطورية الرومانية في الفترة ما بين ٣٥٣ م الى ٣٧٨ م . ومات أمينوس حوالي سنة ٤٠٠ م . ومع ذلك لم تكن انطباعاته عن الهن مستمدة من العلاقات الشخصية وذكر أن موطن هذا العنصر البشري المتوحش في شرق بحر آزوف Azov . والشئ الذي يفسر مظهرهم الجسماني البغيض وجود عاهات تقليدية ، « اذ كانت وجنتا كل طفل بها آثار تجاعيد عميقة من آثار الكي بالحديد الساخن عند مولدهم . ونتيجة لوجود تلك الندبات المتصلبة فانهم كانوا يكبرون دون أن تنبت لأحدهم لحية ، ودون أن يكون لهم جمال الخصيان . وكان لكل منهم أطراف قوية ومكنتزة ، ورقبة غليظة ، وأما الوجه فكان قبيحاً بصورة بشعة ومشوها للحد الذي قد يحسب المرء أنهم من الحيوانات ذات الساقين » .

ويؤكد أمينوس للقارئ أنه على الرغم من بشاعة منظر هؤلاء الهن ، « فان لهم التكوين الشكلي للبشر » . ولم يستعمل الهن النار في اعداد طعامهم ، كالشعوب المتحضرة كما لم يعيشوا في بيوت ، وتجنبوا بناء المقابر للأشخاص العاديين وكانوا يدوا رحلاً . « ولم يحدث أن حرث فرد واحد حقلاً في أراضيهم ، أو لمس مقبض محراث . ولم يكن لأى منهم محل إقامة ثابت ، وعاشوا دون ماوى ، أو قانون ، أو أسلوب حياة متفق

عليه . وظلوا يهيمون على وجوههم من مكان لآخر ، كاللاجئين ومعهم عرباتهم التي اتخذوها مكانا للمعيشة » . وصنعوا ملابسهم من الكتان أو من جلود فئران الحقول ، ولم يغيروا ملابسهم أبدا ولكنهم ، « عندما يرتدون رداء طويلا يشد بحزام حول الخصر Tunic ، ياهت اللون فانهم لا يغيرونه الى أن يتحول الى خرق بفعل الزمن ثم يتساقط قطعة بعد قطعة » . « وكان الرجال يقضون معظم أوقات حياتهم على ظهور الخيل يمارسون شراء وبيع حاجياتهم البسيطة ، ومن مأكـل ومشرب ونوم ابان تنقلاتهم ، بل ويمارسون ادارة شئونهم التي تسمح بها ظروفهم وهم على ظهور الخيل أيضا .

ومن الممكن الاعتماد على وصف أمينوس للهن فيما يتعلق بالأسلحة التي استخدموها وطريقتهم في القتال ، ونظرا لأنهم كانوا يقضون معظم حياتهم على ظهور الخيل ، فانهم كانوا فرسانا مهرة لأنهم « كانوا معتادين على خفة الحركة والسرعة والمواقف المفاجئة ، كما كانوا يقسمون أنفسهم فجأة الى جماعات متناثرة ويهاجمون ويدفعون هينا وهناك دون نظام محدثين مذبحه مروعة . ووصفهم أمينوس بأنهم « أشد المحاربين جميعا اثارا للربح لأنهم يحاربون من مسافات بعيدة مستخدمين القذائف التي يها عظمة بدلا من طرفها المديب في العادة وهذه العظمة الحادة مربوطة بالرمح بمهارة فائقة ثم ينقضون بسرعة ليقطعوا المسافة التي بينهم وبين العدو ويقاتلون وجها لوجه بالسيوف دون مبالاة » .

ان استهتار الهن بالمسئولية الأخلاقية ضاعف من شراستهم . « واذا ما عقدوا هدنة كان لا يؤمن لهم جانب ، وكانوا يميلون بشدة الى انتهاز أى فرصة دون مراعاة المشاعر . وكانوا يجهلون كلية الفرق بين الصواب والخطأ كالحوانات الجامحة ، وكانوا مخادعين ، ويجنحون الى المراوغة عند محادثتهم . ولم يعتنقوا ديناً أو يوقروا عقيدة » . على أن الشيء الذى ساعد على تفاقم تلك الغرائز الدنيئة ، ودفعهم للعمل هو ، « شغفهم الذى لا نهاية له بالذهب » . وباختصار كتب أمينوس ، « ان هذا الجنس من البشر الذى لم تعقه أى روابط والذى كان يتحرق شوقا مدفوعا بالرغبة الا انسانية الى انتزاع ممتلكات الآخرين شق طريقه العنيف بعمليات السلب والنهب والقتل التي شملت الشعوب المجاورة له » (٣) .

ولسوء الحظ فانه منذ أن دون المؤرخون الأول الأوصاف المزعجة عن سلوك الهن وتصرفاتهم فى القرنين الرابع والخامس للميلاد لم يظهر أى شىء مكتوب له أهمية تذكر يمكن أن يخفف من كآبة الصورة التي تركوها عنهم . وساعدت الاكتشافات الأثرية الى حد ما على تقديم قدر

ضئيل من الأدلة الواضحة عن نوع الحياة التي عاشها الهن عندما كانوا يعيشون شرق بحر قزوين .

علي أن أقوى العوامل التي حددت سمات الهن وطرق معيشتهم كان بلا شك مناخ الأراضي التي عاشوا فيها . فنتيجة للأمطار القليلة التي كانت تسقط في أواسط آسيا ، ونعني بذلك أراضي السهول الواسعة الخالية من الأشجار والممتدة شرق جبال الأورال إلى منغوليا ، وضع المؤرخون في الماضي شعوب تلك المنطقة في قائمة البدو الرحل . ولم يكن لهؤلاء القوم مواطن دائمة . كما أن بحثهم عن الطعام اللازم لهم ولسلالاتهم جعلهم في حالة تنقل مستمر من مكان إلى آخر . بيد أن اكتشاف هذه الأماكن المهمة نسبيا في بلاد الهن دفع العلماء إلى تطوير وجهة نظرهم الأولى عن الهن واعتبروهم شعبا شبه بدوي . ويبدو أن الهن شغلوا مساحات دائمة ، وعلاوة على ذلك ، تحركوا في نطاق منطقة شاسعة . وفي الربيع كانوا يسوقون قطعانهم شمالا تجاه المراعي التي كانوا بها في العام السابق ، وعندما يقترب الربيع يعودون ثانية إلى مجل اقامتهم الشتوى الذي اعتادوه . مما يعد سمة هامة للحياة البدوية الحقيقية .

ومنذ فجر التاريخ اعتمدت حياة البدو وأشباه البدو على تربية الحيوانات ولا يمكن استثناء الهن من ذلك . فاقبض الهن قطيعا كبيرا من الخيول والأغنام بالإضافة إلى الماشية . وأمدتهم الخيول بوسيلة الانتقال واستخدموها في زمن الحرب ، كما كانت موردا هاما للحوم والألبان . وكانوا يسلقون قطعان غليظة وقصيرة من لحوم الخيول في مراحل ضخمة ويعتمدون على لبن الفرس كشراب لهم في مسيرهم . وأمدتهم الأغنام بالطعام ، والملبس والماوى واللبن ، واللحم والجلود والمنسوجات الصوفية أو اللباد لخيامهم والجلد لصناعة أحذيتهم . وأحيانا كانوا يمارسون الألعاب الرياضية وصيد الأسماك ، وقد أفلحوا في زراعة الدخن ، برغم قلة الأمطار وقصر مدة فصل الزراعة . أن أيديهم لم تلمس محراثا على الإطلاق إذ لم يتم اكتشاف شفرة محراث واحدة في الأرض التي كانوا يعيشون فيها . وهذا هو مبلغ نجاحهم في هذا الميدان ، ويبدو أن أمينوس مارسيلينوس حقق في قوله .

ورغم أن اقتصاد الهن كان قائما على الاكتفاء الذاتي فانهم مارسوا نوعا من التجارة مع الشعوب على امتداد حدودهم . وكانت صادراتهم الأساسية الخيول والعبيد . إذ قاموا بتربية الخيول ، وأسر العبيد إبان اغارتهم وفي زمن الحرب . ولم يكن لديهم حاجة لاستخدام العبيد . أما الذهب الذي حصلوا عليه مقابل بضائعهم أو حصلوا عليه أنهباه

اغارتهم ، فكانوا يشترون به النسيذ والحريز ، أو ربما اكتفوا بترك
مخزراتهم من الذهب تتكدس كما فعل الآفار Avars ، والمجريون .

وفي رحلتهم البطيئة الى المراعى الشمالية وفي عودتهم الى مأواهم
الشتوى نقل الهن الأبطال الصغار والمسنين والعجزة في عربات لها
أربع عجلات . وعندما يتطلب الأمر سرعة أكثر ، كما كان يحدث عند
الإغارة كانوا يستخدمون عربات ضخمة ذات عجلتين ، وعندما يرغبون في
استخدام أقصى سرعة كانوا يمتطون صهوة خيولهم . ان سرعة هذه
الخيول تركت انطباعا قويا عند المراقب الغربى ، هذا بالإضافة الى قدرة
تلك الحيوانات على التحمل والجلد بشكل يفوق العادة . ولا شك أن
الأحوال فى بلاد الهن جعلت خيولهم تتمرس على تحمل الظروف التى
لا يمكن للخيول الغربية تحملها ، كما ذكر فيجيتيوس Vegetius

الكاتب الرومانى فى القرن الرابع الميلادى ، فقد لاحظ فيجيتيوس ،
« أن الحصان الرومانى كان يفوق الحصان الذى يستعمله الهن فى
الذكاء والهيئة ، إلا أن الحصان عند الهن كان أكثر صبرا ، وقدرة على
الاعتماد عليه ، وعلى تحمله للمشاق . وفى الحقيقة كانت خيول الهن
حيوانات بشعة المظهر ، لها رؤوس كبيرة ، وأعين بارزة ، وتبدل شعور
أعناقها حتى الرجلين الأماميتين وضلع قفصها الصدرى كبيرة ،
وحوافها مفرطحة ، ومع ذلك لم تخل من مسحة من الجمال برغم قبح
مظهرها » (٤) .

وبناء على ما سبق ذكره ، فيبدو أن ما ذكره أمينوس عن براعة
الهن العسكرية الفائقة كان صحيحا . فقد تفوقوا كفرسان وكرماة
بالسهام . وتعلموا تلك المهارات ومارسوها منذ الصبا . فبالإضافة الى
القوس والسهام حمل المحارب من الهن سيفا ورمحا ، وربما أنشودة
Lasso وهو سلاح كان شائعا بين شعوب السهول الواسعة
الخالية من الأشجار Steppe وكان هذا السلاح منفصلا عند الألمان
Alans . واعتمد الهن على قطع من الجلد محشوة بالصوف
كغطاء للحماية هذا فى حالة اذا لم يتمكنوا من الاستيلاء على حديد
أو شرائه من الشعوب المجاورة لهم والأكثر منهم تحضرا . وكان الفرد
منهم يحمل ترسا مصنوعا من الأغصان الصغيرة المجدولة ، والمغطاة
بالجلد .

ويرجع الكثير من الميزات التى تفوق بها الهن على أعدائهم الذين
دخلوا معهم فى قتال الى سرعة خيولهم ، وقدرتها على التحمل . فكانت
المسافات الطويلة بسيطة بالنسبة اليهم ، وكانوا فى العادة يصلون
أسرع مما يتوقع أعداؤهم الذين كانوا يضنابون بالاضطراب . وعند

اقتربهم من عدوهم كانوا يحدثون ضجة مخيفة ، ثم يطلقون وإبلا
كثيفا من السهام وبعده ينقضون على العدو فى معركة وجهها لوجه .
ولقد برع الهن شأنهم شأن المحاربين فى المناطق السهلة الواسعة الخالية
من الأشجار فى العالم فى المناورة بالانسحاب السريع . ولم يستعملوا
مهمازا أو ركابا بالصورة التى نعرفها ، لكنهم استخدموا نوعا من السروج
الخشب الذى كان يساعدهم على البقاء على مطاياهم فى أمان .

وعلق كل من جوردين *Jordanes* وأمينوس على أساليب حياة
الهن الفاسدة ، بيد أنهما لم يذكرنا شيئا عن المعتقدات الدينية والتقاليد
كما أن جهود علماء الآثار لم تقدم الا القليل لتوضيح مشكلة دياناتهم .
لقد كان منهم عرافون ، ورجال تنبؤ بالفال الحسن أو السيئ واستخدموا
التعاوين ، وصنعوا الأوثان من الأحجار الكريمة ، والأحجار ، والطباشير ،
وثمة دليل على أنهم قدموا القرابين من الحيوانات لألهتهم . على أن العلماء
توصلوا الى تحديد اله كان يعبد الهن ، وهو عبارة عن سيف مقدس كان
يرمز الى اله الحرب . ولكننا لا نعرف أسماء آلهتهم التى كانت على شكل
انسان أو حيوان ، كما لم يتجرأ عالم على القول بأن لهم كهنة .

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى ، عندما استعد أتيليا للاتجاه
بجيشه غربا الى بلاد الغال ، اعتقد أمينوس ومعاصروه أن ما يدور بخلد
الهن مجرد شن غارة من غارات البدو الرحل مادام أن الطعام أكثر وفرة
شمال البحر الأسود عنه فى أى مكان فى الأراضى المنبسطة شرق بحر
قزوين . وعلى الرغم من استخدام الغالبية للعربات الكبيرة أو الخيام
المصنوعة من اللباد ك مساكن ، فإن الشخصيات الطموحة والثرية عاشت
فى ديار مصنوعة من الخشب . وظلت تربية الحيوانات هى المصدر
الرئيسى للطعام ، فقاموا بزراعة بعض الدخن وشربوا نوعين من الشراب
يشبهان الجعة والميد *mead* عند الجرمان . واستهلكوا أيضا كميات
كبيرة من النبيذ ، وكان البائعون الجائلون يقومون بتهريبها من جنوب نهر
الدانوب . ولم يشجع قادة الهن التجارة مع الرومان ، وقيدوها بالسوق
السنوى الذى كان يعقد على نهر الدانوب والذى كان يعقد بعد سنة ٤٤٧م
فى مدينة نيس *Naissus (Nis)* . على أن السلع التى احتاجها الرومان
بشدة من الهن كانت العبيد والخيول .

ولا ريب فى وجود طبقات اجتماعية عند الهن شرق بحر قزوين ،
وهو الأمر الذى ظهر بوضوح فى وصف الكتاب الغربيين عندما تحدثوا
عن أتيليا وشعبه فى المجر . فبعد الملك وممارسته لمركز السلطة العليا
وجدت طبقة أرستقراطية قامت على المولد والخدمة العسكرية وكون قادة
تلك الطبقة نوعا من مجلس الدولة الذى قدم المشورة للملك . وجد الملك

حرسه الخاص من بينهم ، ونعمت الطبقة الأرستقراطية بحق اختيار الغنائم والعبيد . وفي عهد أثيلا ، نعم أونيجيوس Onegsius أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية بمركز مشابه لرئيس الوزراء أو الوزير . وشغل مكانة الشرف في المناسبات الرسمية ، وعاش في منزل يلي في الحجم منزل أثيلا .

ونظرا لانخفاض المستوى الثقافي لشعب الهن لم توجد حدود فاصلة بين الطبقة الأرستقراطية وطبقة العامة من الرجال والنساء . وكان معظم شعب الهن ينتمى الى الطبقة الأخيرة . وكانت الغالبية العظمى من الهن أحرارا . وكانت ثقافتهم البدوية الترحالية تقف عائقا ضد امتلاك الرقيق على نطاق واسع . وكانت أدواتهم الاجتماعية ساذجة للغاية ، وكانوا يفضلون الذهب على العبيد ، اذ كانوا على استعداد لمقايضة العبد بالذهب . والعبد الوحيد الذى ذكره بريسكوس Priscus معلم ومؤرخ القرن الخامس الميلادى كان المهندس المعمارى الرومانى الذى كلفه أونيجيسيوس ببناء حمام حتى يستطيع أن يستمتع بمظاهر الرفاهية الرومانية . وكان هذا الرومانى يأمل فى الحصول على حريته مقابل براعته .

ولم يدفع الهن ضرائب ، اذ ان الاحتياجات البسيطة لحضارتهم البدوية لم تجعل هذا الأمر ضروريا ، كما أن افتقارهم الى النظام الادارى جعل تحصيل الضرائب أمرا مستحيلا . وكان على كل فرد من الهن أن يجعل الأسلحة التى أعدها لنفسه ، وبعد انتهاء الحرب لم يكن هناك حاجة الى الموارد المالية . ومع ذلك فبالرغم من أن الأساليب البدوية تركت للهن حرية شخصية أكثر مما يسمح بها أى مجتمع راسخ ووطيد ، فان تلك العادات البدوية نفسها تفسر فشل الهن فى إقامة مجلس يضم الرجال الأحرار يضع السلطة المطلقة للقبيلة فى أيدي الغالبية كما كان الحال عند الجرمان .

لم يعرف أمينوس ومعاصروه شيئا عن نشأة الهن أكثر من أنهم شعب قد أتى من البلاد غير المعروفة خلف بحر قزوين وأنهم عاشوا فى الاقليم الواقع شرق الدانوب ، وهى أراض لم يكن يعرفها كتاب العصور الوسطى الأولى . اذ اعتاد الكتاب القدامى الاكتفاء بالاطلاق على أى شعب يعيش خلف الدانوب لفظ السكيثيين Scythians

وبحلول القرن الخامس الميلادى كان الكتاب البيزنطيون يفرقون بين الهن والبرابرة الشماليين ، وكان هذا هو كل شيء : اذ كانوا لا يعرفون شيئا يتعلق بموطن الهن القديم فى آسيا . ولم يقدم لغة الهن شيئا يفيد فى حسم هذا الأمر ، كما لم يتمكن علماء اللغات من تقديم شيء يفيد فى هذا المجال . ولنا أن نتساءل اذا ما كان لهؤلاء الهن علاقة مع الهسيوج نو

Hsiung No الذين هاجموا الصين ابان القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ومن أجل ذلك بنى الصينيون السور العظيم . وأيا كان الحال فمن المرجح أنهم من الشعوب المغولية الآسيوية . ولذلك فانهم أبناء عمومة للآفار والمجريين الذين تبعوهم فيما بعد من الأراضى المنبسطة الخالية من الأشجار خلف بحر قزوين الى جنوب روسيا .

ظهر الهن حوالى سنة ٣٨٥ م فى السهول الواقعة شمال البحر الأسود . وهناك دخلوا فى معارك ضد الألن والشعوب الآسيوية الأخرى (٥) الذين أخضعوهم لسيطرتهم بعد سنوات عديدة من الاغارات المتبادلة . ونجح بعض الألن فى أن يشقوا طريقهم غربا ، حيث شاركوا العديد من القبائل الجرمانية فى اجتياح بلاد الغال وخضع معظم الألن لسلطة الهن وانضموا اليهم فى اخضاع شعب القوط الشرقيين الذين عاشوا غرب الألن تماما . ونجح بعض القوط الشرقيين فى الهروب غربا ليلحقوا بابناء عمومهم القوط الغربيين الذين كانوا فى طريقهم تجاه الدانوب كى يفلتوا من خطر الهن .

ومنذ ذلك الحين فحسب أصبح العالم الرومانى على علم بوجود هؤلاء الهن . ذلك لأن الهن أكثر من غيرهم من الشعوب المتبربرة ، كانوا مستولين فيما عرف بالتسرب التدريجى للشعوب الجرمانية شبه المتحضرة الى داخل الامبراطورية عبر نهري الراين والدانوب . وصار هذا النشاط حركة قوية وكانت نذيرا بنهاية العالم القديم فى الغرب . وفى سنة ٣٧٥ م حصل القوط الغربيون Visigoths على موافقة فالينز Valens الامبراطور الرومانى سريع الفهم والادراك على أن يعبروا نهر الدانوب الى داخل أراضى الامبراطورية وبذلك جعلوا هذا النهر حصنا قويا فى وجه الهن . وبعد ذلك بعامين اتحد هؤلاء القوط وكذلك القوط الشرقيون Ostrogoths وانضم اليهم الألن ، واستطاعوا جميعا القيام بثورة ، وقضوا على فالينز وجيشه الرومانى فى موقعه ادريانوبل Adrianople (٣٧٨ م) ، ولم تقف الامبراطورية من هذه الكارثة أبدا .

على أن المخاوف التى انتابت كثيرا من الرومانيين سنة ٣٧٦ م من أن يتعقب الهن القوط الغربيين عبر نهر الدانوب لم تتحقق . كما أن التاريخ العام للامبراطورية الرومانية من سنة ٣٧٦ م الى ٤٥٠ م أعطى لهن أهمية قليلة . وفى خلال تلك الفترة التى امتدت حوالى خمسة وسبعين عاما شغلت التاريخ شعوب متبربرة شمالية أخرى أولا : كان هناك القوط الغربيون ولفترة من الوقت قنع هؤلاء القوط بالبقاء فى الأراضى المهجورة فى تراقيا ومؤزيا Moesia التى كان قد حدها لهم الامبراطور ثيودوسيوس خليفة فالينز ، غير أن ذلك لم يكن لفترة طويلة . فعندما

مات ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م ثاروا مرة أخرى ، وفى هذه المرة تحت قيادة الأريك Alaric أشهر قادتهم . ولأكثر من عقد من الزمان قاد Ilyrium الأريك شعبه والحلفاء الألل عبر بلاد اليونان واقليم ايليريا ينهبون ويسلبون فى الوقت الذى كانوا فيه يبحثون عن موطن لهم . وحينما كان ستيليكو Stilicho القائد الوندالى يقود الجيش الرومانى فى الغرب على قيد الحياة لم تكن هناك قرصنة فى التوغل فى أراضى ايطاليا ، حيث كان الأريك يأمل فى أن يقود شعبه الى هناك . ولكن فى سنة ٤٠٨ م أعدهم هونوريوس Honorius الامبراطور الرومانى الضعيف الذى كان يخشاه . وفى سنة ٤١٠ م احتل الأريك وأتباعه من القوط الغربيين روما ، وأباحوا نهبها لمدة ثلاثة أيام ، ثم تحركوا جنوبا . وعندما مات الاريك ، خلفه أثولف Athaulf زوج ابنته ، الذى قاد القوط الغربيين ثانية الى شمال ايطاليا وعبر الجزء الغربى من جبال الألب الى بلاد الغال ، وفى آخر الأمر أقام أول الممالك الجرمانية فى اقليم أكويتين Aquitaine . وفى سنة ٤١٥ م عبروا جبال البرانس الى اسبانيا . وهناك قبائل جرمانية أخرى كانت فى طريقها الى داخل حدود الامبراطورية . ولم يجبلوا مقاومة تذكر لصددهم لأن ستيليكو كان قد سحب القوات الرومانية من حدود نهر الراين وبريطانيا ابان محاولاته لابعاد الاريك عن ايطاليا .

وبناء على ذلك ففى عامى ٤٠٥ - ٤٠٦ م عبرت أعداد من القبائل الجرمانية نهر الراين . وكان الوندال من بين تلك القبائل الجرمانية . ونهبوا كل ما صادفهم فى طريقهم عبر بلاد الغال حتى وصلوا الى اسبانيا . وبعد ذلك بعدة سنوات أقاموا مملكة قوية فى شمال أفريقيا . وكانت مملكة الوندال فريدة فى رفضها لقبول الترتيبات الأمنية التى لجأت اليها القبائل الجرمانية الأخرى بشأن الاعتراف بسيادة روما (٦) . ومع ذلك فإن الشيء الذى كان أكثر خطورة من هذا التحدى هو ذلك الأسطول الذى شيده واستخدمه فى السيطرة على غرب البحر المتوسط . ومكنهم هذا الأسطول من نقل القمح بحرا من أفريقيا ، وكانت روما فى حاجة اليه لطعام سكانها ، كما مكنهم هذا الأسطول من اجراء المقايضات لصالحهم مع القبائل الجرمانية المحالفة Foedrati فى الشمال .

ومن القبائل الجرمانية التى كانت تصنع التاريخ ابان لفترة بين ٣٧٦ م و ٤٥٠ م بعد أن استدعى ستيليكو الفرق الرومانية من بريطانيا : الانجليز Angles ، والسكسون Saxons التى بدأت فى العبور الى الجزيرة البريطانية فى أعداد متزايدة عندما وجدوا أن المواطنين الأصليين غير قادرين على صددهم . ولكنهم لم يكملوا فتحهم لبريطانيا الا فى نهاية القرن السادس الميلادى . كما أن الفرنجة الصالين Salian Franks

الذين كان الامبراطور جوليان Julian قد سمح لهم بشغل المنطقة التى تقع بين ميوز Meuse ، وشيلدت Scheldt ، مدوا سيطرتهم حتى السوم Somme ، وكذلك الألمان Alemanni والفرنجة الريبوريون Ripaurian Franks . والبرجنديون Burgundian عبروا أيضا نهر الراين ، وقام الآخرون بشق طريقهم حتى وصلوا الى وادى الرون .

وأين كان الهن فى ذلك الوقت وماذا كانوا يفعلون ؟ ربما انضم قليل منهم الى القوط الغربيين فى موقعة أدريانوبل سنة ٣٧٨ م على الرغم من أن هذا الافتراض مشكوك فيه . ومن المحتمل أنهم ابتعدوا بأنفسهم عن شئون الامبراطورية ، واكتفوا فى ذلك الحين بنهب جيرانهم واسترقاقهم . واذا كان الهن قد عبروا اقليم الدانوب للمشاركة فى نهب وسلب اقليم تراقيا Thrace بعد مأساة أدريانوبل فإنهم عادوا على الفور الى موطنهم شمال نهر الدانوب . ويوجد سجل تاريخى عن اغارات عبر ذلك النهر ٣٨٤ م ولكنها كانت على القوط الغربيين وليست على الرومان ، اذ كان ثيودوسيوس قد عهد الى القوط الغربيين بالدفاع عن ذلك الاقليم ، فى مقابل منطقتى مؤيزيا Moesia ، وداكيا Dacia الشاسعتين اللتين تنازل عنهما ثيودوسيوس ، وكان القوط الغربيون بمثابة « درع لا يقهر ضد اغارات الهن » (٧) .

ومما يثبت الدور الرئيسى للهن فى مواجهة الامبراطورية الرومانية ابان نصف القرن التالى لمعركة أدريانوبل اعداد القوات العسكرية وتجهيزها للدفاع عنها اذ احتاج الأباطرة الشرعيون الى فرسان الهن بدرجة ملحّة ، وكذلك الأباطرة الانتهازيون الذين زعموا أحقيتهم للعرش الامبراطورى . ففى سنة ٣٢٨ م نجح الامبراطور ثيودوسيوس فى إلحاق الهزيمة بماكسيموس Maximus المدعى بأحقية فى العرش بفضل مساعدة الهن والقوات المساعدة من البرابرة الآخرين . واحتفظ ستليكو بقوات من الهن فى جيشه ابان حملاته ضد الاريك كما فعل أيضا عندما تصدى لمنافسه أيوجينوس Eugenius الذى ادعى أحقيته فى العرش بل ان روفينوس Rufinus ، « الرجل القوى » فى القسطنطينية ابان عهد الامبراطور أركاديوس Arcadius غير المقتدر ، احتفظ بحرس شخصى من الهن . ووصل الأمر الى أن سمح روفينوس لآلاف من الهن بالعبور الى تراقيا ، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، حيث استقروا فى أراضٍ منحتها لهم الحكومة الامبراطورية .

وفى السنوات الأخيرة من القرن الرابع الميلادى ظهرت مملكة الهن شيئا فشيئا من بين القبائل المنتشرة والمستقلة الى حد كبير ، وظهرت لأول مرة شمال البحر الأسود . وهناك فى هذا الاقليم الخصب كان من السهل

على رؤساء القبائل الأقوى والأكثر طموحا أن يمارسوا قدرا من السلطة .
ولا شك أن نموذج القبائل الجرمانية المجاورة الذين قبلوا قيادة شيخ
القبيلة أو الملك أثر على قبول الهن التدريجي للنظام نفسه .

ويعتبر أولدين Uldin أول ملك للهن ورد ذكره عند الكتاب
الرومان . واستنتج العلماء أن سلطته كانت اسمية الى حد كبير . وقدم
هذا الملك المساعدة للرومان ، كما قدمها الى ستليكو ، ثم قاد الغارات
عبر نهر الدانوب كلما سنحت الفرصة لذلك ، على ما يبدو ، أو بناء على
مقترحات شيخ القبائل . ومن الواضح أنه كان يفتقر الى السلطة في
اجبار القادة الآخرين على عدم التعامل مباشرة مع الامبراطورية أو
مهاجمتها . وفي سنة ٤٠٨ م انتهز أولدين فرصة الموقف الحرج الذي
واجه ستليكو والامبراطورية نتيجة لتحجيد الاريك وقاد الهن عبر الدانوب
الى اقليم تراقيا . بيد أنه عاد مسرعا الى المجر طلبا للنجاة عندما علم أن
العديد من رؤساء قبائل الهن قد قبلت الأموال الامبراطورية ورفضوا تقديم
العون لهم .

وهناك القليل من الروايات القوية عن الهن ابان العشرينيات
والثلاثينيات من القرن الخامس فقبل هذا التاريخ بوقت طويل استطاع
الآل النخلص من سيطرة الهن والقيام بعمل منفرد حيث عبروا نهر الراين
الى بلاد الغال . هذا في الوقت الذي تضاءلت فيه اغارات الهن في تلك
الفترة . ويوحى كل ذلك بعدم وجود قيادة قوية وليس معنى هذا أن
السلطة المركزية للهن قد انتهت بدليل أن أيتيوس Aetius قائد القوات
الرومانية في الغرب سنة ٤٢٥ م استطاع تجنيد عدة آلاف من الفرسان
الهن للعمل تحت قيادته .

وظهر ملك جديد للهن ابان تلك الفترة التي اكتنفها الغموض
اسمه روجا Ruga ، غير أنه ليس هناك ما يبين بوضوح ما اذا كان خليفه
للملك أولدين ، أو أحد رؤساء القبائل . وفي حين لا نجد سوى القليل
عن هذا الحاكم فقد لاحظ العلماء أنه انتهج سياسة حافظ عليها الهن من
بعده وقامت على التعامل مع الامبراطورية الرومانية على أنها امبراطوريتان
منفصلتان ، امبراطورية غربية وأخرى شرقية . ولا ريب أن هذه السياسة
كانت معقولة . وأنها حدثت من وطأة الرومان على الهن ، كما أنها مكنت
الهن كذلك كلما سنحت الفرصة ، من أن يرفضوا الحقوق المنوطة لهم
على هذا الجزء من الامبراطورية أو ذاك بسهولة أكثر . ومن ثم أمد روجا
Ryga أيتيوس Aetius بالفرسان ابان الفترة التي كان أيتيوس يدير
فيها الشؤون العسكرية والسياسات الامبراطورية في القسم الغربي من
الامبراطورية . وأما بالنسبة لأباطرة القسم الشرقي فلم يقتصر الأمر على

رفض روجا تقديم مساعدة لهم ، وانما حرم على رؤساء قبائله تقديم أى عون لهم ، وفى الوقت نفسه طلب اعانة سنوية قدرها ثلاثمائة وخمسون رطلا من الذهب من ثيودوسيوس الثانى الامبراطور الشرقى . وعندما التحقت جماعة من الهن بخدمة الامبراطور الشرقى متخدية أوامر روجا ، شرع فى مهاجمة القسطنطينية غير أن المنية وافته سنة ٤٣٤ م قبل أن يأمر جيشه بالسير .

أحدث موت روجا موجة عامة من الفرح وتعشمت العاصمة خيرا اذ ان روجا لم يترك ابنا قادرا على خلافته واعتقدوا أن قوة الهن ستخمد ، وسيكون هناك عودة الى حد كبير الى السياسة الايجابية التى انتهجها الهن قبل اعتلاء روجا العرش .

غير أن توقعات القسطنطينية تمخضت عن خيبة أمل شديدة لأن بليدا Bledo وأتिला Attila وهما ابنا موندريك Mundiuch شقيق روجا توليا السلطة كملكين مشتركين دون أية صعوبة تذكر . ووافقت القسطنطينية على الحاكمين الجديدين ، ووافقت على عقد معاهدة جديدة معها دون تردد ، ودون اجراء مفاوضات مطولة . وضمنت هذه المعاهدة استعادة كل الذين هربوا الى بلاد الهن مقابل فدية قدرها ثمانية صولديات Solidi عن كل شخص . وتعهدت القسطنطينية ألا تعقد أية معاهدة مع أى شعب من الشعوب المتبررة يكون فى حالة حرب مع قبائل الهن ، كما تعهدت الامبراطورية مع الهن أيضا على اقامة أسواق موسمية على نهر الدانوب . وأخيرا زادت الاعانة السنوية التى كانت تقدمها القسطنطينية الى الهن من ثلاثمائة وخمسين رطلا من الذهب الى سبعمائة رطل . وأصبح واضحا أن الحاكمين الجديدين اهتموا بإدارة أمور الدولة بقبضة من حديد . وذلك عند عودة اثنين من أبناء أحد رؤساء القبائل كانا يعملان فى خدمة القسطنطينية ، اذ تعرض كل منهما لعقوبة الاعدام صلبا على الفور .

واستمر الأخوان أتिला وبليدا يشتركان فى مسئولية الحكم لمدة زادت على عقد من الزمان . وكان بليدا هو الأكبر سنا ويبدو أنه حقق لنفسه مركز الصدارة على أخيه ، على الرغم من أن قوة شخصية أتिला حققت له عنصر التفوق حتى قبل سنة ٤٤٥ م (أو ٤٤٦ م) ، عندما قال باغتيال أخيه .

وفى الوقت نفسه ما أن فرضت المعاهدة الجديدة على القسطنطينية حتى كرس الأخوان جهودهما لفرض سيطرتهم على القبائل المختلفة بالاضافة الى الشعوب الجرمانية التى دانت بالاعتراف بالحكم الهنى . وكان شعبا الجيبيد Gepids والقوط الشرقيون Ostrogoths من أهم

الشعوب التى اعترفت بالحكم الهنى • وكذلك قبائل الروجيان Rugians
والهيرول Heruli والسكريان Scirians والتركيلنجى Turciling
والسويفى Sueves وآخرون • على أن اللومباردين Lombards
كانوا القبيلة الوحيدة الكبرى فى شمال الدانوب التى نجحت فى الاحتفاظ
باستقلالها على الرغم من أن أتिला نفسه لم يكن يعرف حدود امبراطوريته
على وجه الدقة ، فان المؤرخين يعتقدون أنه مارس سلطة فعالة على الشعوب
فى النمسا ، والمجر ، ورومانيا ، وجنوب روسيا ، وجزء من بانونيا
Panonia جنوب نهر الدانوب وكان مركز قيادته فى المجر فى مكان
ما بين نهر الدانوب وأنهار ثيس Thess • ونظرا لأن المباني كانت
مشيدة من الخشب فقد فُشل علماء الآثار فى الكشف عن أية آثار
لعاصمته •

ان أتिला ، الرجل الذى حكم هذه الامبراطورية الضخمة والذى تاقت
نفسه الى احتلال كل أوروبا ، احتل مكانه جنبا الى جنب مع جنكيزخان
وتيمور لانك كأحد الثلاثة الغزاة الذين أثاروا الفزع ، والذين أنجبته
شعوب آسيا • ولم تتبق سوى صور وصفية موجزة لأتिला • فلم يكتب
بريسكوس Priscus المؤرخ المعاصر سوى القليل عنه على النقيض من
كتابات المؤرخ جوردين الذى كتب بعد موت أتिला بقرن من الزمان • ففى
تاريخه عن القوط قدم الصور التالية عن ملك الهن : « انه رجل ولد ليهز
أركان الأمم ، انه سوط لكل البلاد ، استطاع أن يربع كل الجنس البشرى
بفضل الاشاعات المثيرة للذعر التى ذاعت عنه • وكان متكبرا فى مشيئته
يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشما ، لدرجة أن قوة الاعتداد بنفسه
تجلت فى خركات جسمه • والواقع أنه كان مولعا بالحرب • ومع ذلك
كان لديه المقدرة على كبح جماع نفسه أثناء العمل ، وربما فى تقبل
النصيحة ورعوا بالمتوسلين اليه ، وكان لين الجانب مع هؤلاء الذين ارتضوا
حمايته لهم • وكان قصير القامة غريض المنكبين ، كبير الرأس ، صغير
العينين ، وكانت لحيته خفيفة مقاربة الى اللون الرمادى • وكان أفتس
الأنف ، وتميل بشرته الى اللون الداكن مما يدل على أصله » (٨) •

ولا تختلف هذه الصورة الوصفية جوهريا عن الصورة التى قدمها
المؤرخ بريسكوس الذى شاهد أتिला سنة ٤٤٨ م عندما ذهب مع وفد من
القسطنطينية الى بلاد ملك الهن • وقدم بريسكوس مفتاحا لقدرة أتिला
على ممارسة تلك القوة الخارقة على شعبه وعلى كثير من الأمم الأخرى أيضا •
وكتب عن كيفية محافظة أتिला على عزلته عن الآخرين فلم يكن يسمح الا
لأفراد أسرته وأكثر المستشارين تقربا اليه بالاقتراب منه وكان يصر على
الالتزام التام بمراعاة مظاهر التشرىفات الملكية • وكانت عاداته فى تناول
الطعام وارتداء الملابس تميزه عن حوله • فعلى الرغم من أن طبقته

الارستقراطية كانت تأكل وتشرب في أوان من الذهب فانه كل يتناول طعامه في طبق من الخشب ، « وكانت ملابسه بسيطة للغاية اذ لم يكن يهتم سوى بنظافتها ، ولم يكن هناك سيف بجواره ولم يكن هناك أزياء كالذى يستعمل في أحدى البرابرة ، ولم يكن لفرسه لجام ، كما كان يفعل السكيثيون الآخرون . وكان مثلهم يتزين بالذهب أو الجواهر أو غير ذلك من الأشياء الثمينة » (٩) .

وكان تصرف أتيليا مخالفا لرؤساء قبائله ابان الاحتفال في أعقاب الوليمة التى شارك فيها بريسكوس وأعضاء الوفد الرومانى أتيليا ورجال البلاد . فعندما ، « دخل أحد المهرجين أدخل السرور على قلب كل فرد بمظهره ، وبملابسه وبصوته والكلمات التى ينطقها باختلاط (لأنه كان يخلط ما بين لغة الهن والقوط واللغة اللاتينية) ولم يستطع أحد أن يمنع انطلاق الضحكات العالية باستثناء أتيليا ، فانه ظل ساكنا ولم تتغير تعبيرات وجهه ، ولم يبدر عنه ما يشير الى احساسه بالسرور لا بالكلام . ولا بالحركة » (١٠) .

ولم يبد أتيليا دليلا مقنعا على دهائه فى أى مكان أكثر مما قدمه فى تعامله مع الشعوب الخاضعة له ، اذ نجح فى أن يكفل لنفسه احترامهم وتعاونهم بمعاملته لقادتهم باحترام وبزيارتهم بنفسه طلبا للمشورة . وكان أردريك Ardario ملك الجيبيد ، والير Walamer أحد ملوك القوط الشرقيين من بين أكثر المستشارين الذين كان يثق بهم . وكان رعاياه من الألمان ملزمين بالمشاركة بالرجال المسلحين فى حالة التهديد بالخطر فحسب . ومع ذلك لم يتمتع الرعايا الآخرون مثل السلاف بنفس قدر الامتيازات ، اذ كان من الممكن معاملتهم باحترام أقل دون خطر . كما كان من واجبهم دفع نسبة من انتاج مزارعهم وماشييتهم وقطعانهم .

وهناك دليل آخر على ذكاء أتيليا ، ما لم يكن قصة مخترعة ، وهى رفضه تغيير عادات شعبه خشية أن يؤدى ذلك الى ذوبان شخصية شعبه فى الشعوب الأكثر عددا من حوله كالجرمان والسلاف . وعلى عكس ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذى نظر نظرة احترام للثقافة الرومانية . فان أتيليا لم يبد سوى احتقاره للحضارة الرومانية . والشئ الذى أعجبه فى الامبراطوريات جنوب الدانوب والراين هو ثراؤها فكان ما طلبه منها هو الذهب .

وفيما يتعلق بالقيم الروحية والفكرية ظل أتيليا على مثال زملائه الهن وكان واضحا أنه لا يبدى رغبة فى أن يتغير .

وفى علاقاته مع الامبراطوريتين الشرقية والغربية استمر أتيليا فى انتهاج سياسة أسلافه ، اذ تعامل مع كل منهما كدولة منفصلة عن الأخرى ،

ونجح في منعهما من التعاون سويا ضده واستطاع بذلك فقط أن يفرض على كل منهما تقديم التنازلات ، والحصول على الذهب منهما . ولكي يحد من حركة الامبراطورية الشرقية فانه ضاعف من طلبه للذهب وطارد أباطرتها بالسفارات المستمرة من أجل الحصول على الذهب . ومنذ سنة ٤٥٩ م دفع الامبراطور الغربي الذهب ليس كاعانة سنوية رسمية وانما على شكل راتب لأتتلا باعتباره قائدا من قواد الجيش وهو منصب شرقي (١١) . ولم يغب ذلك عن بال المعاصرين واعتبر بريسكوس ذلك مجرد ستار لاختفاء دفع الاعانة السنوية . ومع ذلك فانه كان أقوى سلاح فعال استغله أتتلا في تعامله مع الامبراطورية الغربية وهى سياسة آتت أكلها ، اذ كانت الامبراطورية فى حاجة اليه لامدادها بالقوات المساعدة للمحافظة على بقائها .

وكان أيتيوس Aetius القائد الفعلى للجند هو الرجل الذى انتهج سياسة الاعتماد بصفة أساسية على القوات المساعدة من الهن لحماية حدود الامبراطورية الغربية ، ففي سنة ٤٢٥ م استخدم جيشا من الهن للمساعدة فى المحافظة على عرش الامبراطور فالينتينيان الثالث Valentinian III بعد وفاة الامبراطور هونوريوس Honorius . وفى سنة ٤٣٣ م ، استطاع بمساعدة الأصـدقاء الهن اجبار فالينتينيان ووالدته بلاسيديا Placidia الوصية على العرش أن يعترفا به كقائد للجند . ومنذ تلك السنة وحتى وفاته سنة ٤٥٤ م كان ايتيوس الحاكم الحقيقى للامبراطورية الغربية والموجه الأول للسياسة الامبراطورية .

ويعرف ايتيوس بلا مبرر الى أحد ما بأنه « آخر الرومان » ، وهو من مواليد اقليم مؤيزيا السفلى Lower Moesia . وكان والده من أهالى ذلك الاقليم . أما والدته فكانت ايطالية وهى السبب فى وضعه فى قائمة الرومان . ونظرا لأن والده عمل فى روما كقائد فانه بدأ حياته العسكرية فى سن مبكرة وكان من الناحية الواقعية رهينة عند الاريك ثم عند الهن فيما بعد . وابان السنوات التى قضاها مع الهن تعلم لغتهم وأقام صداقة وطيدة مع الملك روجا وقضى ابنه كابيليو Capilio بضع سنين رهينة فى بلاط الهن .

وعالج كل من الكتاب المعاصرين والمؤرخين فيما بعد شخصية ايتيوس برقة . وربما يرجع بعض هذا الحظ السعيد الى واحدة من الوثائق القليلة التى عاصرت تلك الفترة المضطربة ، انها وثيقة الاطراء والمديح التى كتبها ريناتوس بروفوكوروس فريديريدو Renatus Profuturus Frideridus وأشارت تلك القصيدة الى ايتيوس على أنه رجل « خال من الجشع والطمع » ولا يهتم إلا بمصالح الامبراطورية . غير أن الامبراطور فالينتينيان الثالث كان يرتاب فى أمره لذلك أمر باعدامه . ولا ريب أن ايتيوس كان قائدا

قديرا • ففى أوائل عهده تمكن من احباط خطة القوط الغربيين عند محاولتهم الاستيلاء على أرل Arles واحتلال ناريونيس Narionese فى بلاد الغال • وفى سنة ٤٣٦ م حقق أحد القادة التابعين له نصرا مؤزرا على البرجنديين وهو الحادث التاريخى الذى تحدثت عنه ملحمة النبلونجلىد Nibelunglied

وفى سنة ٤٤١ م حدثت المشكلة الأولى الخطيرة لروما مع أثيلا عندما ذبح الهن التجار الرومان الذين ذهبوا الى نهر الدانوب لممارسة أعمالهم التجارية • ومن المحتمل أن الأمر الذى دفع أثيلا لاختيار تلك اللحظة بالذات لانهاء علاقاته الودية مع روما ، كانت أنباء ارسال ثيودوسيوس الثانى امبراطور القسطنطينية ، قوة عسكرية لمساعدة فالينتينيان الثالث ضد الوندال فى جزيرة صقلية والحالة هذه استطاع أتباعه من الهن مهاجمة هؤلاء التجار دون التعرض لخطر الانتقال •

ومن الراجح أن أثيلا كان قد توصل الى قدر من التفاهم مع جزريك ملك الوندال وفقا لما أعلنه أحد الكتاب المعاصرين • على أية حال ، فعندما احتج المبعوثون الرومان على تلك الهجمات لدى أثيلا القى مسئولية ما حدث على كاهل الرومان باعتبار أنهم تراخوا فى دفع الاعانة المالية السنوية واستمروا فى ايواء الهاربين ، ومارسوا عمليات نهب للمقابر الملكية التابعة للهن • على أن الاتهامين الأولين كان لهما طابع التكرار وسواء كانت الاتهامات حقيقية أم غير حقيقية ، فمن المحتمل أنها كانت على وشك الحدوث • أما الاتهام الخاص بالمقابر فقد كان اتهاما جديدا وربما كان صحيحا • وعلى أية حال فإن أسقف مدينة مارجوس Margus الذى اتهمه الهن على وجه التخصيص بنهب مقابرهم الملكية عقد اتفاقا سريا مع الهن الذين وعدوه بعدم التعرض له اذا ما سلمهم مدينة مارجوس • وبالفعل وبدون قتال استلم الهن مدينة مارجوس المهمة فى اقليم مؤيزيا Moesia

هذا فى الوقت الذى هاجمت فيه جماعات أخرى من الهن اقليم تراقيا ، وايليريا ، واستولت على مدن نهر الدانوب ذات القلاع • وتلت ذلك فترة من الهدوء المؤقت سنة ٤٢٢ م ربما نتيجة لهدنة رسمية • بيد أن السنة التالية شهدت عودة الهن مرة ثانية ، فاستولوا على مدينة راتياريا Ratiaria (أركار Arcar) على نهر الدانوب ، وقاموا بتدميرها ، وكذلك سنجدونوم Singidunum (بلجراد Belgrade) ونياسنوس Naissus (نيس Nis) وسارديكا Sardica (صوفيا Sofia) ثم اتجهوا صوب القسطنطينية • واستولوا على فيلبولوس Philippolus وعندما الحقوا بالجيش الامبراطورى الذى كان تحت قيادة أسبار Aspar هزيمة نكراء ، لم يعد أمام القسطنطينية من خيار سوى طلب التفاوض •

وضاعفت المعاهدة الجديدة الاعانة السنوية ثلاث مرات حيث ارتفعت من سبعمائة رطل من الذهب الى ألفين ومائة رطل ، وطالبت من جديد بضرورة عودة الفارين . وزادت الفدية الخاصة بالمساجين الرومان الفارين من ثمانية الى اثني عشر صوليديا Solidi عن الفرد الواحد .

وانهى سلام السنوات الأربع تلك المعاهدة المذلة المشتراة عندما أرسل أتيليا قبائله المعتادة على السلب والنهب عبر نهر الدانوب . وليس من المعروف اذا ما كان هناك ذريعة رسمية للقيام بهذا العمل . ومن المحتمل أن هدفه الحقيقي كان الاستمرار فى استنزاف موارد الامبراطورية ، واضعاف معنوياتها الى حد الوهن الكامل . ونفذ محاربوه غاراتهم المدمرة عبر اقليم البلقان واتجهوا جنوبا حتى وصلوا الى ثرموبيلاي ، Narbonese وفى تقدمهم استولوا على سبعين مدينة وقلعة ودمروها جميعا . وفى سنة ٤٤٨ م طلبت القسطنطينية التى لا حول لها ولا قوة فتح باب المفاوضات . وأصرّت المعاهدة الجديدة على ضرورة دفع ستة آلاف رطل من الذهب لتغطية متأخرات الاعانة ، وفرضت على الرومان ضرورة عودة كل الهاربين من الهن ، وألزمت الامبراطور بألا يجند أحدا من الهن فى المستقبل . وأمر الامبراطور بالجلاء عن شريط من الأراضى طوله مسيرة خمسة أيام فى عمق أراضى الامبراطورية ويمتد على امتداد الضفة اليمنى لنهر الدانوب من مدينة سنجيدونوم الى نوافى Novae وسستوفا Sistova . وما أن تم جلاء القوات الرومانية عن تلك المنطقة ، وصارت مهجورة حتى استطاع الهن شن غاراتهم عبر هذه الأراضى الخالية من الجند حتى وصلوا الى تراقيا وإيليريا ، دون عائق من أى نوع . وفى ظل وجود هذه الأراضى الشاسعة التى كانت محرمة على الرومان ، أصبح من الصعب أيضا على الامبراطورية تجنيد القوات المساعدة من بين الشعوب التى تعيش فى الشمال .

شهدت هذه السنة ٤٤٨ م وصول أتيليا الى قمة قوته واختلف الموقف عن ٤٤٣ م عندما تم التفاوض بشأن المعاهدة الأولى . فعلى الرغم من أن ثيودوسيوس كان قد وافق على زيادة الاعانة السنوية الى ألفين ومائة رطل من الذهب فمن الواضح أنه لم يكن لديه نية حقيقية للدفع وفعلا لم يدفع . وإذا كانت الامبراطورية قد تمكنت من عدم السداد دون خطورة سنة ٤٤٣ م فإن أتيليا بعد سنة ٤٤٨ م لم يكن على استعداد للتغاضى عن الإخلال بشروط المعاهدة .

واستقر الموقف سنوات قلائد ويبدو أن أتيليا قنع بالحصول على الاعانة السنوية الباهظة من الامبراطورية الشرقية ، ورضى بالحصول على « الراتب » الذى كان يحصل عليه من الامبراطورية الرومانية الغربية . باعتباره « سيدا للجند » وكان هناك بعض الاضطرابات سنة ٤٤٩ م .

بسبب المؤامرة التى دبرها كريساقيوس Chrysaphius الوزير صاحب السلطة والنفوذ الأعلى فى عهد ثيودوسيوس الثانى من أجل اغتيال أتيليا وكان كريساقيوس قد اعتقد أنه نجح فى استمالة أدكون Edecon المستشار الرئيسى لأتيليا الى جانبه بعد أن قدم اليه الرشوة . وبالفعل قبل أدكون الرشوة مقابل اغتيال أتيليا . بيد أنه كشف عن تفاصيل المؤامرة عند عودته الى المجر . وفى بداية الأمر طالب أتيليا باعدام كريساقيوس ثم أبدى شيئا من اللين فيما بعد .

شهد صيف ٤٥٠ م حادثا ذا أهمية قصوى هو وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الثانى فى يوليو . وفى السادس والعشرين من أغسطس أى بعد مضى أربعة أسابيع على وفاة ثيودوسيوس الثانى انتخب مجلس الشيوخ مارقيان Marcian الذى كان تربيونا Tribune متقاعد خلفا له . ونظرا لأن انجازات مارقيان الحرية لم تكن شهيرة لذلك لابد من وجود اعتبارات أخرى حملت مجلس الشيوخ على اختياره ومن بين تلك الاعتبارات أنه عمل فى المجلس الحربى كضابط معاون لأسبار ، أقوى القادة العسكريين للجند فى الامبراطورية الشرقية . ولابد أن مارقيان قد أعطى تعهدا على نفسه لمجلس الشيوخ بالعمل على انهاء دفع الاعانات المالية التى يحصل عليها أتيليا ، اذ ان مجلس الشيوخ والطبقة التى يمثلها هما اللذان عانيا بشدة من الاتاة التى كان يحصل عليها أتيليا منذ أن أدت سياسة كريساقيوس الى اجبارهم على دفعها .

واذا كان مارتيان قد وعدد مجلس الشيوخ بالتوقف عن سداد الاعانة السنوية الى أتيليا فانه كان صادقا فى وعده . فبعد أن أصدر أوامره باعدام كريساقيوس أرسل مندوبه أبولونيوس Apollonius لابلاغ أتيليا بعدم دفع أى اعانة له . وعندما علم أتيليا بطبيعة مهمة أبولونيوس رفض مقابلته على الرغم من أنه طلب الهدايا التى اعتادت تلك الوفود على حملها . ولابد أن بعضا من شجاعة مارتيان انتقلت الى أبولونيوس لأنه أعلن أنه طالما أن أتيليا رفض مقابلته فانه من يعطيه الحق فى الحصول على الهدايا . وكان فى استطاعة أتيليا الحصول على الهدايا وقطع رقبة أبولونيوس كذلك ، بيد أنه فكر بطريقة أفضل . فلم يكن أتيليا راغبا فى محاربة القسطنطينية أو أن يفقد احترامه أمام الملوك الجرمان التابعين له ، اذا ما أساء معاملته شخص السفير ، اذ ان ذلك يعنى انتهاك أحد الأسس الدبلوماسية العتيقة .

وفى ربيع سنة ٤٥١ م تحرك أتيليا بجيشه الضخم تجاه نهر الراين فى هجوم استهدف منه سيادته على الامبراطورية الرومانية الغربية . ولابد أن توقف الحصول على الاعانة من القسطنطينية حثه على ذلك ولكنه اختار أن يصدر قراره بالتحرك تجاه الامبراطورية الغربية بدلا من الامبراطورية

الشرقية ، نظرا لقوة تحصين القسطنطينية • واستطاع أتتلا وأتباعه من الهن مهاجمة أقاليم البلقان وقبما شاءوا • بيد أن الاغارات الأولى تركت تلك الأقاليم خاوية على عروشها الى الحد الذى جعل أى غزوات يقوم بها الهن لتلك المنطقة قليلة الجدوى • ومن ناحية أخرى فان احتلال القسطنطينية لم يكن أمرا واردا • اذ ان الاستحكامات التى شيدها الامبراطور أنثيموس سنة ٤٣١ عززت سنة ٤٣٩ م ومرة ثانية سنة ٤٣٧ م • كما أنه فى حالة شن الهن لهجماتهم على تلك التحصينات لم يكن هناك سبيل لمنع الاسطول البيزنطى من امدادها بكل ما تحتاجه من المواد التموينية • وبالإضافة الى ذلك فان فشل محاولات الهن فى الاستيلاء على القسطنطينية كان سيعرض وجود امبراطورية الهن للخطر الشديد ، واذا ما لاحت بادرة ضعف فسيرتد الملوك الجرمان عن ولائهم لسلطة أتتلا وسيضمحل ولاء قادة القبائل الأخرى البعيدة •

وعلى العكس من ذلك فان الامبراطورية الغربية كانت تغلخ من تلك العوائق كما أن بلاد الغال وايطاليا استردت رخاءها منذ الهجات الأولى التى شنها القوط الغربيون والوندال • وبالإضافة الى ذلك فان تلك الأقاليم أغرت بالحصول على غنائم أقيم بكثير عما يمكن الحصول عليه لأى حملة عسكرية فى بلاد البلقان وبالطبع كانت هناك احتمالات تصدى لخطة أتتلا ، على الرغم من نضوب المصدر الذى كان يعتمد عليه هذا القائد الرومانى أيتيوس Aetius وعدم حصولة على قوات مساعدة من الهن الأمر الذى جعل جيشه ضعيفا الى حد كبير • واذا ما استطاع أتتلا منع حصول تعاون بين القوط الغربيين وأيتيوس فانه لن يجد صعوبة فى اجتياح الغرب •

ويبقى السؤال عن السبب الذى جعل أتتلا يختار هذا الوقت بالذات لشن هجمومه على الامبراطورية الرومانية الغربية • ربما الاجابة على ذلك هى رفض الامبراطورية الشرقية دفع الاعانة السنوية للهن • ويقدم المعاصرون تفسيرات جديدة أخرى • بيد أن المؤرخ المدقق ربما يجد تصديقها من الصعوبة بمكان •

وتحكى إحدى القصص أن أحد الرعاة وجد فى باطن الأرض « سيف أريز » (*) المقدس لدى ملوك السكيثيين مما أقنع أتتلا بأنه سيكون سيدا على العالم •

وهناك قصة أخرى تبدو خيالية تتعلق بهونوريا Honoria شقيقة فالنتينيان الثالث وهى امرأة عرفت بقوة الإرادة • وكانت هونوريا

(*) هو الله الحرب عند الاغريق - المترجم •

قد شوهدت فى موقف غرامى مع المسئول عن تدبير شئون قصرها ، ومن ثم أمر شقيقها بإعدامه . ولكى لا يحدث ما شابه ذلك فى المستقبل ، أعلن فالنتينيان الثالث خطبة هونوريا التى حاولت عدم اتمام هذا الزواج فأرسلت سرا الخصى هيكنثوس Hyacinthus الى أتيليا لمناشدته مساعدتها وزودت رسولها بخاتمتها لكى تقنع رئيس الهن بمصادقية التماسها . وفسر أتيليا ارسال الخاتم على أنه عرض للزواج به لذلك طلب يد هونوريا على الفور ، ونصف الامبراطورية كحقتها فى الميراث . ومن المحتمل أن يكون هذا المطلب قد أرسله أتيليا الى ثيودوسيوس الثانى الامبراطور الأكبر فى القسطنطينية الذى رحب بالفكرة . غير أن فالنتينيان فكر بطريقة أخرى اذ أمر بقطع رقبة هيكنثوس وأوشك أن يفعل الشيء نفسه مع هونوريا لولا توسلات بلاسيديا Placidia والدته المسنة . ومع ذلك أجبرها على الزواج فوراً بعضو فى مجلس الشيوخ ثرى حتى يضع نهاية لأى مشاكل تقوم بها أخته من هذا القبيل (١٢) .

وترتبط رواية أخرى بين غزو أتيليا للامبراطورية وجوزريك ملك الوندال الذى كان يخشى القوط الغربيين الذين كانوا يهددون مملكته . وهذه هى الرواية وفقاً ذكره جوردين : « وفى ذلك الحين عندما علم جوزريك ملك الوندال أن أتيليا عقد العزم على تدمير العالم ، حرصه على شن الحرب ضد القوط الغربيين بإرساله الهدايا الكثيرة اليه ، لأن جوزريك كان يخشى أن يقوم ثيودريك ملك القوط الغربيين بالانتقام للأذى الذى لحق بابنته . وكانت ابنة ثيودريك قد تزوجت من هومرك Humeric ابن جوزريك ، وكانت سعيدة فى زواجها فى بداية الأمر غير أنه صار قاسياً معها فيما بعد بل ومع أطفاله . وبسبب مجرد شك فى أنها حاولت دس السم له ، قام بجذع أنفها وصلب أذنيها ثم أعادها الى والدها فى بلاد الغال بعد أن حرمها من جمالها . وهكذا أثارت هذه السيدة التبعة الشفقة بصفة دائمة ، هذا فى الوقت الذى ظلت تطالب والدها بالانتقام . ولذلك بذل أتيليا جهوداً لاشعال نيران الحرب بتحريض جوزريك الذى قدم اليه الأموال . وأرسل أتيليا السفارات الى ايطاليا لمقابلة الامبراطور فالنتينيان بهدف اثارة المنازعات بين القوط والرومان . . . لأنه بالإضافة الى شراسة أتيليا الشديدة كان رجلا خارق الذكاء وكان يحارب مستخدماً سلاح المكر والخداع قبل أن يخوض المعركة » (١٣) .

ويرفض المؤرخون رواية جوردين بصفة عامة باعتبارها من صنع الخيال باستثناء الجملة التى تتحدث عن دهاء أتيليا . ففىما يتعلق بالدهاء فهناك دليل على أن أتيليا حاول منع القوط الغربيين والرومان من حشد قواتهما ضده بمحاولة اقناع كل طرف أنه ينوى محاربة الطرف الآخر . وعلى أية حال فان أملة فى أن يبعد هذين العدوين اللذين لهما ثقلهما القوى

كان تصرفا حكيما . كما كان القوط والرومان أعداء منذ الحرب التي استمرت من سنة ٤٣٦ م الى ٤٣٩ م عند نابونيز Narbonese في بلاد الغال وآرل Arles حيث ادعى القوط الغربيون أنها تتبعهم وفي سنة ٤٤٦ م منح ثيودريك حق الحماية الى سباستيان Sebastian بعد أن لجأ اليه حين فشلت محاولته لاجباط خطة أيتيوس لتولي منصب قيادة الجند . وبعد قليل وفي السنة نفسها حصل ثيودريك على موافقة أتيل ، بالإضافة الى امداده بقوات من الهن ابان محاولاته لفتح اسبانيا .

على أن فشل أتيل في احداث تباعد بين روما والقوط الغربيين أنقذ الامبراطورية في الغرب . ولفترة من الوقت بدأ يتردد ويتساءل عما اذا كان من غير مصلحته أن يرى الرومان والهن يقتتلان حتى يفنى كل منهما الآخر ، كما أن هذه الفرصة السعيدة بالنسبة له سوف تمكنه من احتلال نابونيز في بلاد الغال دون معارضة . وكما حدث فان خطر أتيل كان شاملا . وعرض ثيودريك أن يشارك أيتيوس . ومن المثير للانتباه أنه لم يطلب التنازل له عن اقليم آرل ثمنا لتعاونه . وكان قرار ثيودريك مدهشا بكل ما في الكلمة من معنى لأن الجيش الذي أعده أيتيوس للتصدي لأتيل ربما كان من أضعف الجيوش التي تولى قيادتها . وزاد الأمر خطورة عدم وجود قوات مساعدة من الهن الذين اعتاد أيتيوس الاعتماد عليهم بصفة دائمة ، وتكون الجيش الذي عبر به جبال الالب من القوات الرومانية بالإضافة الى الجماعات الجرمانية التي كانت قد استقرت داخل حدود الامبراطورية مقابل أداء خدمات عسكرية Laeti ، وكذلك قوات المحالفين الذين عاشوا على امتداد حدود الامبراطورية ، وتعهدوا بالدفاع عن الحدود foederati ، وهم الذين توقع حضورهم لمساعدته عندما وصل الى بلاد الغال (١٤) .

واستطاع أيتيوس الحصول على بعض المساعدة أيضا من الفرنجة الريبوريان Ripurian Franks الذين اعترفوا بخلافة الابن الأصغر للملك المتوفى . وقد لجأ الابن الأكبر الى أتيل للاعتراف به ، ركان دافع أتيل على التحرك هو امكانية ضمان التحالف مع الفرنجة لصالحه . ومهما كان الحال فان أيتيوس كان قد تبنى الابن الأصغر من قبل ووعد بمساعدة روما .

أما سانجبون Sangibon ملك الآن فكان يحكم دولة صغيرة تشمل مدينة أورلين Orleans التي اتخذها عاصمة له . وفي وقت سابق لهذا عندما صار من الواضح بالنسبة لأيتيوس أنه لن يستطع الحصول على جنود مرتزقة من الهن ، فانه أعطى تلك الأراضي الى الآن مقابل تعهدهم بالمحافظة على سلطة الامبراطورية في تلك المنطقة . بيد أن جوردين مصدرنا الرئيسي عن الخلفية التاريخية لمعركة شالون Chalons

قرر أن سانجبون ليس سوى حليف خائن في أحسن الأحوال ، وأن أيتيوس خشي أن تكون هناك علاقات بينه وبين أتيليا . بيد أن بعض المؤرخين حملوا على جوردين ، إذ حاول أن ينسب لبنى جلدته من القوط الغربيين النصر المرتقب على أتيليا في موقعة شالون ، وربما تعد تشويه تاريخ سانجبون والألن . وأيا كان الحال ، فإن أيتيوس كان يأمل في تلقي مساعدة الحلفاء الآخرين : الفرنجة الصاليان *Saliam Franks* والبورجنديين من سافوى *Burgundian from Savoy* والكلت من أرموريكا *Celts from Armorica* وبعض السكسون *Saxons* الذين عاشوا شمال اللوار . على أن الجيش القوطي كان أكثر من كل أصدقاء أيتيوس أهمية بمراحل وهو الجيش الذي أحضره معه ثيودريك الملك المسن .

على أن الجيش الذي صاحب أتيليا إلى نهر الراين كان متفوقا في العدد تفوقا ساحقا بالنسبة إلى ما استطاع كل من أيتيوس وثيودريك جمعه لمجابهته وكان أمرا بدهيا أن ذكر المعاصرون أن جيش أتيليا اقترب من نصف مليون فرد ، إذ كان هذا الجيش بالنسبة لهؤلاء الكتاب مثيرا للفرع بالنسبة لتعدادده وشراسته . وأما افتراضهم أنه حوالى نصف مليون فأنما هو تعبيرهم عن هذا الذعر ، وعلى شاكلة جيش أيتيوس تكون جيش أتيليا أيضا من مجموعة مختلفة من الشعوب ، فبالإضافة إلى أتباعه الهن كان هناك عدد من الشعوب الجرمانية : الهروليون *Heruli* من البحر الأسود والسكريون *Scirians* من جلاشيا *Galicia* والروجيون *Rugians* من إقليم ثيس *Théiss* الأعلى الثورنجيون *Thuringians* ومن القوط الشرقيين تحت ملوكهم العديدين ، والجبيد *Gepids* من جبال داكيا *Dacia* تحت قيادة ملكهم أردريك *Ardaric* بالإضافة إلى البورجنديين *Burgundians* من شرق نهر الراين ، وهؤلاء الفرنجة الروجيان هم الذين دانوا بالولاء للأخ الأكبر في نزاعه على العرش . وبالرغم من أن الجرمان قاتلوا تحت قيادة قادتهم فان أتيليا تولى منصب القائد العام وحدد استراتيجيته الأخيرة .

على أن تفاخر أتيليا بتفوقه العددي على العدو الروماني لم يكن يساوي شيئا إذ أن التفاوت العددي ربما لم يكن العامل الذي يحسم المعركة .

ففي الواقع ربما كان هذا العدد عاملا معوقا . وفي غالب الأحوال أحرزت الجيوش الأصغر عددا والافضل تنظيما النصر في العصور القديمة . وأعني بذلك الاغريق في موقعة الماراثون والاسكندر الأكبر ضد الفرس ، وهانيبال ضد الرومان ، ويوليوس قيصر ضد أعدائه . وشهد القرن السادس الميلادي بليزار يوس أقدر رجال جوستينيان الذي حقق انتصارات رائعة على جيوش تفوقه عددا . ونظرا لأن الجيوش كانت تعيش على ما تنتجه الأراضي التي توجد بها في ذلك الزمان ، فإنه كلما كبر حجم

الجيش قصرت الفترة التى يمكن لهذه الأرض أن تزوده بالطعام والعلف للخيول .

ومن المحتمل أن التفوق العددي المشكوك فيه عند أتيلّا تعادل مع تفوق أعدائه فى الأسلحة والملابس الواقية الى الحد الذى جعل بعضهم يفاخر بذلك . وكان بكلا الجيشين فرق من المشاة ووحدات من الفرسان . ولكن عند مقارنة الفارس الثقيل العدة بزميله خفيف العدة نجد أن الرومان أحرزوا تفوقا بينا . وابن عصر الجمهورية اعتمدت روما كلية على المشاة . ولم تبدأ روما تجنيد الفرسان الا فى القرن الثالث الميلادى ، ولم تفعل ذلك الا وهى مكرهة للتصدي لرماة السهام من البارثيين والساسانيين . وشهد القرنان الرابع والخامس الميلاديان اعتمادا أكثر على الفرسان . بالرغم من أن روما وجدت بصفة عامة أن الأوفر لها الاعتماد على القوات المساعدة من البرابرة لمدادها بالفرسان . وحارب هؤلاء الفرسان تحت قيادة رؤساء قبائلهم على الرغم من أنهم قبلوا أوامر أيتيوس عندما كان فى موقع القيادة .

ومن المحتمل أن الفرسان ثقيلى العدة Cataphracts كانوا أفضل فرسان ذلك العصر . وهم الذين استخدمهم أباطرة القسطنطينية على نطاق واسع . وكان الفارس الثقيل العدة يضع على رأسه خوذة من الصلب ، ويرتدى قميصا مدرعا ، ويحمل خنجرا ، وفأس حرب ، ورمحا ، وقوسا ، وترسا مستطيلا . وبعد موقعة شالون بحوالى خمس وسبعين سنة كتب بروكوبيوس Procopius عن هؤلاء الفرسان واعتبرهم أفضل فرسان العالم . ومن المشكوك فيه أن أيتيوس كان عنده فرسان ثقيلو العدة على النمط البيزنطى ، بيد أنه فاخر بما عنده من بعض الفرسان المسلحين تسليحا مكثفا . وكانت أسلحة الغالبية العظمى من فرسانه خفيفة . ولم تزد عن القوس والرمح الا قليلا . وحاربوا وهم فى حماية الفرسان الأكثر عدة ، كما عملوا فى الدفاع عن القلاع .

أما ارتباط الهن بخيولهم منذ صباهم وكذلك تقاليدهم القديمة فجعلنا منهم فرسانا لا نظير لهم . فكانوا على قدر كبير من المهارة وسرعة الحركة وكان فى استطاعتهم ركوب خيولهم لفترات طويلة . وعلى مثال الفارس ثقيل العدة كانوا يحملون الأقواس والسهام ومن المحتمل أنهم استعملوها ببراعة . وحملوا أيضا رمحا طويلة وسيفوا وخناجر على شاكلة الفرسان ثقيلى العدة . وكانوا يفتقرون الى البدلة الحربية الواقية المدرعة تدريعا ثقيلا . ولم يرتد الملابس الواقية سوى أكثرهم ثراء . ولكن انفرسان الهن اعتادوا وضع خوذة معدنية على رؤوسهم كانت تمتد الى أنوفهم . وخشية أن يعوق وجود ترس كبير قدرتهم على الحركة ، فانهم حملوا تروسا صغيرة مصنوعة من أغصان صغيرة لدنة ومجدولة ومغطاة بالجلد .

وكان من عادة الفارس استخدام قوسه فى قذف عدوه بإبل من السهام ثم الاقتراب من العدو للدخول معه فى معركة وجها لوجه مستخدما الرمح والسيف . وظهرت الأنشطة فى مجموعة الأسلحة التى استخدمها الهن على الرغم من عدم ذكر استخدام الهن لهذا السلاح فى معركة شالون .

وباستثناء القوط تأخر الجرمان فى استخدام الخيل للأغراض الحربية . وتعلم القوط أهمية الفرسان من جيوش الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن الفرس قبل أن يبدأ الفرسان الهن عبور الأراضى شمال البحر الأسود . وكان الفرسان من القوط الغربيين ، بالإضافة الى بعض القوط الشرقيين ، والألن هم الذين أهلكوا القسم الأعظم من مشاة الرومان فى موقعة أدريانيل سنة ٣٧٨ م . وفى شالون ، كما سنرى ، تمكن الفرسان القوط ثقيلو العدة من تحويل مصير المعركة ضد أتيليا والهن . وربما أسهم الفرسان الألن فى هزيمة أتيليا ، اذ انهم كانوا على قدم المساواة فى المهارة مع الهن .

ومن ناحية أخرى فان الفرنجة والغالبية العظمى من القبائل الجرمانية طلبوا محتفظين بجنود المشاة فى الدرجة الأولى (١٥) .

وبعد ذلك اختار شارل المطرقة (*) Charles Martel الذهاب الى معركة تور Tours الشهيرة سنة ٧٣٢ م ، ومعهم رجاله من الفرنجة ، وهم على صهوة خيولهم ، ثم ترجلوا وخاضوا المعركة كمشاة ، وحققوا النصر على المسلمين المغاربة بفضل سيوفهم الكبيرة غير أن أتيليا والهن كانوا ينظرون الى المشاة بازدراء . ويحكى جوردين كيف أن أتيليا حاول رفع معنويات أتباعه الى أقصى درجة ممكنة ، بسخريته من جنود المشاة الذين جمعوهم ضده . وربما كان من بين حلفائه الجرمان من كان من المشاة لأن جوردين وصف الليلة التى سبقت معركة شالون قائلا ان الجيبىدين Gepids خاضوا معركة مريرة ضد الفرنجة وتركزت جثث خمسة عشر ألف مقاتل فى أرض المعركة .

وفى أوائل ربيع سنة ٤٥١ م حرك أتيليا جيشه من بانونيا Panonia الى لورين Lorraine ، وفى السادس من أبريل قبل عيد الفصح بيوم واحد استولى على مدينة متر Metz ودمرها . وتعرضت مدينة ريمز Rheims للمصير نفسه . بيد أن باريس نجحت بفضل القديسة جينييف St. Genevieve ، وربما كانت مدينة أورليان جينييف Orlean هدف أتيليا العاجل ، مقر ستجبان Sangiban ملك الألن ، وإذا ما قبل المرء رأى جوردين المتميز للقوط ، فربما كان هذا الملك قد وعد أتيليا

(*) يكتب اسمه أحيانا شارل المطرقة ، ولكن مارتن « المطرقة » نعت له ، ولذا فضلنا ترجمتها الى العربية = المترجم .

بالتعاون معه . ومع ذلك ، فهناك من الشواهد ما يدحض اتهام جوردين . ويبدو أن أورلين قد عانت من حصار دموى وأوشكت على السقوط فى أيدي أتيل لولا وصول قوات أيتيوس والقوط الغربيين ، مما أجبر رئيس الهن على التراجع ، وانسحب الى الشمال الغربى تجاه اقليم بلجيكا Belgica . وربما كان ذلك نتيجة لمطاردة القوط الغربيين وأيتيوس له . وعلى بعد حوالى خمسة أميال من مدينة تروى Troyes وفى مكان يعرف باسم لوكوس مورياكوس Locus Mauriacus ويشار اليه باسم حقول قطالونية Catalounian Fields نصب خيام معسكره . واستعد لاقامة موقع له وإن كان الموقع الدقيق الذى دارت فيه رحى المعركة مازال موضوعا للخلاف الى حد ما . إذ ان المصادر المكتوبة ليست واضحة ، كما أن الدراسات الأثرية لم تقدم ما يساعد العلماء على تحديد المكان الصحيح . ونظرا للاعتقاد بأن مكان المعركة كان فى شالون ، واستمر هذا الاعتقاد لعدة قرون ، فقد ظل محتفظا بهذه التسمية على الرغم من أن المعركة دارت فى مكان أقرب الى تروى Troyse . ولا شك أن أتيل اختار موضعا مفتوحا لفرسانه أكبر حيز من المكان لحركة .

وبدأت المعركة فى وقت متأخر بعد الظهر ، ولم يكن قد بقى على غروب الشمس سوى ثلاث ساعات . وهناك قصة تفسر اختيار هذا الوقت المتأخر إذ يقال أن العرافين الذى استشارهم أتيل قبل المعركة حذروه من أنه سيتعرض للهزيمة حتى لو نجح فى قتل قائد أعدائه . وتمضى القصة فتقول ان أتيل فى ذلك الحين ، كان يحمل فى قلبه كراهية شديدة تجاه أيتيوس ، وكان على استعداد أن يتلقى الهزيمة ، اذا كانت تحقق له مقتل عدوه . لذلك فانه أصر بدء المعركة الى ما بعد الظهر ليمنع العدو من الحصول على الوقت الذى يحقق له احراز معركة فاصلة . ان القارئ الذى يعتقد فى أقوال المتنبيين سيشعر بالارتياح اذا علم أن قائد القوات المعادية لقي حتفه فى معركة شالون . وبرغم ذلك لم يكن أيتيوس وانما ثيودريك ملك القوط الغربيين .

ان الغموض الذى اكتنف معركة شالون لم يمتد ليشمل التنظيم الفعلى للمتحاربين فى الجيوش المتقاتلة ، اذا اعتبرنا رواية جوردين صحيحة (١٦) . وبناء على ما ذكره جوردين خصص أيتيوس مكان الشريف ، وهو الجناح الايمن ، لثيودريك ملك القوط الغربيين . وهذه الإشارة التى تعبر عن المشاعر الودية ، لابد أنها أدخلت السرور على قلب ثيودريك الذى ظل راغبا فى المحافظة على اخلاصه لأيتيوس مهما كلف من أمر . وكخطوة وقائية أشرك أيتيوس معه فى الجناح الايسر ثورسموند Thorismunh الأبن الأكبر لثيودريك وكذلك الجنود الرومان .

وكان وجود ثورسموند فى صحبة أيتيوس ضمانة يمنع انحياز ثيودريك الى الجانب الآخر أو الانسحاب . وكأجراء أمنى قام أيتيوس بوضع سنجبان والألن أتباعه فى قلب الجيش اذ كانت درجة الاعتماد عليهم موضع شك . غير أن ادعاءات جوردين بخصوص سنجبان كانت لا أساس لها من الصحة ، وهى التى رفضها عالم حديث ، اذ ثبت أن الألن جعلوا من أنفسهم درعا واقيا ضد أشرس هجمات أتिला (١٧) .

ونظرا لأن أضعف أقسام . جيش أيتيوس كان القلب ، وفقا لرواية جوردين ، فربما كان القائد الرومانى قد قرأ ما كتبه بوليبيوس Polybius عن النصر المبين الذى أحرزه هانيبال على الجيش الرومانى فى موقعة كاناي سنة ٢١١ ق.م ، حيث قام القائد القرطاجى بأضعاف قلب جيشه عن عمد على أمل أن يندفع الرومان بأقصى سرعة وهم على غير علم بالجناحين القويين للجيش القرطاجى اللذين حاصروا الجيش الرومانى من جميع الجهات وإذا كانت هذه هى أيضا الخطة والفكرة التى نفذها أيتيوس فى معركة شالون فمعنى ذلك أن أتिला وقع فى الفخ نفسه كما حدث للرومان فى موقعه كاناي ، اذ وضع أتिला أقوى قواته فى قلب الجيش ليواجهوا سنجبان «الحائن» والألن وأتباعه . وفى الجناح الأيسر فى جيش أتिला وفى مواجهة جيش القوط الغربيين حشد أتिला قوات من القوط الشرقيين والجبيد ، الذين كانوا أفضل حلفائه من الجرمان . وترك قوات مشتركة فى مواجهة أيتيوس .

وقبل أن تبدأ المعركة الكبرى بوقت قليل أحرز أيتيوس ميزة تكتيكية لها بعض الأهمية . اذ احتل قمة أحد التلال الذى كان يقسم الاستواء العام للمنطقة الى قسمين (١٨) . وبعد بعض المناوشات استعد أيتيوس لخوض المعركة . غير أن هذا النصر ليس « سوى مناوشة قبل بدء المعركة الكبرى » . وربما أتاحت الأرض الأعلى الفرصة لأيتيوس لرصد تحركات العدو بطريقة أفضل ، وبالإضافة الى ذلك فإنها مدت جيشه بدفعه سيكولوجية أدت الى رفع روحهم المعنوية . على أية حال ، اعتبر جوردين نجاح أيتيوس مهما للحد الذى دفع أتिला الى القاء خطاب طويل على رجاله بعد هذه النكسة فى محاولة لاستجماع قواهم وروحهم المعنوية المنهارة .

وفىما يتعلق بتفاصيل المعركة ذاتها فمابقى منها ليس سوى شذرات مقتضية وليست واضحة . ويبدو أن أيتيوس وثورسموند اندفعا الى الأمام فى مواجهة الجناح الأيمن الضعيف فى جيش الهن ، فى حين أن أتिला اندفع بأقصى قوته تجاه قلب الجيش الرومانى حيث يتمركز الألن . وبذلك عرض أتिला الجناح الأيسر لجيشه لهجوم مرعب قام به ثيودريك والفرسان ثقلو العدة للجيش القوطى (١٩) . وقبل أن يسبق

السيف العذل أدرك أثيلا خطورة أن يجد نفسه محاصرا بين جناحي الجيش الروماني . لذلك فما أن أوشكت الشمس على المغيب حتى تقهقر أثيلا الى معسكره . وفي اليوم نفسه ، أو في الصباح التالي على أفضل الاحتمالات ضرب أيتيوس والقوط الغربيون حصارا حول معسكر أثيلا ، اذ انهم لم يرغبوا في الدخول في هجوم مباشر . وابان هذا الحصار تم التعرف على جثة ثيودريك .

ويتفق الكتاب المعاصرون على نقطتين بخصوص المعركة : الأولى أن الخسائر البشرية عند الطرفين كانت فادحة ، والثانية أن المعركة انتهت دون احراز نصر واضح سواء لصالح أثيلا أو أيتيوس . وذكر المؤرخ اداتيوس Idatius أن عدد القتلى بلغ ثلاثمائة ألف محارب ، وهو رقم مبالغ فيه اذا ما قورن بما قدره جوردين بمائة ألف وخمسة وستين ألفا . ويميل المؤرخون المحدثون الى الاتفاق على ثلاث نقاط : ان الفريقين كانت خسائرها فادحة ، وأنه في الوقت الذي لم يحقق أيتيوس نصرا حاسما ، فان أثيلا كان في موقف دفاعي بشكل واضح في المعركة التالية ، وأن مقتل ثيودريك ملك القوط الغربيين ، ثبت أنه كان تطورا حاسما .

ان تحليل النتائج المترتبة على المعركة جاء وفقا لرواية جوردين بصفة أساسية على النحو التالي : لو قدر لثيودريك البقاء على قيد الحياة ، لظل متعاوناً مع أيتيوس في مهاجمة أثيلا ، الى أن يتحقق النصر النهائي . كذلك فان ثورسموند الذي نادى به جيش القوط الغربيين ملكا على الفور بمجرد التعرف على جثة والده ، كانت لديه الرغبة في مواصلة تحقيق المكاسب التي أحرزها ، بيد أن أيتيوس اعترض على ذلك . اذ خشى أيتيوس من أن تحقيق نصر حاسم على أثيلا سوف يؤدي الى تعرض الامبراطورية لخطر القوط الغربيين بعد القضاء على تهديد الهن الخطير ، حيث لم يكن في استطاعة الرومان الصمود أمام الجيش القوطي المنتصر لذلك حذر أيتيوس ثورسموند من أنه ليس في استطاعته التأكد من تأييد كل رجال البلاد الملكي في تولوز Tolosa (Toulouse) على الرغم من مناداة الجيش به ملكا ، وعلى ذلك أشار عليه أيتيوس بالاسراع في العودة الى عاصمته قبل وصول نبأ وفاة والده الى هناك خشية أن يغتصب أحد اخوته العرش . واعتبر ثورسموند تلك النصيحة وجيهة ، وقاد جيشه تجاه الجنوب ، وبالفعل ثبت فيما بعد أن نصيحة أيتيوس لم تكن جوفاء ، اذ استولى ثيودريك الثاني على العرش بعد أن قتل أخاه ثورسموند بعد عامين اثنين فقط .

وهناك تفسير مخالف لانسحاب ثورسموند من شالون يرى أن ثيودوريك والد ثورسموند كان راغبا في التعاون مع أيتيوس ، وعلى

استعداد لقبول قيادته في الصراع المرير ضد أتيل الذي ربما اعتبره عدوا للقوط الغربيين بمثل درجة عداوته للرومان . بيد أن الموقف بالنسبة الى ثورسموند كان مختلفا ، اذ نظر ثورسموند الى قوة أيتيوس والرومان على أنها تشكل تهديدا لدولة القوط الغربيين ، كما تشكل تهديدا لأتيل والهين بعد النجاح الذي تم احرازه في شالون منذ اليوم الأول . ولا بد أن ثورسموند وجد أنه من الأفضل لمستقبل القوط الغربيين أن يسمح للقبائل الجرمانية على امتداد نهر الراين وكذلك لقبائل الهن أن يستمروا جميعا في منازعة السلطة الرومانية في بلاد الغال .

فلما رغب أيتيوس عن استمرار الحرب ضد أتيل الى أن يحرز نصرا نهائيا بعد كل الجهود المضنية التي بذلها لاقامة تحالف وطيد بين الشعوب المختلفة والمتعددة ضد رجل كان يهدد وجود الامبراطورية ذاتها ؟ ان الاجابة على هذا السؤال ليست عسيرة ، اذ كان أيتيوس يبغى تجنيد الفرسان الهن لصالح روما ، حيث وجد أن هؤلاء الهن لا يمكن الاستغناء عنهم ، وأنهم يشكلون قوات مساعدة على جانب كبير من الأهمية ، في جهوده للدفاع عن الامبراطورية . وأنه بدون مساعدتهم المستمرة ، وفقا لرؤيته ، لن يقدر للامبراطورية البقاء طويلا .

وظل أتيل لمدة يومين أو ثلاثة يفكر تفكيرا عميقا لمعرفة أسباب فشل العدو في استغلال النصر الذي أحرزه ، ثم قاد رجاله وحلفاءه للعودة عبر نهر الراين . وفي المجر ظل يلحق جراحه حتى الصيف التالي ، عندما قاد جيشا آخر عبر بانونيا Pannonia وعبر جبال الألب الى عمق إيطاليا . وربما كان الدافع المحرك لهذه الحملة العسكرية هو الشعور بالكراهية تجاه أيتيوس ، وكذلك الرغبة في الانتقال ، أو ربما كانت بناء على رغبة أتيل في الحصول على الغنائم ، اذ من المحتمل أنهم حصلوا على القليل من الغنائم من الحملة التي قاموا بها في العام السابق ، والتي انتهت بهزيمتهم في موقعة شالون .

وكان احتلال مدينة أكويليا Aquileia في أواخر صيف ٤٥٢ م الانجاز الرئيسي الذي حققته هذه الحملة الإيطالية . ولقد دمرت قوات أتيل تلك المدينة تدميرا كاملا لدرجة أنه بعد قرن من الزمان لم يستطع جوردين أن يتعرف الا على القليل من الآثار . وكانت مدينة باتافيوم (Padua) Patavium قد تعرضت للتدمير تدميرا كاملا ، بيد أنه قدر لها أن تشهد مستقبلا مشرقا ، على حين أن المدن التي فتحت أبوابها تعرضت لخسائر أقل وطأة . وشملت تلك المدن فيرونا Verona وبرسكيا Brescia ، وبرجامو Bergamo ، وميلان Milan ، وبافيا Pavia . والى الجنوب من ميلان وعلى مقربة من مينكيو Mincio

لم يقابل أتيلا أيتيوس الذي قام بتسريح جيشه ، وإنما قابل وفدا برياسة البابا ليو الأول (الكبير) . وتضافرت توسلات هذا الوفد مع مجموعة متنوعة من العوامل الأخرى مع حالة الملل التي سادت بين الحلفاء الجرمان في جيش أتيلا ، ونقص الطعام والأعلاف وتفشى مرض الدوسنتاريا ، وحضور مارتيان الامبراطور الروماني الشرقي ومعه جيشه على اجبار أتيلا على الانسحاب من إيطاليا والعودة الى المجر .

ولم يبق أتيلا على قيد الحياة سوى أشهر قلائل . وبعد وفاته بوقت قصير انتهت امبراطوريته . ففي ربيع سنة ٤٥٣ م أضاف الى زوجاته العديداً زوجة « جميلة جدا » تدعى الديكو Ildico ، بيد أنه مات ليلة زفافه نتيجة لاضابته بنزيف بالأنف . وكتب جوردن أنه لو لم يكن أتيلا شخصاً محباً للنوم ومدمناً للشراب ، لما خنقه الدم الذي نزف من أنفه . وفي العام التالي ثارت الشعوب الجرمانية التابعة لأتيلا وأبادت جيشاً من الهن في نيدو في بانونيا وقتلت الأك Ellac الابن الأكبر لأتيلا . وكان مقتل دينزيك Dinzie ، وهو أحد أبناء أتيلا في موقعة تعاون فيها الرومان والقوط الشرقيون سنة ٤٦٩ م ، اعلاناً رسمياً بانتهاء الامبراطورية التي أقامها أتيلا .

كان ظهور الهن في أوروبا حوالى سنة ٣٧٥ م ، وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان طويت صفحاتهم من التاريخ . وحيث ان امبراطوريتهم قدر لها البقاء لفترة قصيرة قصيرة نسبياً (وربما أنهم لم يتمكنوا اطلاقاً من الاستيلاء على جزء كبير من الامبراطورية الرومانية لانفسهم) لذلك يتساءل المرء عن سبب الأهمية المتعلقة بمعركة شالون التي حددت لهم بداية النهاية . ولماذا اعتبرت المعركة التي دارت رحاها في ربيع ٤٥١ م معركة فاصلة ؟

لقد أثبتت معركة شالون للامبراطورية الرومانية الغربية ، وللقبائل الجرمانية أن الهن يمكن هزيمتهم اذ لو قدر لأتيلا أن يعيش ربع قرن آخر ولولا أن الهزيمة التي منى بها في شالون حطمت أسطورة أنه لا يغلب لكان في امكانه أن يفتح كل الامبراطورية الرومانية الغربية . وقد يخطئ التاريخ والتراث ، كما في حالة الوندال الذين لا يستحقون الشهرة التي التصقت بهم كمخربين متوحشين . غير أن التاريخ والتراث لم يكونا مخطئين فيما يتعلق بالهن . ان موقعة شالون قد عجلت بنهاية وجود أعنى الغزاة « البرابرة » الذين تعرضت لهم أوروبا . كما أن كلمتي الهن وأتيلا تستحضران في الذهن صورة رهيبة للمدن التي دمرت تدميراً كاملاً ، والمجتمعات التي ذبح أفرادها والشعوب التي تحولت الى عبيد .

لقد أبدى الهن عدم مبالاة بالثقافات الراقية ولو قدر لأتيلان النصر
فى شالون لعانى المستوى الثقافى لغرب أوروبا من التدهور الشديـ
والسريع • ولا يشك أحد فى مدى الخوف الذى كان من الممكن أن تثيره
صورة أتيلان فى فكر المعاصرين • اذ بعد مرور حوالى خمسة عشر عاما على
موت أتيلان خرجت كل القسطنطينية عن بكرة أبيها لتحمل رأس ابنه المذبوح
دينزيك Dinziك فى موكب انتصار • « ان الأهمية الحقيقية لأتيلان
(ولشالون) تكمن فى حقيقة أن هجوم أتباعه من الهن أجبر الرومان
والشعوب التيتونية على الاعتراف بأن المصالح المشتركة ، أو ان شئت
الحضارة ، كانت فى خطر ، ومن ثم دفعهم ذلك الى التحالف القوى الذى
اعتمد عليه التقدم العالمى فى المستقبل » (٢٠) •

٣ - معركة اليرموك

أطلق العرب اسم عام الفيل على سنة ٥٧٠ م لأن أبرهة أحضر فيلًا (*) في جيشه ليرهب بضخامته عرب البادية ويدفعهم إلى الاستسلام . وإذا كانت حملة أبرهة قد انتهت بالفشل إلا أنها ظلت حادثة لها ذكراها في العالم الإسلامي (١) .

ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) عام الفيل . وعند وفاته سنة ٦٣٢ م كان قد ترك دولة قائمة على المبادئ الدينية راسخة الأركان ، فخلال قرن من الزمان استطاع المسلمون التوغل في أراضي بلاد الهند في الوقت الذي كان فيه آخرون يحاربون الفرنجة في بلاد الغال التي تبعد حوالي ثلاثة آلاف ميل إلى الغرب . على أن الحادثة التي فتحت الطريق لإقامة هذه الامبراطورية الضخمة التي امتدت حدودها إلى جبال البرانس كانت النصر المبين الذي أحرزه المسلمون على الجيش البيزنطي في موقعه اليرموك في صيف سنة ٦٣٦ م ، الذي تقوضت على أثره امبراطوريات الدنيا .

ومن بين الظروف التي يمكن إرجاعها لهزيمة الامبراطورية البيزنطية الضخمة على هذا النحو المثير للدهشة بشكل خاص كان عدم معرفة عالم البحر المتوسط لشبه الجزيرة العربية وشعبها ، وازدراءه له من ناحية القلة العددية . فمنذ عصور ما قبل التاريخ لم تلعب الجزيرة العربية دورا هاما في المنطقة . حيث ظهرت امبراطوريات الشرق الأدنى واندثرت - بابل ومصر وآشور والكلدانيون والفرس والاسكندر الأكبر - كما لم يبد غرب أوروبا سوى قليل من الاهتمام بالشعب الذي يعيش في شبه الجزيرة العربية .

(*) الواقع أن أنواعا من الفيلة الضخمة التي انقرضت ولم تعد موجودة حاليا كانت تستخدم في العصور الوسطى واستخدمها الفرس ضد الروم في معاركهم وكانت الغيول تفرع لمجرد رؤيتها أو شم رائحتها ، كما استخدمها ملوك الحبشة في حربهم واحتلالهم للترجم .

(**) ما بين قوسين من عند المترجم .

الشديدة الحرارة والجفاف • ولو كانت شبه الجزيرة العربية تمتلك مخزوناً من السلع الغذائية لقامت تجارة مزدهرة ولتحققت علاقات وثيقة مع الشعوب التي تعيش هناك • على أن شبه الجزيرة استطاعت أن تمارس التجارة على نطاق ضيق في التوابل والبخور • وبالرغم من أن هاتين السلعتين كانت لهما قيمتهما ، فإنه لم تكن هناك حاجة ماسة إليهما من الناحية العملية ولولا طريق القوافل التجارية القادمة من بلاد بونت (*) المحملة بالمنتجات الاستوائية من أفريقيا إلى مصر وسوريا لكان من الممكن ألا يسلك أحد شبه الجزيرة العربية على الإطلاق •

وليس معنى ذلك أن شبه الجزيرة العربية كان في عزلة تامة عن باقي الشرق الأدنى القديم - فالكثير من الشعوب التاريخية ترجع أصولها إلى تلك البلاد الصحراوية • ومنها الأكاديون الذين أبلغنا عنهم العلماء الذين انتقلوا إلى بابل حوالي ٢٣٠٠ ق م • وبعدهم جاء الآشوريون ، والكلدانيون ، والأموريون ، والآراميون والفينيقيون ، والعبريون ، وكل الشعوب السامية ، كلهم جميعاً تركوا شبه الجزيرة العربية عندما ازدادت أعدادهم عن قدرة هذه الأرض على تحملهم ، وشقوا طريقهم تجاه الوديان الخصبة لنهر دجلة والفرات • وبمرور الوقت كونت تلك الشعوب تاريخها ونسيت باقي العالم أصولهم في شبه الجزيرة العربية القاحلة • وليست هذه حالة العرب الذين آمنوا برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) اذ بعد وفاته حمل أتباعه رسالته إلى كل أنحاء عالم البحر المتوسط وأقنعوا العديد من الشعوب على الإيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وجعلوا مدينة مكة التي كانت مغمورة وغير معروفة قبلة لهم •

وكان من الممكن أن يكون كبر مساحة شبه الجزيرة العربية لولا افتقارها إلى الأمطار ومساحتها تعادل ثلث مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وهي شبه جزيرة كبيرة تحيطها تقريباً المياه ، بيد أن معظمها صحراء • أن موقعها المتناخم لمصر ، وسوريا ، وبابل كان من الممكن أن يكون مثالياً من وجهة النظر التجارية لو أنها كانت تنتج شيئاً تصدره ، ولكن أرضها شديدة الحرارة وشديدة الجفاف ، وغير صالحة للإنتاج ، وتوجد الزراعة على الحدود الخارجية لشبه الجزيرة فقط • فعلى امتداد الساحل الغربي إلى الجنوب في اليمن وعسير تسقط الأمطار الكافية للسماح بزراعة التربة • وفي الحجاز إلى الشمال موطن محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت الحياة ممكنة لوجود الواحات وينابيع المياه التي جعلت الصحراء مخضرة حيث أمدت البدو بالأعشاب التي تعيش عليها الجمال ومع ذلك

(*) أطلق المصريون القدماء اسم بونت على منطقة في الجنوب كانت تشتهر بانتاج

البخور (المترجم) •

كان فقر شبه الجزيرة العربية هو الذى دفع العديد من قبائلها فى العصور القديمة الى الهجرة الى بابل ، وهو الفقر الذى لعب دورا غير مباشر فى حركة الفتوح الاسلامية فى القرن السابع (*) .

ان الحياة الشاقة فى شبه الجزيرة العربية أوجدت شعبا شديدا معتمدا على نفسه وكانت الحياة هناك صراعا مستمرا من أجل البقاء . وهو ما يتمثل فى عادة وأد البنات التى استمرت حتى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم قضى عليها الاسلام . وانقسم العرب بصفة عامة الى طبقتين : العرب أهل الحضر الذين عاشوا فى القرى والمجتمعات الأكبر مثل مكة والمدينة وعرب البادية الذين جالوا فى الصحارى والواحات بحثا عن الزاد . وكانت الحياة البدوية مميزة فى وسط وشمال شبه الجزيرة العربية ، والتى شملت الحجاز موطن محمد (صلى الله عليه وسلم) وشكل البدو العنصر الأكثر اضطرابا لسكان شبه الجزيرة العربية) واعتادوا على الاغارة التى كانت عنصرا أساسيا تقريبا فى حياتهم . ونظرا لفقر التربة وقلة انتاجها ، صارت الاغارات على من يملك سبيلا أيسر للحياة ، وسيلة ضرورية للبقاء . وثبت أن خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) آمنوا بهذا المبدأ الأساسى عندما حملوا رسالته والسيوف الى الشعوب خارج شبه الجزيرة العربية (**).

لعب وجود الخيل والجمال دورا هاما بسبب الجفاف والحرارة الشديدة فى شبه الجزيرة العربية اذ بنونهما كانت الحياة فى شبه الجزيرة العربية غير ممكنة . وضار البلح الذى نقل من بابل سلعة رئيسية . وكان لبن الجمال والبلح عنصرا أساسيا فى طعام البدوى . وأوصى النبى (صلى الله عليه وسلم) بالنخلة قائلا : « أوصيكم خيرا بالنخلة ، فقد خلقت من الصلصال الذى خلق منه آدم » (***) (٣) . وأمد الجمال ساكنى البادية من العرب باللبن واللحم لاطعامه ، والوبر لصناعة خيامه ، والروث للوقود ، وهو وسيلة الانتقال الرئيسية . والواقع أن تاريخ المجتمع الانسانى فى

(*) يختلف المترجم مع المؤلف فى هذا الراى . ويرى المترجم أن العرب خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى أواخر عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عصر الخلفاء الراشدين كحملة رسالة قبل كل شيء وفوق كل شيء ، ومما يؤكد رأى المترجم الرسائل التى أرسلها رسول الله عليه الصلاة والسلام الى رؤساء وقادة العالم فى ذلك الحين يدعوهم فيها جميعا للإسلام - (المترجم) .

(**) أثنى أنه لا يغيب عن حصفاء القاري الكريم هذا القول المجحف ، وانى لعلى يقين بما حدث عند نشر الدعوة الاسلامية خارج الجزيرة العربية فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الاسلامى - المترجم .

(***) هكذا ترجمة النص الانجليزى ومن الأحاديث الواردة فى هذا الشأن أكرموا عماكم النخل الكرمات فى المحل .

شبه الجزيرة العربية يبدأ مع تحول الجمل الى حيوان اليف • فالجمل
من نعم الله الكبرى (*)

ان مناخ شبه الجزيرة العربية بالاضافة الى طبيعة الترحال لسكانها
المتنثرين لم يشجع منذ امد بعيد على اقامة دول سياسية ، أما في اليمن
في الجنوب ، فظهرت مملكة سبأ بحلول القرن الثامن ق م ، بيد أن
العشيرة كانت الوحدة الاجتماعية والسياسية بشكل نمطي سائد بصفة
عامة • فلكل أسرة خيمتها ، وتشكل مجموعة الخيام عشيرة ، وتعترف
مجموعة من العشائر برئيس أعلى لها ، وتكون القبيلة • وتمتع الشيخ
رئيس العشيرة أو القبيلة ، بمركز القيادة ، وبالرغم من أنها كانت مسئولية
مارسها بناء على موافقة القادة الآخرين للجماعة • وفي مجتمع أكبر مثل
مكة ، تركزت السلطة في أيدي الأقلية من التجار الأثرياء الذين كانوا
قادة لعشر عشائر أو أكثر ، تكونت منها قبيلة قريش ، وسيطرت على
المدينة • وولد محمد (صلى الله عليه وسلم) في عشيرة هاشم ، وهي
عشيرة متواضعة من الناحية الاجتماعية • وكانت عشيرة بنى أمية أشهر
عشائر مكة ، وهي التي قدر لها أن تكون أسرة قوية (٦٦١ - ٧٥٠ م) ،
في التاريخ الاسلامي •

دخلت شبه الجزيرة العربية التاريخ حوالى القرن العاشر قبل الميلاد
عندما زارت ملكة سبأ سليمان مع قافلة من الجمال • (٣ الملوك ١٠) (**)
وبعد ذلك استولت ملكة سبأ على الممالك العربية الجنوبية الأخرى ،
وكانت مملكة معين إحدى تلك الممالك ، التي كانت نشطة في استعمار
الأرض المعروفة حالياً باسم الحبشة • على أن أول معركة حربية خاضتها
شبه الجزيرة العربية ضد دولة كبرى كانت في القرن السابع قبل الميلاد
عندما اجتذب ثراء سبأ ملكة آشور في الشمال • وقامت مملكة في
النقب عاصمتها البتراء • على أن أول محاولة قامت بها روما لاحتلال
الحجاز ابان عهد الامبراطور أغسطس باء بالفشل ، بيد أن البتراء نفسها
سقطت في يدى الامبراطور تراجان سنة ١٠٦ م • وتمتعت مملكة تدمر
في الشمال ، بفترة قصيرة من الشهرة في القرن الثالث الميلادى ، وكانت
في بداية الأمر حليفة للرومان ، ثم صارت دولة مستقلة ، الى أن استطاعت
قوة الرومان النشطة القضاء على وجودها سنة ٢٧٢ م • ومدت دولة
الحبشة نفوذها الى اليمن بنجاح معظم الفترة الأخيرة من أواخر القرن

(*) يشير المؤلف في تلك الجملة الى ما ورد في الآية الخامسة الى الثامنة من سورة
النحل - المترجم •

الثاني قبل الميلاد ، عندما نجحت محاولة أبناء حمير في فرض سياستهم على اليمن . ومنذ أواخر القرن الرابع الميلادي استمرت القوتان العظيمتان في ممارسة تدخلهما في شئون اليمن : أحدهما كانت الامبراطورية الفارسية الساسانية ، التي كانت عاصمتها طيسفون (*) على نهر دجلة ، والأخرى الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية . ولم تقتصر جهودهما على محاولة فرض النفوذ على اليمن ، وإنما امتدت تلك الجهود لاقامة دولتين عربيتين تتبع أحدهما الفرس والأخرى الرومان في شمال شبه الجزيرة العربية وتحالف الفرس مع مملكة اللخمين على الحدود الشرقية للصحراء السورية ، بينما كانت القسطنطينية على علاقة صداقة مع الساسانية في الغرب .

تلك كانت أحوال شبه الجزيرة العربية سنة ٥٧٠ م ، عندما ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) . ومن كان يتوقع أن هذا الصبي اليتيم الذي ولد من أبوين فقيرين ، سوف ينتزع تاريخ شبه الجزيرة العربية من أيدي جيرانها الأقوياء ، وأن يضع أساس عظمته في المستقبل . على أن ظروفًا عديدة سبقت طموح محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يجعل من نفسه قائدا روحيا وسياسيا لشبه الجزيرة العربية (**). فمن ناحية ولد في مكة المدينة الرئيسية التي بها الكعبة التي جعلتها مدينة مكرمة عند العرب .

كان في داخل هذا البناء المستطيل غير المسقوف العديد من الأصنام التي عبدها العرب في شبه الجزيرة العربية ، واعتادوا الحضور لزيارتها في فترة هدنة الربيع . ويقال إن إبراهيم (عليه السلام) جد العرب ، هو الذي بنى الكعبة ووضع فيها الحجر الأسود ، الذي هبط عليه من السماء . وما أن أصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) سيدا على مكة حتى طهر الكعبة من الأصنام واحتفظ بالحجر الأسود في مكانه . وما زالت الكعبة موجودة حتى اليوم وهي أقدس البقاع الدينية منذ القدم حتى الآن ويزورها عشرات الألوف من المسلمين كل عام للحج إلى بيت الله الحرام (***).

ولا نعرف سوى القليل عن محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى أوائل العشرينيات من عمره ، عندما عمل تاجرا في قافلة تملكها خديجة

(*) أو المدائن كما تذكر المصادر العربية - المترجم

(**) من الواضح أن المؤلف لا يعترف بالاسلام ديناً - المترجم

(***) الواقع أن تعداد الحجاج الذين يزورون البيت الحرام سنويا يزيد على المليونين كل عام - المترجم

(رضي الله عنها) التي كانت أرملة غنية ثم تزوجها . وعندما بلغ الأربعين من عمره بدأ يدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وأن يساعد المسلم أخاه المسلم الفقير ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق . على أن معظم المبادئ التي نادى بها محمد صلى الله عليه وسلم تتشابه مع ما ورد في تعاليم اليهود ، وكذلك العهد الجديد عند النصارى . ومن المهم القول انه نادى بالجهاد ضد الكفار ومعاملة أهل الكتاب بالتي هي أحسن . ولا شك أن التشابه بين المبادئ الإسلامية ومعتقدات اليهود والنصارى كان عاملا مساعدا على سرعة إيمان العديد من الشعوب بالاسلام .

ان من معاني كلمة الاسلام أن يسلم المرء أمره الى الله (سبحانه وتعالى) وهي الفضيلة التي ظلت سمة لافتة للنظر احتفظ بها كل من آمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) . واشتملت مبادئ الدعوة الإسلامية على فريضة الزكاة ، وهي قريبة الشبه بعشر الغلة أو المال الذي يدفع للكنيسة tithe ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وإقام الصلاة مع استقبال الكعبة . وسمحت المبادئ الإسلامية بتعدد الزوجات غير أنها حرمت الزنا وشرب الخمر . وأكدت التعاليم الإسلامية على أن الاستشهاد في سبيل الله طريق الجنة .

وإذا كانت التعاليم الإسلامية حظيت بإيمان الملايين عن طيب خاطر بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسنوات قليلة ، فإنها لقيت الصدد والمعارضة على يد قادة مكة إبان حياته . إذ انهم عارضوا عبادة الله الواحد الأحد ، لأنها تتعارض مع حياتهم الاقتصادية القائمة على الوفود التي تقدم القرابين للأصنام التي كانوا يصنعونها في الكعبة ويعبدونها . كما أنهم خشوا من قيام دكتاتورية في حالة الاعتراف بنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . واستاء أهل مكة لأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) سفه آباءهم لأنهم كانوا مشركين ، كما أنهم خافوا من أن يساعد من آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) على تنفيذ ثورة اجتماعية واقتصادية تضع نهاية لمركزهم القيادي .

وفي صيف ٦٢٢ م هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة التي آوته . وهي تبعد مائتي ميل إلى الشمال . على أن حياته تعرضت لبعض المخاطر عند وفاة زوجته خديجة ، وعمه أبي طالب ، الذي كان شيخا لعشيرة هاشم والذي كان يحميه من المشركين . وفي مدى سنوات قلائل من وصوله إلى المدينة استطاع أن يجعل من نفسه سيذا هناك . وبدأ يعد الغزوات ضد القوافل الذاهبة إلى مكة والخارجة منها . وبعد فشل محاولة جماعية قام بها المشركون لاحتلال المدينة سنة ٦٢٧ م ، والقضاء على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ازداد عدد المؤمنين في

مكة المكرمة زيادة سريعة ، وساعده ذلك على فتح مكة سنة ٦٣٠ م .
واستعداد الكعبة من المشركين بحكمة وحافظ على مكانة مكة المكرمة .
واتخذ المدينة (المنورة) محلا لاقامته الى أن دفن بها سنة ٦٣٢ م .

ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يتخذ ترتيبات مسبقة لخلافته بل انه ترك ابنا له من بعده لفرض ذلك مشكلة حقيقية . اذ كيف يخلف شخص عادى أحد الأنبياء ؟ وفي غداة وفاته اختاروا أبا بكر الذي كان شيخا هرمًا ، ووالد عائشة زوجة الرسول ، ليخلفه . واذا كان تصرفهم قد ضمن ولاء مكة بيد أنه لم يفعل شيئا تجاه رفض بعض القبائل بالولاء سوى في عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) وتوقفت بعض القبائل عن دفع الزكاة التي كانت تساعد على تدبير الشؤون المالية للحكومة المدنية حديثة العهد . وتذرعت بعض القبائل بأن اتفاقهم كان مع محمد (صلى الله عليه وسلم) بصفة شخصية ، كما يحدث بين رؤساء القبائل ، ومن ثم يكون هذا الاتفاق قد انتهى بموته . كما ظهر على الفور تقريبا أنبياء « كاذبون » في أنحاء شبه الجزيرة العربية نادوا بتعاليم تتماشى مع ايمانهم بتعهد الآلهة مع عدم الالتزام بأى سلطة سوى سلطة كل قبيلة على حدة .

وواجه أبو بكر وكبار الصحابة تحدى قيادة مكة بكل حزم وعزم . اذ تم استدعاء كل قادر على القتال وقسموا الى أحد عشر قسما ، وكلف كل فريق باخضاع كل قسم فى شبه الجزيرة على حدة . وعرفت المعارك التي دارت بين مكة والقبائل النائرة باسم حروب الردة ، ونعنى بذلك الخروج على تعاليم الاسلام . ولكن القتال امتد الى أبعد من إعادة القبائل المرتدة الى حظيرة الايمان ، حتى ان ثلثى شبه الجزيرة العربية - وهى الأراضى والقبائل التي لم تكن قد اعترفت بنبو الرسول (صلى الله عليه وسلم) - قد أجبرت على الاعتراف بسيادة مكة عليها لأول مرة .

ان غزو شبه الجزيرة العربية كلها كان هدفا طموحا حتى وان كان من المستحيل على أعداء مكة الاتحاد ضدها ، اذ ان صعوبة المواصلات والنصرة الاستقلالية عند قبائل شبه الجزيرة العربية جعلت قيام تعاون فيما بينهما ضد مكة أمرا مستحيلا . وكانت مهمة خالد بن الوليد الذى ربما كان أقدر القادة المسلمين الأول ، هى اخضاع الاقليم الأوسط من شبه الجزيرة العربية الذى تسكنه قبيلة بنو قحافة . وكان انتصاره على تلك القبيلة سنة ٦٣٣ م ، وقتله لمسيلمة « الكذاب » عاملا مساعدا على اخضاع كل شبه الجزيرة العربية ونهاية حروب الردة . على أن سياسة الاستمالة التي انتهجها أبو بكر فى تعامله مع القبائل المهزومة عملت على تهدئة احساسهم بالمرارة ، وحققت السلام لأول مرة فى تلك البلاد .

ومع ذلك فإن تحقيق السلام ترك شبه الجزيرة العربية معسكرا مدججا بالسلاح ، ومن ثم واجه أبو بكر ومكة أزمة جديدة . قال متى يتوقع أبو بكر ومن معه أن تظل القبائل القلقة ملتزمة بتحرير الحروب بينها وهى عمل سكان البادية الوحيد الذى درجوا عليه لئلا لاشن الاغارات لاستكمال ما يحتاجون اليه من قوت لأفرادهم ؟ فكان لابد من وجود مخرج يمدهم بالاثارة الحربية والطعام ، والغنائم التى كانت تحققها لهم الاغارات . وكان الحل نوعا آخر من الاغارات ، وكان نوعا على نطاق أوسع من ذى قبل . ولم تكن تلك الاغارات ، ضد القبائل فى شبه الجزيرة العربية التى قبلت سيادة مكة عليها ، وانما ضد الشعوب التى تسكن خارج شبه الجزيرة (*) .

وهذا النوع من الغزوات كان قد بدأه محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما أرسل سنة ٦٣٠ م حملة تكونت من ثلاثة آلاف مقاتل لسلب ونهب سكان مؤتة (**) التى تقع جنوب شرق البحر الميت تماما . واذا كانت القوات البيزنطية قد نجحت فى اباداة تلك الجماعة من الجند ، الا أنها كانت سابقة لها ما بعدها . اذ لم يكن هناك خيار أمام أبى بكر ومكة بعد أن وجدوا آلاف من البدو المسلمين المتعطشين للقتال . وفى نهاية ٦٣٣ م نظموا ثلاث غزوات للسيطرة على المناطق المحيطة بالحدود الجنوبية لسوريا . وكانت تلك المناطق معروفة للعرب ، اذ كانت بصرى وغزة مدينتين هامتين عند نهاية طرق القوافل من الجنوب . وعلى الرغم من أن حجم تلك القوات الغازية - حوالى ثلاثة آلاف رجل لكل غزوة - تكشف عن أهداف أكثر أهمية عن أى غزوات أخرى قام بها العرب ، فإن قادة تلك الغزوات لم يفكروا فى شيء أبعد من مجرد القيام بغارات انتقامية فى صورة غزوات كبرى . على أن أبى بكر وكبار الصحابة عقدوا العزم على حرمان الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية من مدنها على حدودها شمالا وجنوبا . وبعد أن تحققت بشائر النجاح لتلك الأهداف أصبح من الممكن وضعها موضع التنفيذ ، وتم اعداد غزوات كتب لها النجاح .

ان النجاح المثير للدهشة الذى حققته هذه الغزوات ، وما تلاها من انتصارات مذهلة على جيوش بيزنطة والفرس التى فاقتها فى التسليح

(*) يلاحظ أن المؤرخ يضع الفتوحات الاسلامية لنظرية التفسير المادى البحث للحركة التاريخية . ومرجع ذلك لعدم اعترافه بأن الاسلام رسالة سماوية وأن الدعوة الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية بدأت منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالحكمة والموعظة الحسنة - المترجم .

(*) احقا كانت غزوة مؤتة من أجل السلب والنهب !!! - المترجم .

والقوة العددية جعل العلماء يعكفون على دراسة تغيرات هذه الظاهرة .
اذ كيف استطاعت قوات أقل تجربة ومتخلفة حضاريا ، وأقل عددا ،
وعدة وخبرة ، أن تحقق انتصارات رائعة لهؤلاء العرب ، وبصفة خاصة
ما بين ٦٣٣ م ، ٦٤٢ م لقد نسب ذلك للطبيعة الحربية لشبه الجزيرة
العربية في أعقاب حروب الردة ، وفسر أيضا بتحريم الغارات ضد القبائل .
وفوق هذا كانت الوصايا المتكررة التي أوصى بها محمد (صلى الله عليه
وسلم) الصحابة بالجهاد ضد غير المؤمنين . وعلى الرغم من أن العلماء
أبدوا شكوكهم في درجة الدافع الديني عند هؤلاء المقاتلين العرب (٤) ،
فما لا ريب فيه أن تعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت عامل
تماسك وتحقيق قدر من الوحدة مع أراض وشعوب لم يعرفوها من قبل .

ولا ريب أن الرغبة في الحصول على الغنيمة كانت الدافع الملح في
فكر البدو الذين انضموا الى القوات المتجهة شمالا . وما أن وجدوا المناخ
المعتدل في سوريا ، وفلسطين ، ووجدوا مستوى المعيشة المرتفع هناك حتى
قررروا هجر شبه الجزيرة العربية الشديدة الحرارة والصحراوية ، وتحركت
فيهم رغبتهم في الانتقال ومعهم أسرهم الى تلك الأراضي الجديدة للإقامة
الدائمة . وأطلق خبير مشهور تخصص في التاريخ العربي على هذه
الحركة الى خارج شبه الجزيرة العربية اسم ، « آخر هجرة سامية
كبيرة » (٥) . وعلى الرغم من أن سبب النمو السكاني هو الهجرات
الجماعية الباكرة ، فإن الموقف هنا كان الرغبة في الحصول على الغنائم
والاستمتاع بحياة أفضل .

وبفضل قوة احتمال العربي وشراسته تمكن من تحقيق الانتصارات
الأولى على جيوش بيزنطة والفرس ، اذ كان العربي من أشرس المقاتلين
في عصره . فمنذ نومة أظافره تعلم ركوب الخيل والمبارزة والتعاون مع
أبناء عشيرته في صد الغارات أو القيام بها . ومع ذلك فان متطلبات
الطبيعة الحربية للقبيلة احتاجت الى أمور أخرى بخلاف مقدرة العربي على
العدو السريع بالخيول ، والقتال بكل شجاعة . اذ انه لم يكن ليقدّر
على اجتياز حدود الجنود البيزنطية والفرس المدربين لولا عبقرية خالد
ابن الوليد القتالية وأخطاء أعدائه .

كانت أسلحة العربي قليلة ، سيفا ورمحا ، ولم يكن يحمل درعا
يحميه . وكان النظام الحربي الوحيد الذي عرفه هو الهجوم السريع على
العدو في موجات متتالية للفرسان من النادر أن يكون هناك بينها فاصل
زمني . وافتقرت الحرب الى السلاح لدرجة أن الحملة الوحيدة على سوريا
في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي تكونت من ثلاثة آلاف مقاتل
على مؤته ، المدينة التي تقع الى الشرق من الحدود الجنوبية للبحر الميت ،

كانت بهدف الاستيلاء على السيوف التي كانت تصنع في تلك المدينة(*) . وما أن قضى العرب على الجيوش البيزنطية وهزمهم حتى استخذموها أسلحتهم وطرقهم الاستراتيجية في القتال .

خاض العربي معظم معاركه تحت ظروف طبيعية مألوفة اليه الى حد كبير . وليس من قبيل المصادفة أن الامبراطورية الضخمة التي أقامها المسلمون على مدى قرن بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) ضمت أراضي قاحلة وشبه قاحلة ، في أغلب الأحوال ، وهي أقاليم غالباً ما كانت في مثل حرارة وجفاف شبه الجزيرة العربية نفسها . ويكفي أن معركتي اليرموك والقادسية وهما المعركتان المهمتان والفاصلتان عند ظهور الاسلام كسبهما العرب إبان هبوب عواصف رملية مصحوبة بسحب من الرمال في صحراء رملية . وإذا ما توفر الماء ، فالخيول العربية كانت أسرع الخيول في العالم ، وبفضل هذا النوع من المناورات الحربية الجريئة والجديدة استطاع خالد بن الوليد عبور صحراء سوريا وفاجأ القوات البيزنطية التي اعتقدت أن الصحراء سوف تفوق قدرة خالد بن الوليد على الحركة بكل تأكيد (٦) .

وإذا سلمنا بشجاعة العرب وحماستهم كمحاربين ، فإن ما يمكن أن يفسر نجاحهم بجدارة هو ضعف أعدائهم . إذ لولا أن البيزنطيين والفرس كانوا قد أنهكوا أنفسهم في حروب طاحنة لسنوات طويلة وبخاصة في عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ م - ٦٤١ م) لكان قيام الامبراطورية الاسلامية أمراً لا يخطر على بال بشر ، إذ ان الموارد المالية البيزنطية كانت قد استنزفت الى الحد الذي أجبر القسطنطينية على إلغاء إقامة عدد من القلاع على امتداد الحدود الصحراوية الى الجنوب ، ومنع الاعانات التي كانت تقدمها الى حلفائها العرب في تلك المنطقة .

واجهت كل من الامبراطورية البيزنطية والفارسية شعوباً سامية كبيرة على حدودهما ولم يقبل هؤلاء كلية حكم هاتين الامبراطوريتين . إذ عارضوا الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الحكومات « الأجنبية » التي كانت تتزايد في حالة استمرار الحرب . كما عارضت تلك الشعوب السياسات الدينية . وحرص الفرس على نشر الديانة الزرادشتية . وهي سياسة لم تلق ترحيباً من الشعوب السامية في العراق . وعلى الرغم من أن الشعوب السامية في سوريا ، ومصر كانت نصرانية في أغلب الأحوال ، فانهم عارضوا الامبراطور النصراني « الأرثوذكس » في

(*) ليت المؤلف ذكر المصدر الذي اعتمد عليه في هذه المعلومات ؟! إذ ليست من النحل - المترجم .

القسطنطينية • ونص القانون الامبراطورى على ضرورة أن يعترف النصارى
المونوفيزيتيون (*) بمذهب الطبيعتين ، والتخلى عن مذهب الطبيعة الواحدة
الذى آمنوا به •

ولتلك الاسباب رفضت الشعوب فى سوريا ، وفلسطين أن تقدم
المساعدة للجيوش البيزنطية ضد الغزاة العرب بصفة عامة • وفيما يتعلق
بالفاتحين العرب الأول ، كان من الطبيعى أن يدافع سكان سوريا وفلسطين
عن أنفسهم طالما أنهم يقاتلون دفاعا عن أرواحهم وممتلكاتهم • وعندما
وجدوا أن القوى البيزنطية عاجزة عن الدفاع عنهم ، وعرفوا أن الفاتحين
وعدوهم بالتسامح الدينى والضرائب المنخفضة ، رحبوا بهم ، وفتحوا لهم
أبواب مدنها • وهناك قصة من المحتمل أنها حقيقية ، وهى أن العرب
استولوا على حمص ثم قرروا الجلاء عنها ، عند اقتراب جيش بيزنطى
بدلا من الدفاع عنها فتوسل سكانها النصارى للعرب قائلين : « اننا
تفضل حكمكم وعدلكم عن الاضطهاد والطغيان اللذين كنا نعيشهما من
قبل (٧) » • وعندما غادر العرب مدينة حمص ، أغلق المسيحيون أبواب
المدينة فى وجه القوات البيزنطية ، ولم يسمحوا لهم بالدخول • ورحب
اليهود بالعرب نتيجة للتفرقة التى تعرضوا لها تحت الحكم البيزنطى ،
وكذلك فعل السامريون • وقدر العرب أهمية المساعدة التى قدمها لهم
السامريون ابان الصراع ضد الجيش البيزنطى ، حتى أنهم أعفوا السامريين
من الجزية التى فرضوها على غير المسلمين من الشعوب التى خضعت
لهم (٨) •

ومع ذلك كانت احتمالات بقاء الحكم البيزنطى فى سوريا تبعث على
التشاؤم الكلى • اذ ان الجنود الذين اعتمدت عليهم بيزنطة فى التصدى
للاغارات الشرسة التى شنتها القبائل العربية ، كانوا من أحسن جنود
العالم تسليحا • وتحت رحمة الظروف العادية ووفقا لوجود قيادة حكيمة ،
كان فى استطاعتهم التصدى لغزاة الصحراء تماما ، مهما كانت حدة عدوهم
الرضى التى أبدتها الغالبية العظمى من المونوفيزيتيين الذين كانوا هناك •
اذ كانت القوة الرئيسية للجيش البيزنطى فى أقسامها من الفرسان
الثقيل العدة • وكان المحارب الفرد ، معروفا باسم كاتافراكت

Cataphracts (وهى كلمة يونانية معناها مكسو بالدرع بشكل كامل) ،
يجعل رمحا ، وسيفا عريض الحد ، وقوسا ، وجعبة سهام ، وخنجرا •
ويضع على رأسه قلنسوة من الفولاذ ، ويرتدى قميصا من الفولاذ يمتد من

(*) المونوفيزيتيون هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة والقاتل بأن للمسيح عليه السلام
طبيعة واحدة وهى الطبيعة الالهية وأن الطبيعة البشرية ذابت فى الطبيعة الالهية • وأن
الله الكلمة صار جسدا - (المترجم) •

رقبته الى فخذه ، وقفازا مدرعا وحذاء من الفولاذ • كما أن الفرس الذى كان يمتطيه كان أثقل بكثير من الجواد العربى السريع ، كما كانت خيول القادة والمحاربين فى الصفوف الأمامية مزودة بالعصابات المعدنية والدروع المعدنية الموضوعة على صدور تلك الخيول •

وعلى حين أن التنسيق الفعال بين الخيالة والمشاة ظل قائما حتى عصر الحروب الصليبية فإن بيزنطة كانت بالفعل تستعمل الجند المشاة الثقيلين بالأسلحة ، وإن كانوا لا يستخدمون الا للدفاع عن قلاع الحدود ، وتنفيذ العمليات الحربية الصغيرة فى المناطق الجبلية التى لا يمكن استخدام الخيالة فيها • واعتاد الجندى البيزنطى على وضع خوذة فولاذية على رأسه ، وارتدى قميصا من الفولاذ ، وأحيانا قفازا مدرعا ، ودرعا للساقين • وفيما يتعلق بالأسلحة فإنه كان يحمل رمحا وسيفا ، وبلطة لها طرف حاد على أحد جانبيها ، أما الجانب الآخر فكان كلعنقود • وكان يحمى نفسه بترس مستدير كبير • وبسبب افتقار الجندى البيزنطى الى المقدرة على سرعة الحركة ، ووجود مشكلة الماء ، فإنه كان من النادر أن يخوض وهو المثلث بالأسلحة معارك فى الصحراء • ومن أجل استكمال النقص فى تعداد الفرسان الثقيلين بالدرع ، وحتى يمكن الحصول على مزيد من المقاتلين لتحقيق توازن مع هجمات الحدود التى مارسها العرب بحركات سريعة ، عقدت القسطنطينية اتفاقا منتظما مع القبائل على الحدود الجنوبية مع الشعوب الأخرى مثل سكان أرمينيا لأنهم استخدموا فرسانا خفيفي العدة ، واستعملوا معدات وأساليب حربية مشابهة للفرسان العرب • ولو تخلى هؤلاء الجنود المرتزقة عن ولائهم فى موقعة اليرموك ، لكان من المحتمل أن تنتهى هذه المعركة الفاصلة نهاية مختلفة •

وفى أواخر سنة ٦٣٣ م ، عند انتهاء حروب الردة ، دعا أبو بكر (رضى الله عنه) كل القبائل العربية ، بما فيها القبائل التى فى جنوب اليمن الى ارسال المتطوعين للجهاد ضد غير المؤمنين فى سوريا • وطالما أن الهدف كان فتح تلك البلاد ، وليس مجرد مهاجمة الحدود ، فإن الاغارات شابهت ما اعتاد عليه العرب باستثناء أنها كانت على نطاق واسع وكانت أكثر تنظيما ، إذ تم اعداد حوالى ثلاث وحدات عسكرية بلغ تعداد كل واحدة منها حوالى ثلاثة آلاف مقاتل من بين القبائل الأشد بأسا وحبا للقتال • وتزايد تعداد تلك الوحدات عند تحركها صوب سوريا ، وعندما عبرت حدود الأراضى المسيحية كان قد وصل تعداد كل منها الى حوالى سبعة آلاف مقاتل • ويقول المؤرخون المسلمون ان أبا بكر (رضى الله عنه) قد أوصى ألا يقتلوا شيخا ، أو امرأة ، أو طفلا أو يقطعوا شجرة مثمرة ، أو يقتلوا أى حيوان • ولا شك أن تلك الأوامر تنمى مع طبيعة أبى بكر

الخيرة ، على الرغم من أن تعليماته المتعلقة بالحيوان والحقول المثمرة ربما كانت ترجع الى المحافظة عليها لاستثمارها لصالح الغزاة .

وتكونت الحملة الأولى التي غادرت شبه الجزيرة العربية الى سوريا في أوائل سنة ٦٣٤ م من قبائل الحجاز ، وغرب شبه الجزيرة العربية ، التي اعتمدت عليها مكة اعتمادا كليا في حروب الردة . وكان ذلك مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال . وعلى غير ما كانوا يتوقعون ، اتضح لهم ان حملتهم كانت مثمرة من الناحية المادية . وقاد هذه الحملة عمرو بن العاص القائد الشهير الذي فتح مصر . وتحركت الحملة الثانية بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، شقيق معاوية الذي قدر له أن يكون قائدا مشهورا ومؤسسا للحكم الأموي . وتحركت جماعة ثالثة في أعقاب يزيد تحت قيادة شرحبيل بن حسنة ، في الوقت الذي تحركت فيه جماعة صوب العراق تحت قيادة خالد بن الوليد ، « سيف الله المسلول » ، الذي أثبت عن جدارة أنه أكثر من هؤلاء القادة توفيقا . وتلقى أبو بكر (رضى الله عنه) طلبا للنجدة من المثنى بن الحارث ، شيخ قبيلة بكر في شمال شبه الجزيرة العربية . وكان هذا الرجل مسيحيا . وكانت الحملات التي قادها ضد الفرس قد واجهت مقاومة عنيفة ، وطلب مساعدة أبي بكر العاجلة ، في الوقت الذي تحركت فيه حملة خالد بن الوليد .

ويبدو أن خالدا قد أعد قواته للمسير قرب نهاية سنة ٦٣٣ م ، قبل أن تتحرك أى قوة أخرى . وغادر مكة في الربيع التالي . وإبان تحركه زاد تعداد قواته التي ربما وصلت الى عشرة آلاف رجل عندما دخل العراق . واكتفى في بداية الأمر بجمع الغنائم من القرى والتجمعات الصغيرة حتى وصل الى مدينة الأنبار على الضفة الشمالية لنهر الفرات ، حيث أجبرها على الاستسلام . وفي العراق حقق خالد أول مكاسب للحدود العربية خارج شبه الجزيرة العربية . وباعتباره محاربا مؤيدا بالنصر ، كان في استطاعته التوغل في هذه البلاد الغنية لولا الأوامر التي وصلته من أبي بكر بوقف عملياته العسكرية هناك والاسراع الى سوريا حيث كان اللقاء المرتقب مع الجيش البيزنطي على وشك الوقوع .

وحتى تلك اللحظة كانت القوات العربية تقاتل في سوريا واجتاحت كل شيء في طريقها . على أن أحد العوامل التي ساعدتهم على التحرك في هذا الاقليم بحرية تامة ، كان نجاحهم في الاستعانة بالعرب الذين قابلوهم في هذه المنطقة ، والذين عملوا معهم عن طيب خاطر كمرشدين ، وهؤلاء المرشدون اما أنهم سبق أن تم طردهم من حدود الأراضي المسيحية ، أو أنهم كانوا ينتمون الى القبائل العربية التي لم تعد تتلقى الاعانة السنوية من القسطنطينية . وعندما تحرك عمرو بن العاص تجاه فلسطين استطاع أن يهزم قوة مسلحة تحت قيادة سيرجيوس Sergius حاكم الأقليم .

وارتد الرومان على أعقابهم بعد هذه الهزيمة ، وأعادوا تنظيم صفوفهم .
غير أن الهزيمة لحقتهم في فبراير سنة ٦٣٤ م وذبح قائدهم سيرجيوس .
ويقال ان سيرجيوس لم يذبح ، وانما أخذ أسيرا . وكان عقابه لأنه نصح
الامبراطور هرقل بعدم دفع أى اعانات لعرب الاقليم بأن وضع سرجيوس
داخل جلد جمل وخيط الجلد باحكام حوله ، ثم ترك فى العراء ليلقى حتفه
حنقا وذلك عندما جف جلد الجمل بفعل حرارة الشمس (٩) .

ان موت سيرجيوس والقضاء على قواته ترك فلسطين مباحة للعرب .
ونظرا لعدم وجود المنجنيق لدى العرب ، فانهم لم يحاولوا مهاجمة أى من
المدن الكبرى فى ذلك الحين . غير أن أسلوب القتال تغير بشكل مفاجئ .
اذ أدرك هرقل فى ذلك الحين أن أعداد الغزاة العرب وتدفق قواتهم على
موجات متتالية جعلنا من الصغب طردهم باستخدام اسلوب التعامل مع
الغزوات الصغيرة التى كانت تحتاج سوريا وفلسطين من حين لآخر . وأعد
هرقل جيشا آخر على وجه السرعة ، على الرغم من أن ذلك الجيش لم يكن
على مستوى متطلبات الموقف . كما أن فكرته عن طبيعة عرب الصحراء
الذين يفتقرون الى النظام جعلته يسئ تقدير خطورة التهديد . ولسوء
صحته عين أخاه ثيودور Theodore قائدا على الجيش الجديد .

أما فى مكة فإن أنباء ما حققه العرب من نجاح جعلت أبا بكر يتصرف
باسلوب واقعى . فبالإضافة الى ارساله تعزيزات الى سوريا ، أصدر أمرا
الى خالد بن الوليد بالتحرك على وجه السرعة صوب ذلك الاقليم ، لمساندة
القوات العربية التى تقاتل هناك ، ومازال عدد القوات التى صحبت خالد
فى عبور الصحراء السورية موضع شك . ولكن يمكن أن نقبل التقدير
المتحفظ الذى يحددها بنحو الألف ولا مفر من أنها قد استعانت بالجمال
فى هذه الرحلة الشاقة والمحفوفة بالمخاطر التى قطعها فى ثمانية عشر
يوما . وظلت الخيول التى اصطحبوها معهم على قيد الحياة بفضل المياه
التي اخزنوها فى أكراش الجمال المسنة التى ذبحوها فى رحلتهم .

وبفضل تلك الخطة العسكرية البارة تجنب خالد بن الوليد قلاع
الحدود التى كان من الممكن أن تعطل تقدمه بطريقة أو بأخرى . وبدون
أى عقبات لحق خالد بزملائه العرب قرب دمشق ، ومن المحتمل أن ذلك
كان بعد منتصف يونية ٦٣٤ م . وبعد ذلك بعدة أسابيع ، فى أواخر
يوليو أو أوائل أغسطس ، حارب خالد وحقق نصرا مؤزرا فى موقعة
أجنادين ، التى تبعد حوالى عشرين ميلا غرب بيت المقدس ، على جيش
بيزنطى تحت قيادة ثيودور تريثورىوس Theodore Thrithurius

أمين خزانة الامبراطورية . ولو لم يكن جيش خالد قد زاد عدده على خمسة
عشر ألف مقاتل ، ونجح فى القضاء على عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة
ثيودور ، فإن هذه المعركة كان فى الامكان أن ترقى الى مستوى أعظم المعارك

الفاصلة في عهدهما ، لولا أن تلتها معركة نهر اليرموك بعد ذلك بقليل .
ومع ذلك ظلت معركة لها أهميتها الكبرى رغم استطاعة ثيودور انقاذ
معظم جيشه .

ومات أبو بكر بعد عدة أيام من علمه بالنصر في أجنادين وخلفه عمر
ابن الخطاب ، الذي تم اختياره خليفة ، ولم يكن أمامه من خيار . وفي
عهد الذي استمر عشر سنوات (٦٣٦ - ٦٤٦ م) أرسيت أركان
الامبراطورية الاسلامية التي كانت تتسع بسرعة . ان ايمان عمر الشديدي ،
وزده في الدنيا ، وحب للعدل وعطفه على الجميع أكسبه احترام كل
العرب ، وساعد على اتحاد الشعب الاسلامي ابان هذه الفترة الخطيرة التي
صاحبت التوسع السريع . ومن بين قدراته الادارية ، كانت سياسته
القائمة على استمالة « المرتدين » الذين طلب منهم المشاركة في الجهاد
ضد العدو « كمواطنين لهم كل الحقوق » . وتجسد تواضعه ، وتمسكه
الشديدي بتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حملته لقب « أمير
المؤمنين » الذي اختاره لنفسه ، وتلقب به خلفاؤه حتى نهاية الخلافة سنة
١٢٥٨ م .

ولم يتدخل عمر تدخلا مباشرا في حملة سوريا التي كانت تسير في
صالح المسلمين ، اذ قام خالد بن الوليد ، بعد انتصاره الرائع في أجنادين ،
بالتحرك صوب بصرى ، واستولى عليها دون صعوبة . ويقال ان حاكم
المدينة خائفا بكشفه للعرب عن وجود ممر سرى تحت الأرض يربط المدينة
من تحت أسوارها بالخارج . وقد أسلم حاكم المدينة بعد سقوطها
مما يعطى اعتقادا بصحة قصة ذلك النفق .

وأما عن الجيش البيزنطي ، الذي اعتاد تنظيم صفوفه ، خلف مدينة
بيسان بعد هزيمته في أجنادين ، فقد وجد نفسه مضطرا الى عبور نهر
الأردن نتيجة لهجوم خالد بن الوليد . غير أن القائد المسلم الذي كان في
مواقع المتفوق التي مع الجيش البيزنطي بعد ذلك للمرة الثانية . وأدت
هذه الهزيمة الى ازالة العقبة الأخيرة أمام حصار العرب لدمشق . وطالما
أن خالدا لم يكن لديه آلات الحصار ، كما أنه لم يكن يتوقع التزود بها
من شبه الجزيرة العربية ، لذلك لم يكن أمامه من سبيل سوى منع المؤن
عن المدينة واجبارها على التسليم . ولم تستطع دمشق سوى مناشدة
هرقل ، الذي كان في حمص ، من أجل انقاذها . وبالفعل أرسل هرقل
قوة من الفرسان ، غير أن العرب ردوهم على أعقابهم عندما حاولوا الوصول
إلى حدود دمشق ، ثم نجح العرب في ردهم الى حدود حمص . وعلى مقربة
من حمص تعرض العرب لهجوم شديد دفعهم للارتداد بسرعة تجاه
دمشق .

كان هذا النصر الهزيل أمام حصص هو كل حظ هرقل طوال عهده الكئيب . ولما أصبح واضحا أن دمشق لم تعد تتوقع أى مساعدة حقيقية ، قامت تلك المدينة بفتح باب المفاوضات مع العرب ، واستسلمت بشروط معينة فى أوائل سبتمبر ، ووافقت على دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار ، فى الوقت الذى تعهد فيه العرب بحمايتها ضد النهب والمصادرة . ولا ريب أن تلك الشروط السخية كانت عاملا فى استيلاء العرب على الغالبية العظمى من المدن فى سوريا وفلسطين دون تحمل تكاليف الحصار الباهظة .

ووفقا لما أورده المؤرخ المسلم البلاذرى ، فإن شروط الاستسلام كانت تقضى بأن يتعهد خالد بن الوليد الى سكان مدينة دمشق اذا ما دخلها يتأمين أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم والابقاء على سور المدينة وبألا يقيم أى مسلم فى منازلهم طالما دفعوا الجزية (١٠) .

وفى مواجهة ما حققه العرب من تقدم مستمر انتقل هرقل من حمص الى أنطاكية . وعلى الرغم من انتصارات العدو وتدهور صحته فإنه لم يفقد الأمل ، اذ بدأ فى تكوين جيش جديد ، عقد عليه الأمل فى التصدى بنجاح لخالد بن الوليد ، وكون جيشه من جميع المواطنين الذكور الأصحاء الصالحين للخدمة العسكرية ، ومن المتطوعين الذين استطاع الحصول عليهم من كل مكان ، كما ناشد القبائل المسيحية الصديقة ، وطالب سكان أرمينيا التعاون معه كجند مرتزقة ، وانضم الى جيش هرقل حوالى عشرة آلاف تحت قيادة قائدهم فانيز Vanees . ومثل هذا العدد تقريبا من عرب الغساسنة ، وعرضت قبيلة كلب خدماتها تحت قيادة جبلة بن الحيام ، شيخ قبيلة الغساسنة . وتألقت القوات المرتزقة من الفرسان غير المدربين الذين اختلفوا قليلا فى المعدات الحربية وسرعة الحركة عن الفاتحين العرب .

ووفقا لما ذكره الطبرى ، فإن العدد الاجمالى للجيش البيزنطى الذى يقاده ثيودور ثريثوريوس Theodore Thrithurius أمين خزانة الامبراطورية من أنطاكية فى ربيع ٦٣٦ م بلغ تعدادة حوالى ربع مليون مقاتل ومن الواضح أنه رقم مبالغ فيه . ويميل المؤرخون المحدثون الى القول بأن عدد هذا الجيش البيزنطى تراوح ما بين ثلاثين ألفا وخمسين ألفا . وحجتهم فى ذلك أن أى قوى مقاتلة تزيد عن هذا الرقم سوف يصبح من العسير قيادتها فى مثل هذا المناخ الحار ، فى ذلك الاقليم مع نقص الموارد الغذائية والماء .

وبالمثل وجد العلماء صعوبة فى تقدير تعداد جيش خالد بن الوليد فالمؤرخون العرب الذين كان يحلو لهم المبالغة فى ذكر تعداد الجيش البيزنطى ، والتقليل من عدد الجيش العربى ذكروا أن الجيش العربى

تعداده بين خمسة وعشرين ألفا وخمسة وثلاثين ألفا ، وهو الرقم الذي قبله العلماء بارتياح . وهذه الأرقام الجديدة تعطي للجيش البيزنطى ميزة ضئيلة فى التفوق العددي . بيد أن العرب اتفقوا عليه فى وجود قيادة عربية موحدة تحت رئاسة خالد بن الوليد ، أقدر القادة فى عهده ، أما الجانب البيزنطى فقد ساد الاضطراب ان لم يكن الشك بين قادة الجيش . كما أن الروح المعنوية للجيش البيزنطى كانت منخفضة فى حين أنها كانت عند العرب عالية ، وتميل الى الحماس الشديد ، بفضل التعزيزات التى كانت ترد عليه من شبه الجزيرة العربية .

وفى الجيشان الشهور الأخيرة من فصل الربيع وأوائل الصيف وكل منهما يتربص بالآخر ، ويأمل أن يضعه فى موضع تكون به عوائق يستغلها . وبالنسبة للقائدين ، كان خالد بن الوليد أبعد نظرا بخصوص ما يجب عليه أن يفعله ، وما يجب أن يتجنبه اذ كان من الواجب عليه ألا يبدد قواته فى الدفاع عن المدن الكبرى التى سقطت فى يديه ، لذلك جلا عن دمشق وحمص بالرغم من اعتراضات السكان النصارى . وفضلا عن ذلك بذل كل ما فى وسعه لفصل الجيش البيزنطى عن الموارد الممكنة للمساعدة من الشمال أو الغرب ، فى الوقت الذى نجح فيه فى استدراج هذا الجيش للقائه تجاه الصحراء جنوبا ، التى كانت طريقا مفتوحا للعرب حيث ظلت تتردد عليهم التعزيزات الجديدة ، وحيث يستطيع الهروب أيضا اذا ما قدر له فقدان المعركة مع الجيش البيزنطى . ولابد أن خالدا وضع فى اعتباره أنه كلما اقترب من الصحراء اقترب من ظروف الجفاف ، وطبيعة الأرض الرملية التى تتشابه مع الجزيرة العربية حيث يستطيع رجاله العمل فى أحسن أحوالهم .

ولابد أن خالد بن الوليد كان على بيئة من انخفاض الروح المعنوية فى الجيش البيزنطى والمتاعب التى عانى منها قائد الجيش مع أهالى أرمينيا ، والغساسنة المرتزقة . وحاول ثيودور اقتناع كل من فائيز وجيله ، على أن يتخليا عن القول بأنها معركة خاسرة . وأن بذله مثل هذا الجهد ، ونجاحه الى حد ما فى محاولاته ، يترك المرء فى حالة من التساؤل اذا ما كان الموقف بالنسبة للجيش البيزنطى قد تدهور ابان النصف الأول من سنة ٦٣٦ م (١١) . وبعد مناوشة بين خالد بن الوليد وجماعته من القوات البيزنطية فى الثالث والعشرين من يوليو ٦٣٦ م ، اضطرت هذه القوة البيزنطية الصغيرة الى التراجع ، وسارع الأرومن بالغاء اتفاقهم مع هرقل وانسحبوا من المعركة .

ومع ذلك فان موقف الجيش البيزنطى فى ذلك الحين ما زال غير ميثوس منه ، ففى خلال ثلاثة أيام من القتال المرير ، تمكن ثيودور من صد كل محاولات خالد بن الوليد ، وقطع كل اتصالاته بدمشق . وفى منتصف

شهر أغسطس حرك خالد جيشه وقيادته جنوبا فى منطقة قرب نهر اليرموك ، أحد روافد نهر الأردن ، وهو ينبع من حوران ، ويصب الى الغرب من نهر الأردن ، حيث ينتهى جنوب بحيرة طبرية . واعتمد خالد على الوديان الصغيرة الضيقة والشديدة الانحدار التى تتخلل المنطقة فى حماية جيشه من هجوم الجيش البيزنطى ، الذى كان متمركزا شمال النهر .

وفى مساء التاسع عشر من أغسطس بدأت رياح شديدة الحرارة فى الهبوب من الجنوب ، وفى الوقت الذى كانت تلفح فيه هذه الرياح ظهور العرب ، فانها أثارت سحباً من الأتربة فى وجوه القوات البيزنطية بشكل مباشر تجاه الشمال . وفى العشرين من أغسطس عندما بدأ الجيش البيزنطى يغير من مواقعه ليتجنب القتال تحت تلك الظروف القاسية ، انسحب الحلفاء الغساسنة المسيحيون ، وولوا الأدبار (١٦) . وفى تلك الفترة أصدر خالد أوامره ببدء القتال . وتلت ذلك معركة شرسة دارت رحاها فى يوم شديد الحرارة بشكل لا يطاق . وفى حالة أقرب ما تكون الى العاصفة الرملية اللافتحة . ويقال ان زوجات بعض قادة العرب نزعن أوتاد الخيام واستعملنها كهراوات لدفع أى عربى تجاه المعركة اذا ما حاول الانسحاب . وبدأت المقاومة المسيحية تتعثر تدريجيا . وفى فترة قصيرة من الوقت بدأت المذبحة . وكانت بعض القوات البيزنطية قد لاذت بالفرار تجاه الروافد العميقة لليرموك . بيد أنها سقطت فى الكمائن وتم ذبحها . وحاول البعض الآخر الفرار فى عمق الصحراء ، بيد أن هذه العملية لم تكمل بالنجاح ، وبخاصة بالنسبة للفرسان ثقيلى العدة Cataphracts . اذ قام العرب بتقطيعهم اربا دون أدنى رحمة . وانتهت المعركة بالقضاء التام على الجيش البيزنطى ، وكان القائد ثيودور من بين القتلى .

وبعد أن انتهت المعركة الشرسة ، ساد سوريا هدوء عجيب . ويقال ان خالدا قد شبه هدوء الأحوال فى سوريا بنومة الجمل . ولم يبذل هرقل محاولة أخرى لانقاذ الموقف ، وانما انسحب الى جبال طوروس تجاه الشمال حيث لم يجرؤ العرب على الاقتراب منها . ثم عاد الى القسطنطينية ، وغادر تلك الأراضى قائلا : « السلام لك يا سوريا ، كم أنت من بلد جميل ستكون من نصيب العدو » .

ان موقعة اليرموك حددت مصير سوريا وفلسطين ومن بعد ذلك مصر بصفة نهائية . اذ فتحت حمص ودمشق أبوابها للمتصر ، وكذلك فعلت معظم مدن الاقليم . فى حين ظلت بيت المقدس صامدة الى أن سقطت فى نهاية سنة ٦٣٧ م . ونظرا لعدم امتلاك العرب لآلات الحصار استطاع البطريق سوفروثيوس الانتظار لا على أمل الحصول على مساعدة هرقل وانما لمحاولة الحصول على شروط أفضل من الفاتحين . ويقال ان البطريق أصر على التفاوض مع عمر بن الخطاب نفسه ، لأنه كان قد سمع عن حبه

للخير ، وأمانته واستقامته • وكما حدث ، كان عمر في فلسطين • وكان قد جاء لكي يتولى بنفسه الاشراف على تنظيم الأراضي التي فتحت حديثا • وبالفعل التقى الرجلان ولم يكن لعمر سوى قميص واحد ، وعباءة واحدة • ولم تكن بتلك الملابس العديد من الرقع فحسب ، وانما كانت بالية جدا • وفي بداية الأمر رفض عمر الملابس التي أهداها اليه البطريق • ثم بعد ذلك وافق وذلك رغم أنه أعاد تلك الملابس التي أهداها اليه •

ومهما كانت طبيعة مطالب سوفروثيوس ، فمن الراجح أن عمر وصل الى بيت المقدس وفق ما اتفق عليه • وكان عمر مسلما ورعا ، وزار البقعة المقدسة التي بها معبد سليمان ، والتي عرج منها محمد (صلى الله عليه وسلم) الى السماء • ومع ذلك فان المسجد المنسوب الى عمر بن الخطاب يحمل اسم قبة الصخرة ، وهي الصخرة التي عرج منها الرسول صلى الله عليه وسلم الى السماء • وظلت اورشليم تحمل اسم بيت المقدس عند المسلمين •

دارت رحى معركة اليرموك في صيف ٦٣٦ م ، وبعد ذلك بعام سدد العرب ضربة قاضية للامبراطورية الفارسية المنهارة ، عندما حققوا نصرا مؤزرا عليها في القادسية قرب طيسفون Ctisphon (*) كل ذلك بفضل الجمال التي ساعدت خالد بن الوليد على عبور الصحراء السورية . وتحقيق انتصاراته المتتالية على الجيش البيزنطي عند اليرموك • وفي القادسية صوب العرب سهامهم الى أعين وخراطيم الفيلة التي أحضرها الفرس معهم ، وكما حدث في معركة اليرموك ، ساعدت عاصفة رملية العرب على القضاء على الجيش الساساني • وفي مدى سنوات قلائل سقطت بخارى وسمرقند ، ومدن تركستان في أيدي الفاتحين العرب • الذين تقدموا عبر جبال الأندوس Indus حتى وصلوا الى البنجاب • وفي ذلك الحين اجتاحت العرب مصر ، وفتحوا جزيرتي كريت ورودس ، وفي سنة ٦٩٨ م ، استولوا على قرطاجة ودمروها ، وفي سنة ٧١١ م عبر العرب ، أو بالأصح المسلمون المغاربة مضيق جبل طارق ثم عبروا جبال البرانس سنة ١٧٨ م الى بلاد الغال • ان الذي جعل من الممكن فتح هذه المساحات الشاسعة ، والذي فتح الطريق للانتصارات المذهلة التي تحققت في الفترة ما بين انتهاء حروب الردة والذكرى الثوية الأولى لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في سنة ٧٤٢ م كان النصر الملتصق بالدماء الذي أحرزه خالد بن الوليد ابان هبوب عاصفة رملية في موقعة اليرموك في أغسطس سنة ٦٣٦ م (١٣) •

(*) طيسفون كانت عاصمة الفرس حتى الفتح الاسلامي وورد ذكرها في المصادر الفارسية واليونانية واللاتينية • وهي المداين التي درجت المصادر العربية على ذكرها • وما زالت انقاض طيسفون موجودة جنوب بغداد وتعرف حاليا باسم سلمان بك - المترجم •

٤ - معركة هيستنجز

يقول علماء الجيولوجيا ان بريطانيا أصبحت جزيرة منذ حوالي خمسة وعشرين ألف سنة قرب نهاية العصر الجليدي ، عندما كانت قيعان المحيطات في أعلى مستوى لها . وكان بحر الشمال مجرد مستنقع يصب فيه نهر الراين ، كما كان نهر التيمز رافدا لنهر الراين ، وهو الذي أصبح نهرا قائما بذاته ويصب في البحر مباشرة . وتزامن « استغلال » نهر التيمز ، أكبر أنهار بريطانيا مع انفصال أرض بريطانيا عن القارة الأوروبية عندما تحركت المياه وملأت المنطقة المنخفضة والمعروفة حاليا باسم بحر المانش .

لم يتأثر تاريخ إنجلترا سواء من ناحية تطور علم التاريخ الطبيعي أو الانساني مثلما تأثر بكونها جزيرة ، وعلى ذلك فعلى المرء أن يضع في اعتباره أن تلك الظاهرة هي الحدث الحاسم في تاريخ إنجلترا . وإذا ما استخدم المرء تعبير « تاريخ » بمعنى الحوادث المدونة في السجلات على نحو دقيق ، فلن يكون هناك حدث فاصل في تاريخ إنجلترا أكثر من معركة هيستنجز التي دارت رحاها في الطرف الجنوبي للجزيرة في الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٦٦ م . ان معركة هيستنجز . « إحدى المعارك التي حددت مصير الأمم في فترات فاصلة ونادرة » (١) .

وأهم نتيجة تمخضت عن انتصار وليم ، دوق نورماندى ، وأتباعه من النورمان على إنجلترا في موقعة هيستنجز ، كانت الارتباط السياسي بين بريطانيا والقارة الأوروبية . وتقطعت أوصال الروابط المثينة التي كانت تربطها بالامبراطورية الاسكندنافية ، اذ كانت بريطانيا منذ سنة ١٠١٦ م حتى سنة ١٠٣٥ م جزءا من الامبراطورية الاسكندنافية برئاسة كانوت Conute ، ملك إنجلترا والدانمرك . وبدلا من ذلك أصبح دوق نورماندى ملكا وظل لعدة سنوات يحمل لقب دوق وملك . بل حتى بعد طرد الانجليز من فرنسا وجد الانجليز صعوبة في نسيان أن ملكهم حكم نورماندى في وقت ما ، حتى ان هنرى الثامن الخاضع لزوجته ، وجد من الوقت ما سمح له باعداد حملتين في محاولة لاسترداد الاراضى عبر بحر المانش .

ومنذ سنة ١٠٦٦ م وحتى نهاية العصور الوسطى كان النفوذ الفرنسى قويا فى انجلترا . كما أن اللغة التى نقلها النورمان ظلت لغة الكلام للطبقة الارستقراطية والانجليز المثقفين حتى القرن الخامس عشر . أما اللغة الانجوسكسونية التى لم تكن تستعمل سوى بين الطبقات الدنيا الامية ، فظلت ماثرة نعمة حتى استردت القبول فى أواخر القرن الرابع عشر بظهور لانجلاند Langland وتشوسر chaucer ولولا معركة هيستنجز وتدخل النفوذ الفرنسى ، لكانت لغة الانجليز والشعب فى الولايات المتحدة مشابهة تماما للغة فى هولندا وشمال المانيا .

أدى انتصار النورمان فى هيستنجز الى أن حلت الطبقة الحاكمة الفرنسية محل الطبقة الارستقراطية السكسونية على الفور تقريبا كما أدى الى استبدال الهيئة الكهنوتية برؤساء أساقفة وزؤساء أديرة فرنسيين بطريقة بطيئة الى حد ما ، لكنه كان استبدالا كاملا . على أن قدوم النورمان عجل بأذخال النظم والمعاملات الاقطاعية بسرعة كبيرة . وتقريبا فى اليوم الذى تم فيه تتويج وليم ملكا لانجلترا صدرت التوجيهات الملكية الى الكنائس الكبرى بتنفيذ الأوامر الخاصة بوضع التاج مع صورة للفرسان الأتباع ، وهو الشئ الذى لم يفعلوه من قبل . وبعد سنة ١٠٦٦ م ، استطاع الفرسان ، الذين كانوا أمرا جديدا على انجلترا أن يسيطروا على ميدان المعركة حتى نهاية العصور الوسطى .

وتعرضت التجارة والصناعة الى قوة دفع مثيرة للانتباه نتيجة الارتباط الشديد بالقارة الأوربية . (اذ حضر والد توماس بيكيت Thomas Becket من نورماندى ليمارس التجارة فى لندن) . ولا ريب أنه ما كان لانجلترا أن تفاخر بكفاية نظامها الحكومى فى أوربا فى أواخر القرن الثانى عشر لولا انتصار وليم فى هيستنجز . وبالطبع فانه لولا انتصار وليم ما كان صراع يبعث على الرثاء مثل حرب المائة عام .

قليلة هى المعارك التى جذبت انتباه العديد من العلماء أكثر من معركة هيستنجز . فالمفهوم أن تلك المعركة نالت صفة الحسم ، على الرغم من وجود شئ ما فوق نطاق أهمية المعركة ، وهو الذى يحدد قدر الاهتمام الذى يبديه المؤرخون . ولابد من وجود دليل معاصر كان فى متناول العلماء ليستندوا اليه فى كتاباتهم . وبالنسبة لمعركة هيستنجز فمازال هناك قدر وافر من تلك الأدلة ، ويضاف اليها قدر ضئيل من « المشاكل » التى استمرت فى إثارة الجدل .

ان أكثر المصادر المعاصرة وأكثرها قرادة ، ما يطلق عليها قطعة القماش المطرزة بمدينة بيو Bayeux-Tapestry . وهى عبارة عن شقة

مطرزة بالخيوط. الصوفية في سبعة ألوان تحكى بالصورة معركة هيستنجز. وطولها مائتان وثلاثون قدما وعرضها عشرون بوصة ، واحتوت على اهتمام خاص بأدوار المسئولين عن تلك المعركة ، هارولد Harold ملك انجلترا ، ووليم William دوق نورماندى. وترجع بعض الآراء الحديثة تلك القطعة المنسوجة والمطرزة الى ما بعد المعركة بحوالى اثني عشر عاما ، وعلى وجه اليقين ليس بعد سنة ١٠٨٢ م . ففي ذلك الحين اختلف أودو Odo أسقف مدينة بيبو Bayeaux مع وليم ، الذى كان أخا غير شقيق له ، الأمر الذى أدى الى سجنه على يد وليم . وأودو هذا هو الذى قام بتصميم ومتابعة تنفيذ قطعة القماش الكتابى المطرزة ، التى تقدم الدليل على أن ولاء النورمان لم يكن كاملا ، على الرغم من أنها تقدم معلومات عن ملابس القرن الحادى عشر ، والدروع والأسلحة : وأساليب القتال ، وبناء القلعة ، ونقل الحيوان وامداد السفن ، وكلها معلومات قيمة .

وأهم المصادر المكتوبة عن معركة هيستنجز هى حولية وليم من بواتيه William of Poitiers . ومن الواضح أنها أمدت من صنعوا قطعة القماش المطرزة بالمادة العلمية عن قصتهم . وكتب وليم هذا حوليته فى الفترة ما بين ١٠٧٢ م ١٠٧٤ م واستمد جزءا من معلوماته مما كتبه وليم من بواتيه William of Poitiers عن تاريخ الأدواق النورمان ، والجزء الآخر عن الذين عاصروا تلك المعركة . وعلى الرغم من أن وليم من بواتيه كتب حولية مهمة ، الى من أبدى تعاطفه معه . فهو يعتبر هارولد ، « رجلا انجليزيا غبيا » وأنه « كان ملطخا بالرديلة ، وقاتلا قاسيا » ، وأن ما فعله وليم لم يكن سوى عدل الله . على أن افتقار وليم بواتيه للموضوعية ما هى الا خاصية اتسمت بها المصادر المكتوبة التى عالجت المعركة .

وعلى سبيل المثال ، يحكى هنرى من هنتجتون Huntingdon كيف القى وليم على رجاله خطابا طويلا ورنانا وبلغيا جدا قبل المعركة عن جرائم هارولد ، وعن المآثر الرائعة لأجداده النورمان الشجعان لدرجة أن رجاله ، « استشاطوا غضبا واندفعوا فى حماس شديد صوب العدو ، وبعنف يفوق الوصف ، وتركوا الدوق وليم يكمل خطابه بمفرده » . على أن أكثر المصادر التى يمكن الاعتماد عليها حولية الأنجلو سكسون Anglo-Saxon Chronicle ، وان كانت مقتضبة لسوء الحظ ، ولا شك أن ذلك كان وفقا للمبدأ القائل بأنه من الأفضل أن يقال ما قل ودل عن هذا العمل المؤسف .

ولو أن ادوارد المعترف Edward the Confessor (١٠١٦) أنجب ابنا ما دارت رحى معركة هيستنجز . وكان ادوارد هذا ابنا لايشليرد الثانى Ethelred II ، والمعروف الى حد ما بشكل غير دقيق

باسم ايثلرد غير المستعد Ethelred the Unready ، وكان متزوجا من اما Emma . وعندما مات ايثلرد سنة ١٠١٦ م ، جاء كانوت والفريد ابنا ايثلرد من اما ، الى نورماندى طلبا للحماية ، حيث وافق دوقها على حمايتها . وفى سنة ١٠٤١ م استدعى هارتو كانوت Hartho Canute ابن اما من زوجها كانوت أخاه غير الشقيق ادوارد ، الذى اعتلى العرش فى العام التالى . ويبدو أن ذلك حدث بموافقة كل من الدانمركيين Danes الذين استوطنوا بريطانيا والايالات الأنجلو - سكسون . وترغم هؤلاء جميعا جودوين Godwin إيرل وسكس Earl of Wessex الذى تزوجت ابنته ايديث Edith من ادوارد . بيد أن ادوارد ، ولسوء طالع بلاده ، لم ينجب ابنا ، وكان كلما كبر فى السن زاد الاهتمام فى انجلترا وفى نورماندى بشأن من سيخلفه على العرش .

وهناك عدد من الظروف أقحمت النورمان فى مشكلة خلافة العرش الانجليزى . ولا يوجد طرف بذاته فرض نفسه ، بيد أن تجمعها معا جعل لها جميعا تأثيرا كبيرا ، على الأقل على نورماندى . من ذلك ما يتعلق بحقيقة أن اما والدة ادوارد ، كانت أختا لريتشارد الثانى دوق نورماندى ، وهى فى الوقت نفسه عمه وليم الفاتح . والأكثر أهمية أن ادوارد كان قد قضى فترة صباه وشبابه من سنة ١٠١٦ م الى سنة ١٠٤١ م ، فى المنفى فى نورماندى ، إبان فترة حكم كانوت الدانمركى وأرلاده فى انجلترا . ولقد شب ادوارد نورماندى فى أساليب تعامله أكثر من كونه أنجلو سكسونيا ، وأشد تشبها فى سلوكه بهؤلاء « الأجانب » ، وعندما صار ادوارد ملكا سنة ١٠٤٢ م ذهب الى انجلترا عدد كبير من النورمان أكثر من ذى قبل ، وبعضهم عمل فى البلاط الملكى فى وظائف الكتبة والخدام ، والبعض الآخر أساقفة ورؤساء أديرة . وكان روبرت من جوميج Robert of Jumieges أسقفا لمدينة لندن سنة ١٠٤٤ م ، ثم رئيسا لأساقفة كانتربرى Canterbury سنة ١٠٥١ م .

واتضح أن سنة ١٠٥١ م كانت حاسمة بالنسبة لمسألة من سيخلف ادوارد على العرش الانجليزى . وإذا كان لدى ادوارد المعترف أى أمل فى اعتلاء وليم للعرش عن طريق الوراثة ، فليس هناك دليل صريح على وجود هذا الأمل قبل تلك السنة . فإبان سنة ١٠٥١ م اشتدت حدة الخلاف المتزايد بين ادوارد والاييرل جودوين إذ اتهم ادوارد أخاه ألفريد . وكانت نتيجة ذلك أن أجبر ادوارد جودوين على الذهاب الى المنفى . بل إن ادوارد قام بارسال زوجته اديث Edith ، ابنه جودوين الى دير لراهبات . وفى تلك الفترة لم يكن لأتباع جودوين أى حول أو قوة ، لذلك تصرف ادوارد بحرية أكثر لصالح النورمان . وتمت ترقية روبرت من جوميج ، فى تلك الفترة . بل أن هناك بعض الآراء القائلة بذهاب وليم الى انجلترا

في زيارة سنة ١٠٥١ م ، ويقبل العلماء هذا الرأي بصفة عامة ، ويقولون أنه سواء زار وليم لندن أو لم يزرها . فمن المحتمل أن ادوارد أعطاه وعدا على نحو ما باعثلاء العرش .

أما عن كيفية عودة جودوين من المنفى سنة ١٠٥٢ م فما زال هذا الموضوع مثار خلاف . ومن الواضح أن جودوين وادوارد توصلا الى نوع من التسوية ، بيد أن طبيعة هذه التسوية ما زال يكتنفها بعض الغموض . ففي ذلك الحين هرب بعض النورمان من انجلترا أو طردوا منها ، ومن بينهم روبرت من جوميج ، وشغل ستيجاند Stigand السكسوني مكانه في كانتربري . وأعاد ادوارد زوجته ايديث Edith ثانية الى قصره ، ولابد أن هذا يشير الى حدوث خصام كامل مع نورماندى ونهاية لكل آمال وليم التي كان يمني نفسه بها للحصول على العرش . ثم بعد ذلك بسنوات قلائل سواء بناء على أوامر ادوارد المعترف أو بأذنه ، أعاد ادوارد ابن آدموند ايرنسايد (ابن ايثلين الثاني) من المنفى ، ولكونه حفيدا لا يثير الثاني كان له الحق في العرش وفقا لقانون الوراثة الذي لا غموض فيه .

ومع ذلك بدا أن ادوارد المعترف ظل على علاقات ودية مع وليم . ويحكى وليم بواتيه وكذلك ما دون في قطعة القماش المطرزة أن ادوارد أرسل الايرل هارولد بن جودوين الى نورماندى لكي يؤكد الوعد الخاص باعثلاء العرش . ووفقا لمهذين المصدرين ، وعد هارولد في هذه الزيارة باستغلال نفوذه لعرض مسألة خلافة وليم للعرش في حالة وفاة ادوارد ، بل انه وافق على أن يقدم للدوق قلعه في دوفر Dover والقلاع الأخرى التي يريد الدوق تشييدها . ولا شك أن النورمان كانوا مقتنعين بالكامل أن هارولد قدم تلك الوعود ، وذلك ما أكد عليه أحد المؤرخين المحدثين على الأقل (٢) .

غير أن العلماء الآخرين وكتاب الحوليات الانجليز أقل اقتناعا بذلك . وهم يوافقون على أن هارولد وجد نفسه في بحر المانش حوالى سنة ١٠٦٤م ، اما في رحلة صيد واما في سفارة الى وليم (وكان المعترف قد أرسله من قبل في سفارة الى الشعب الفلمنكي Flanders) . ويوافقون على سفينته جنحت ، ووقع في قبضة الكونت جوى من بونتيو Guy of Ponthieu الذي قام بتسليم هارولد الى وليم سيده الاقطاعي الأعلى ، وحصل منه على مكافأة ، والتزم هؤلاء الكتاب الصمت بخصوص أية وعود قدمها هارولد الى وليم سواء كانت تفسر ذهابه الى نورماندى أو أن وليم أجبره على تقديم تلك التعهدات قبل السماح له بالعودة الى انجلترا .

وهناك اعتبار آخر بمطالبة وليم بالعرش الانجليزى . ذلك هو طموح وليم وقوته . ان انسانا أقل طموحا لن يطالب بمثل هذا الحق ، كما أن

شخصا أقل قوة لن يمنى نفسه بالأمل فى تحقيق هذا المطلب . وكان
وليم يدرك ادراكا كاملا منذ أن كان صبيا حقيقة أنه الابن الوحيد لروبرت
دوق نورماندى ، وأنه ابن غير شرعى ، فان عليه أن يكون طموحا وحذرا ،
اذ كن يأمل فى أن يرث الدوقية . وفى سنة ١٠٣٥ م ، عندما مات روبرت
فى تبتيه ، عند عودته من زيارة الأراضى المقدسة ، كان على وليم أن
يضاعف جهده ليكون طموحا وحذرا . ولم يكن وليم مجرد ابن غير
شرعى ، وانما كان قاصرا أيضا ، اذ لم يكن قد تجاوز السابعة أو الثامنة
من عمره . بيد أن سيده الاقطاعى الأعلى ، هنرى الأول ملك فرنسا ،
ساعده فى موقعة قل - از - دون Val-ès-Dune سنة ١٠٤٧ م ، وأنقذه
دوقيته من أتباعه الذين ثاروا ضده . وربما أخذ هنرى الأول على عاتقه
مهمة مساعدة وليم لأن والد وليم كان قد وقف بجواره وقفة الصديق
عندما طردته باريس . ولم يدع وليم من ناحيته فرصة تمر دون ابداء
مشاعر الاعتراف بالجميل . ومع ذلك ففى سنة ١٥٠٧ م هزم وليم الملك
هنرى نفسه فى موقعة فارافيل Veraville وصار مركزه قويا بعدها
الى الحد الذى جعله يتجاهل أية شخصية فى باريس .

وبحلول سنة ١٠٥٧ م كان وليم قد عمل على تدعيم مركزه فى داخل
نورماندى وفى فرنسا الى الحد الذى جعله يتطلع الى امتلاك أراضى أخرى.
بعيدة . وكانت تحركاته تجاه تقوية مركزه ، بعد أن عمل على تأمين دوقيته
أن تزوج من ماتيلدا Matilda ابنة بلدوين الخامس كونت الفلمنكيين .
وكان زواجه من تلك الفتاة على الرغم من الانذار الذى أصدره البابا ليو
التاسع اشارة الى ارادة وليم الحديدية ، وعلى الرغم من أنه كان رجلا
متدينا الى حد كبير - وفقا لما ذكره أحد كتاب الحوليات ، « كان دمثا مع
الصالحين من الرجال الذين أحبوا الله » - فانه لا يطيق أى تدخل من قبل
رجال الكنيسة اذا ما حاولوا التدخل فى شئونه ، ولا نعرف الأسباب
الدقيقة التى دفعت البابا ليو التاسع الى عدم الموافقة على الزواج . ففى
العصور الوسطى كانت القرابة هى القاعدة المألوفة ، التى نالت موافقة
الجميع بشأن الزواج ، بيد أنه فى حالة وليم وماتيلدا فان ذلك لم يتم .
ومن المحتمل أن يكون الملك هنرى الأول هو الذى طالب من البابا ليو
التاسع منع الزواج خشية أن يعمل التحالف بين وليم والفلاندر القائم
على الزواج على زيادة قوة تابعه الاقطاعى . وفى سنة ١٠٥٩ م أى بعد
زواج وليم وماتيلدا بحوالى ثمانى أو تسع سنوات ، سحبت البابوية
اعتراضاتها ، وباركت الزواج ، وان كانت قد طلبت من الزوج والزوجة
بناء كنيستين كبيرتين فى مدينة كين Caen لكل منهما دير للتكفير عن
خطيئتهما . وعلى الرغم من أن الرجل الفرنسى المعاصر ، ربما فكر مليا
فى الأسباب التى دفعت البابا الى الاعتراض على الزواج ، فانه ما زال

يعتبر عن امتنانه له بسبب الديرين الفخمين ، دير الرجال (القديس ايتين St. Etienne) ودير النساء (الثالث La Trinite) اللذين يضيفان التشريف على مدينة كين Coen وشعر الجميع بالارتياح اذ رأوا أنه بعد تلك المتاعب استطاع وليم الظفر والاحتفاظ بماتيلدا كزوجة له ، ولقد ظل طوال حياته متعلقا بها ، رغم أن الاخلاص في العلاقات الزوجية لم يكن أمرا تقليديا عند السواد الأعظم لخلفائه في العصور الوسطى .

ولم تتوقف جهود وليم في العمل على زيادة قوة مركزه بزواجه من ابنة كونت فلاندر . ولما كان وليم واثقا من الموقف الحيادي الودى من جهة صهره فقد استولى على أراضي مين Maine سنة ١٠٦٣ م وهو كسب ساعده على حماية حدوده الجنوبية من طموحات كونت أنجو Anjou ويرى بعض العلماء أن وليم حاول الحصول على موافقة البلاط الامبراطورى الجرماني على فكرة امتلاكه لانجلترا ، بيد أن هذا الأمر مشكوك فيه . اذ لابد أنه كان على علم بأن المانيا ابان فترة النزاع الحربى التى أعقبت موت هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ م ، كانت غير قادرة على ابداء موافقة أو الاعتراض ، بشكل فعال على قراراته ومن ثم استطاع أن يتحمل تجاهل فيليب الأول Philip 1 اذ كان ملك فرنسا الجديد قاصرا ، وأكثر من هذا لم يكن من تولى الوصاية على عرشه سوى صهر وليم ، كونت فلاندر . وفى سنة ١٠٦٠ م مات كونت أنجو تاركا ذلك الاقليم فى حالة الاضطرابات العامة .

ويبدو أن الشخص الأوحده الذى حصل وليم على موافقته على غزو انجلترا كان البابا ، وان اهتم مستشار وليم الدبنى لانفران Lanfranc بذلك أكثر من وليم نفسه . وبعد تجربة وليم مع الأوامر البابوية ، فلا بد أنه كان مقتنعا بأن البابوية لا تستطيع أن تفعل شيئا يساعده على تنفيذ مشروعه أو يعيقه . ومن المحتمل أن لانفران أكد له أهمية الحصول على موافقة البابوية . وكان ستيجاند Stigand المحزوم كنسيا لا يزال يتربع على عرش رئاسة الأساقفة فى كانتربرى ، الذى كان يشغله روبرت من جوميج ، وساعد على ذلك على اعطاء البابا دافعا ، دوق نورماندى ، وأنه ابن غير شرعى ، فان عليه أن يكون طموحا وحذرا ، من القماش حملت على عمودين ضمن اللافعات التى أمر بحملها اذ ان تقدم قواته لمحاربة هارولد فى هيستنجز . وفى مقابل موافقة البابا كان على وليم أن يعزل ستيجاند ، وهو الشيء الذى فعله سنة ١٠٧٧ م ، عندما عين مستشاره لانفران مكانه . على أن البابا طلب فيما بعد أن يكون وليم تابعه الاقطاعى فى انجلترا ، الا أن وليم انزعج بشدة من هذا الطلب .

ومن بين ثلاثة طالبوا بأحقيتهم لعرش انجلترا عندما مات ادوارد المعترف ، كان وليم الوحيد الذى نجح فى تحقيق دعواه على الرغم من

أن هارولد بن جودوين استطاع عرض الحجة المقنعة الأقوى . ففي سنة ١٠٥٣ م كان قد أصبح إيرلا لمقاطعة وسكس Earl of Wessex ومنذ وفاة والده وحتى ذلك الحين حقق لنفسه شهرة بفضل مآثره الحربية في ويلز Wales . وفي عصر كان لابد أن يكون الملك شخصية مقاتلة قبل أى اعتبارات أخرى ، فان شجاعة هارولد الحربية عملت على تزكيته لاعتلاء العرش مادام لم يظهر أحد أكثر منه مقدرة على مقاومة طموحات « مغامر أجنبي » يسعى لاعتلاء العرش . لذلك لابد أن ادوارد المعترف فكر وهو على فراش الموت ، واختار هارولد ليكون خليفة له . ولعدة سنوات أسند ادوارد الى هارولد مسئولية حفظ سلام المملكة فى الوقت الذى كرس كل جهوده لبناء دير وستمنستر Westminster ووفقا لما أوردته المؤرخ فلورانس من ورسست Florence of Worcestre .

كان هارولد « الملك الثانى فى المملكة » ابان السنوات الأخيرة فى عهد ادوارد الثانى - وأصبح ملكا بصفة رسمية فى السادس من يناير فى اليوم التالى على وفاة ادوارد وتم تنويجه فى الكنيسة الكبرى فى وستمنستر . وتبع التأكيد الجماعى فى المجلس الأنجلو - سكسونى المتكون من كبار الكهنة ورجال الدولة . وتصادف أن كان كثير من أعضاء ذلك المجلس فى لندن وقت الاحتفال بافتتاح دير وستمنستر .

على أن الشخصية السكسونية المهمة التى تصدت لاعتلاء هارولد للعرش لم تكن سوى أخيه توستنج Tosting . ويبدو أن توستنج كان أصغر من هارولد بقليل ، وكان رجلا محنكا ، ومقربا من ادوارد المعترف ، ومنذ سنة ١٠٥٥ م أصبح حاكما لاقليم نورثمبريا Northumbria وهو أكبر الأقاليم الانجليزية ، وربما أكثرها أهمية ولو قدر له أن يظل فى منصبه هذا حتى سنة ١٠٦٦ م لاتخذ التاريخ الانجليزى مسارا آخر اذ ربما فضله ادوارد على شقيقه هارولد . غير أن أتباع توستنج الاقطاعيين ثاروا على حكمه القاسى ، وأجبروه على الذهاب الى المنفى . وفى ذلك الحين طالب الملك ادوارد من هارولد الاسراع بمساعدة أخيه ، ولسنا نعرف كيف ساعده ، وعلى ما يبدو فانه لم يجن سوى الكراهية المريرة التى كان يكنها توستنج له .

ونظرا لأن هارولد تزوج من ابنة حاكم نورثومبريا فيما بعد ، فللمرء أن يخامره شعور بالشك فى أن هارولد سعى الى عرقلة عودة توستنج الى نورثومبريا أكثر من محاولة اعادته اليها سريعا . ومع اختفاء توستنج تزايدت طموحات هارولد فى وراثة العرش ، وكان فى استطاعته الاعتماد على مساعدة أخويه الصغيرين جايرث Gyrrth وليوفوين

Leofwine
East Anglia
، وكان جايث حاكما لاقليم شرق انجليا
أما ليوفين فكان حاكما لمنطقة تشيل لندن ،
Hartford وEssex وهارتفورد
والمناطق الريفية في اسكس
وشمال شرق مدينة بكنجهام Buckingham وكذلك سوري
Kent وكننت Kent في الجنوب .

وعندما وجد توسنتج نفسه مضطرا الى ترك انجلترا ، توجه الى
الفلاندر اذ كان كونتها شقيقا (والداه) . لزواجه . وفيما بعد ، بدأ
مهاجمة الساحل الشرقي لانجلترا بمساعدة المرتزقة الفلمنكيين وبعض
الانجليز ، الذين قد استمالهم الى جانبه . وانضم اليه كوبسي Copsi
أحد أصدقائه ابان وجوده في نورثومبريا Northumbria
وكان يقود سبع عشرة سفينة لمساعدته في هجومه ، بيد أن محاولتهم
جميعا منيت بالفشل الذريع . وعندما أبدى حاكما ميركيا Mercia
ونورثومبريا مقدرتهما على دحر المغيرين ، تغلّى معظم رجال توسنتج
وسفنه عنه ، وعندئذ لاذ بالفرار الى اسكتلندا . وهنا التقت آماته مع
آمال هيرالد هاردرادا Herald Hardrada ملك النرويج الذي
خامرتة الرغبة في أن يكون مطالبا ثالثا بعرش انجلترا .

وكان هيرالد هاردرادا أحد المغامرين الفيكنج في ذلك العصر ، ومن
المحتمل أنه كان أشهر المحاربين في عهده . وفي فترة شبابه ترك بلاد
النرويج وذهب الى روسيا حيث حققت شجاعته الحربية احترام
ياروسلاف الحكيم Yarolsar the wise له ، والظفر بيد ابنته
أيضا . ثم رحل الى القسطنطينية وعمل هناك قائدا للحرس الفارانجي
Varangian Guard لعدة سنوات - وفي سنة ١٠٤٧ م عاد الى
النرويج كمملك ، أما في سنة ١٠٦٦ م فطالب بعرش ادوارد بناء على
معاهدة كان قد عقدها هارث كانت Hartha Canute مع ماجنوس
Magnus ملك النرويج أحد أسلافه .

وبعد أن سبق السيف العذل أدرك هارولد خطورة التهديد من
الشمال ، فعرض هارولد على توسنتج اقليم نورثمبريا كمحاولة متأخرة
لابعاده عن هاردرادا . وعندما سأل توسنتج عن نصيب هاردرادا في أية
نسوية لم يكن جوابه سوى « سبعة أقدام من الأرض ، وربما أكثر ، اذ انه
رجل طويل القامة » . ورفض توسنتج عرض هارولد بأذراء .

ولم يحدث من قبل أن غزا انجلترا جيش من الشمال مثل
الجيش الذي قاده هاردرادا اذ كان جيشا قويا وشجاعا ، ومدربا تدريباً
جيداً .

وعندما وصل هاردرادا الى مصب نهر تاين Tyne انضم اليه
توستنج وأصدقائه ، وتجاوز تعداد أسطوله ثلاثمائة سفينة عندما اتجه
من بيرجن . Bergen عبر شيتلاند Shetlands وأوركنز
Orkneys . وفي أوائل سبتمبر ، اتجه هاردرادا ، وتوستنج جنوبا ،
وهاجما أثناء مرورهما شاطيء يوركشير Yorkshire واستمرا الى
أن وصلا الى نهر هنبر Hunber وبحرا عبر هذا النهر حتى وصلا
الى رانده أيوز Ouse الى أن وصلا الى ريكال Riccall .
وفي العشرين من سبتمبر ، وعلى بعد حوالي ميلين جنوب يورك York
عند بوابة فولكفورد Gate Fulkford هزم الجيش الانجليزى
الذى كان تحت قيادة كل من حاكم ميركيا Mercia ونورثمبريا .
وكتب أحد المؤرخين أن الانجليز ، « لاذوا بالفرار بعد أن تشتت شملهم ،
أما عن الذين غرقوا فى النهر (أوز Ouse) ، فقد فاقت أعدادهم
أعداد الذين قتلوا فى المعركة » . وتقدم هاردرادا الى يورك York
التي استسلمت ، وأقام معسكره على بعد تسعة أميال من المدينة عند جسر
ستامفورد Stamford Bridge فى انتظار وصول الرهائن
الذين وعدت بهم المناطق الريفية الشمالية northern Shires
بانجلترا .

وفى الوقت نفسه كان هارولد مشغولا بتدعيم أركان عرشه
المنرنج . ففي ابريل سافر شمالا الى يورك حيث تزوج من ايلد جيث
Ealdgyth شقيقة كل من ادوين Edwin حاكم ميركيا
Mercia ، وموكار Mocar حاكم نورثمبريا ، كخطوة
مقصودة ليتأكد له تعاون هذين الحاكمين الشماليين معه . وشهد شهر
مايو انشغال توستنج بالآغارات على امتداد الشاطيء الجنوبى الشرقى ،
وهى الآغارات التى خشى توستنج من أنها ليست سوى غزو تمهيدى
يمارسه وليم دوق نورماندى ، الذى قد أيد توستنج من قبل . وما أن تم
رد توستنج شمالا ، حتى عاد هارولد الى لندن ليبدأ استعداداته بكل جد
واجتهاد للتصدى لقدوم وليم . ولم يكن لدى هارولد أدنى شك فى
نوايا وليم ، اذ ان وليم كان قد اتهمه بالحنث باليمين عندما علم بأن
هارولد تسلم التاج ، وهدد بأنه فى استطاعته الذهاب الى انجلترا بنفسه
لحرمان هارولد مما امتلكه بشكل غير قانونى .

وليس معروفا عن استعدادات هارولد سوى استدعائه للقوات
الشعبية ، فى فصل الصيف لحماية سواحل سسكس Sussex
وكننت kent اللتين تقعان فى مواجهة نورماندى . وتولى بنفسه
قيادة أسطول السكسون الذى كان موجودا فى جزيرة ويت

Isle of Wight . وفى الثامن من سبتمبر قام بتسريح القوات الشعبية ، ثم حرك سفنه تجاه الشرق فى طريقها الى لندن . وليس معروفا السبب الذى دفعه لاتخاذ تلك الخطوات فى هذا الوقت على وجه التحديد . وربما كان ذلك نتيجة لحالتين . أولا : احتمال انقضاء مدة الشهرين المطلوبة لبقاء القوات الشعبية فى الخدمة العسكرية ، وأن أموالهم ومؤثمت قد نفدت . وكتب أحد المؤرخين : « لم يكن فى استطاعة أى شخص إجبارهم على البقاء أكثر من ذلك » . ثانيا : ان الرياح التى كانت تهب من الشمال ابان شهر أغسطس التى جعلت الرحلة البحرية من نورماندى مستحيلة لم تستمر حتى سبتمبر فحسب ، وإنما اشتدت حتى صارت عاصفة هوجاء . (وفقد هارولد على الساحل الانجليزى ووليم فى نورماندى سفنا فى تلك العاصفة الهوجاء) . ومع هبوب الرياح يوما بعد يوم ، فانها قللت من خطر غزو بريطانيا ، بالاضافة الى أن اقتراب فصل الخريف ، والطقس الردىء عملا على تناقص احتمال غزو وليم لانجلترا . كما أنه كان من الصعب على وليم أن يهاجم بلدا معاديا حتى لو كان ذلك فى فصل الصيف . والواقع أنه يمكن تلمس العذر لهارولد لاعتقاده أن وليم لن يهاجم بلدا أجنبيا فى حجم انجلترا بمصادرها الكبيرة من القوى البشرية والثروة .

ولم يكده هارولد يصل الى لندن حتى علم أن هاردرادا قد أنزل قواته فى الشمال وهزم الحكام الانجليز فى موقعة فولفورد Fulford (٢٠ سبتمبر) . غير أن هارولد لم يضيع وقتا . اذ أسرع تجاه الشمال مصطحبا معه أقاربه ، وكل من استطاع تجنبه من قوات المقاومة الشعبية وهو فى طريقه ، كان هارولد معروفا بالتهور ، بيد أن خبرته فى محاربة أهالى مقاطعة ويلز لابد أنها علمته عنصر المفاجأة . وربما كان عنصر المفاجأة هو الذى حقق له نتيجة حاسمة عندما انقض على قوات هاردرادا فى موقعة جسر ستامفورد Stamford Bridge فى الخامس والعشرين من سبتمبر . غير أن المؤرخين لم يذكروا سوى الخسائر الفادحة فى الأرواح التى منيت بها قوات هاردرادا وتوستنج فى تلك المعركة . اذ لم يبق سوى عشرين سفينة لنقل المقاتلين من الترويج ممن قدر لهم البقاء على قيد الحياة - أكثر من ثلاثمائة سفينة أتت بهم - وبعد ذلك بخمسين عاما ظلت أكوام ضخمة من عظام الموتى تشير الى تلك المعركة ، ونصب تذكارية للأعداد الهائلة التى سقطت من الجانبين » .

كانت موقعة جسر ستامفورد Stamford Bridge أسعد أوقات هارولد ، بيد أنه لم يكن لديه وقت ليستمتع بها . اذ بينما كان جالسا فى وليمة أقامها احتفالا بانتصاره ، أبلغه رسول بخبر وصول

وليم الى سسكس Sussex وذلك لأن الرياح التي كانت تهب من الشمال لعدة أسابيع غيرت اتجاهها أخيرا ، وهبت من الجنوب ، وبذلك استطاع وليم نقل قواته الى الشاطئ البريطاني . ولم يكن وليم شخصا مغامرا ، وإنما كان واثقا من جيشه . وفوق ذلك ، فإنه كان يعلم أن على هارولد أن يتصدى لجيشين من الغزاة جيش وليم من الجنوب ، وجيش هاردرادا من الشمال . وعلى ذلك ففي السابع والعشرين من سبتمبر ، أى بعد مرور يومين على معركة جسر ستامفورد غادر وليم نورماندى . وبالطبع لم يكن لديه علم بما كان قد حدث فى الشمال .

ويتضح من الاستعدادات التي أعدها وليم لهذه الغزوة أنه لم يكن مغامرا . إذ كان قد جمع جيشا بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وهو جيش يصعب على ملوك ذلك العصر جمعه . وهذا العدد يشمل عددا كبيرا من غير المقاتلين - الذين يقومون بإعداد الطعام ، والملاحة ، وإقامة المعسكرات ، وإعداد الاستحكامات . وعلى الرغم من أن وليم كان أقوى السادة الاقطاعيين فى فرنسا ، ورغم وفرة ثرائه وفقا لمستويات العصر ، فإن موارده لم تكن تسمح له على الإطلاق بإعداد مثل هذا الجيش . لذلك جاء الجزء الأكبر من رجاله والمبالغ المطلوبة للغزو من أتباعه الاقطاعيين ، ومن أصدقائه ، ومن الرجال الذين آمنوا بعدالة قضيته ، والذين أبدوا رغبتهم فى ربط مصيرهم بمصيره . واتخذت عملية الغزو التي خطط لها طبيعة الخطة الجريئة المشتركة ، إذ أن أتباعه الاقطاعيين لم يكونوا ملزمين بمساعدته فى غزو بلد أجنبي لم يصدر منه تهديد لنورماندى من ناحية ، ولأن العرف الاقطاعي لم يكن قد تبلور بعد الى الحد الذى يحتم على الأتباع الاقطاعيين تقديم عدد محدد من الفرسان لفترة معينة من الزمن من ناحية ثانية ، وإنما انظم أتباع وليم الاقطاعيون اليه بعد أن وعدهم بنصيبهم فى الأراضى والغنيمة .

وفيما يتعلق بحجم القوات التي قدمها أتباع وليم من الاقطاعيين ، النورمان فى جيشه ، فإن ذلك مازال موضوعا للتخمين ، إذ حاول بعض أصدقائه نصيحته بالعدول عن عملية اعتبروها مجازفة ، ولابد أن حكمة هؤلاء الأصدقاء دفعتهم الى الاحتفاظ بعدد من قواتهم فى بلدهم . ومع ذلك فإن قلب جيش وليم - الفرسان الذين تحملوا الوطأة العظمى للمعركة ، وأحرزوا النصر له - كان من النورمان ، ولذلك فنستطيع أن نفترض أن الاستجابة فى نورماندى لمشروع غزو انجلترا كانت طيبة . وأسهم فى تلك الحملة الكثير من الفرسان من اقليم بريتانى Brittany وهى بلد فقير بمعنى الكلمة . ولم يكن بها موارد تفى بطموحات شبابها . لذلك كانوا على استعداد لتخطى الصعاب من أجل تحقيق مستقبل أفضل

فى انجلترا . وربما اشتركت أعداد قليلة من الفرسان من اقليم
الفلاندر ، ومن اقليم مين Maine ومن المحتمل اشتراك قلة من
جنوب ايطاليا ، حيث استقر هناك كثير من النورمان فى أوائل ذلك
القرن . ومع ذلك أطلق أحد المؤرخين العنان للمبالغة فى التعبير عندما
كتب أن وليم تلقى المساعدة ، « من كل أنحاء فرنسا » .

كان معظم رجال وليم من الجنود المشاة ، وتقع عليه مسئولية
تجنيدهم فى المقام الأول . وعلى الرغم من أن أتباع وليم الاقطاعيين ،
أمدوه بكل تأكيد بأعداد قليلة من الرماة وحملة الرماح ، فمن المرجح أن
وليم قد جمع بنفسه معظم القوات المقاتلة من المرتزقة الذين خاضوا معركة
هيستنجز ولم يكلفه ذلك كثيرا ، ففى النصف الثانى من القرن
الحادى عشر كان ينظر الى جنود المشاة على أنهم وقود المعركة . وكانت
هذه النظرة صحيحة فى القارة الأوروبية خاصة . فى حين كان الفارس فى
استطاعته حسم المعركة لصالحه تقريبا . وكان بعض هؤلاء الرجال من
الجنود غير المحترفين ، والبعض الآخر كان ببساطة بلا عمل - من
المشردين ، وقطاع الطرق ، والمجردين من القيم الأخلاقية - والذين اهتموا
بالحصول على الغنيمة أكثر من اهتمامهم بالعمل . وقد أمدتهم وليم
بالأسلحة . وتصور لوحة بايو المنسوجة Bayeux Tapestry
أكواما من الحراب ، والأقواس ، والسهام ، والمدى التى أعدت ليستعملها
المشاة فى الغزو .

ولم يلق وليم متاعب كثيرة من جنوده من المشاة ، مما يدل على
اصراره الشديد على الانضباط والنظام . كان من الصعب اجبار هؤلاء
الجنود الرجال على الخضوع للنظام فى أوقات الهدوء ، كما كانوا أول
من يلوذ بالفرار بمجرد شعورهم بأن المعركة تسير على غير ما يرام .
وما داموا يعيشون على ما يحصلون عليه من الغنائم ، وما يدفع لهم ،
فانهم كانوا على استعداد لاحتراق أى مدينة وان لم يأمر بذلك قائدهم ،
إذا كان ذلك يحقق لهم سرعة الحصول على الغنائم . ونظرا لشهرة وليم
فى كسب المعارك والاستيلاء على القلاع والقضاء التام على مدن وقرى
الأعداء فمن الممكن القول بأن المرتزقة كانوا حريصين على الخدمة
العسكرية معه .

على أن المشكلة الجديدة التى واجهت وليم ابان الاستعداد لحملته
العسكرية كانت البحث عن وسيلة لنقل جيشه عبر القناة الانجليزية
(بحر المانش) الى انجلترا اذ ان الحملات الحربية البحرية ، لم تكن
شائعة فى ذلك العصر ، باستثناء الفايكنج Vikings وسلالتهم من
الاسكندنافيين ، فلهم تاريخهم الطويل فى السفر بالبحر ، وفى حملاتهم

الحربية البحرية التى دارت رحاها على ظهور السفن ، وكان الحال كذلك فى بيزنطة حيث كان نقل القوات بحرا أمرا عاديا بالنسبة لهم . ولعدة قرون وجدت القسطنطينية أنه من السهل عليها أن تعزز قواعدها فى المناطق الجبلية ببلاد اليونان ، وفى آسيا الصغرى ، بل وحتى فى إيطاليا ، بحرا أكثر من استخدام الطرق البرية . بيد أن شعوب غرب أوروبا لم تألف ارتياد البحر بما فيهم النورمان أنفسهم الذين نسوا أساليب أجدادهم ، ومن حسن حظ وليم أنه بحلول النصف الثانى من القرن الحادى عشر كانت أوروبا تبدى ملامح ايجابية لانتعاش التجارة البحرية . ولولا تعرض انجلترا لغزو مشابه قامت به فرنسا فى القرن العاشر لما وجدت سفن لنقل القوات الغازية التى كانت تحت قيادة وليم .

واحتاج وليم الى سفن تكفى لنقل جيش بلغ تعداده حوالى عشرة آلاف مقاتل . وبالإضافة الى الرجال كان هناك ما يزيد على الفين من الخيول . هذا فضلا عن المواد اللازمة لبناء قلعتين أو ثلاث بمجرد الوصول فضلا عن الكميات الضخمة من الأسلحة والدروع ، والمواد التموينية التى يحتاج اليها الجيش قبل توغله فى انجلترا . ومازال عدد السفن التى استطاع وليم جمعها موضوع خلاف وجدل . ويقدر أحد المصادر المعاصرة هذا العدد بحوالى ألف وخمسمائة سفينة بينما يذكر مصدر آخر أن العدد أقل من خمسمائة سفينة . ومهما كان العدد الحقيقي لتلك السفن ، فقد حصل وليم على بعضها بالمصادرة ، والبعض من أتباعه الاقطاعيين ، هذا بالإضافة الى الأعداد التى قام رجاله بتشبيدها على شواطئ نورماندى . ومهما كان عدد السفن التى استطاع وليم جمعها ، فإن عبور القناة الانجليزية (بحر المانش) شكل العقبة الوحيدة الخطيرة أمام نجاح مشروعه .

وفى الثانى من أغسطس كان وليم مستعدا لعبور القناة الانجليزية . وعهد الى مجلس وصاية برياسة زوجته ماتيلدا Matilda بإدارة شئون نورماندى ، وتعاون معها روجر من بومونت Roger of Beaumont فى الوقت الذى جمع فيه جيشه حول مصب نهر الدايفز Dives ، وهناك انتظر ، ومرت الايام ، ثم الأسابيع ، والرياح تهب من الشمال . ولم يكن فى استطاعته عبور القناة الا بعد أن تغير الرياح اتجاهها ، أو توقف هبوبها كلية . بيد أن الرياح لم تفعل هذا أو ذاك . وتحدث وليم من بواتيه عن مشكلة الروح المعنوية التى يتحتم على وليم معالجتها حيث أن أسابيع الانتظار أصابت رجاله بمشاعر الملل والقلق . ومع ذلك اذا كان وليم قد لعن الطقس فان هناك الكثير ما جعله راضيا عما فعله الطقس معه اذ لم تكن

إصابة جنوده بمرض الدوسنتاريا كبيرة . وفى النهاية ثبت أن الطقس العاصف كان العامل الأكثر أهمية فى جعله ملكا على انجلترا . اذ لو أنه اتجه الى انجلترا قبل ظهور هاردرادا فى الشمال ، لهزمه هارولد الذى كان فى انتظاره .

وفى الثانى عشر من سبتمبر نقل وليم جيشه الى ساحل قاعدة جديدة على مصب نهر القديس فاليرى St. Valery . ولم يقدم المؤرخون تفسيراً لهذا العمل . وربما دفعت عاصفة هوجاء سفنه تجاه الشرق ، أو ربما قرر أن أقصر الطرق عبر القناة الانجليزية يقع عند مصب نهر سانت فاليرى حيث يقدم له مزايا أفضل من البقاء عند مصب نهر دايفز حتى لو كان الشاطئ المقابل ضيقا لايسمح بتحريك سفنه الحربية بحرية أكثر . على أن غرق بعض سفنه ابان تحركه يجعل احتمال شدة العاصفة الهوجاء هى التفسير الأرجح . ولا بد أنها كانت عاصفة شديدة لأنها أيضا أفقدت هارولد بعض السفن عبر القناة الانجليزية .

ومهما كانت المزايا التى حققتها القاعدة الجديدة فى سانت فاليرى فإن الرياح ظلت تهب من الشمال ، ولمدة أسبوعين آخرين استشاط وليم غضبا فى الوقت الذى كان فيه جيشه فى حالة انتظار . وعندما اشتد به اليأس أمر بإخراج رفات القديس فاليرى من الكنيسة وحملها فى موكب مهيب ، عبر شوارع المدينة . وأخيرا اتجهت الرياح صوب الجنوب فى السابع والعشرين من سبتمبر فأعطى وليم الأوامر بالعبور ، وفى منتصف الليل بدأ الأسطول الحربى فى التحرك ، وكانت سفينة الدوق فى الطليعة ، وعلى ساريتها مشكاة فيها مصباح . وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، الخميس الثامن والعشرين من سبتمبر نزل وليم وجيشه على الشاطئ الانجليزى عند خليج بفنسى Pevensey Bay . وفى اليوم التالى ، تحرك جيشه صوب هيستنجز Hastings على بعد أحد عشر ميلا الى الشرق . وهناك أقام حصنا - وربما أقام قلعة وبها حامية فى بفنسى - وقرر الانتظار (٣) .

وما أن بلغ هارولد نبأ انزال وليم قواته على الأراضى الانجليزية ، فى الثامن أو الثالث من أكتوبر ، حتى غادر يورك York وانطلق مسرعا قاطعا حوالى مائة وخمسين ميلا ، ووصل مدينة لندن فى السادس من أكتوبر ، حيث قضى الأيام التالية فى حشد ما استطاع حشده من الجنود . وربما كان لديه أمل فى انضمام حكام الأقاليم الشمالية اليه ، ومعهم قواتهم وجنودهم ، بعد الخسائر الفادحة التى تكبدوها فى موقعة

جيت فولفورد Fulford فان أمل هارولد كان في أحسن
الأحوال ضئيلا . ومن الأرجح أنه تأخر في لندن لكي يحذر رجاله في
وسكس Wessex في الوقت الذي أعطى أخويه جايرث Gyrrh
وليوفوين Leofwine فرصة لجمع رجالهما .

وفي الحادى عشر من أكتوبر اتجه هارولد بجيشه صوب هيستنتجز
التي تقع على بعد ثمانية وخمسين ميلا جنوب لندن ، وفي مساء الثالث
عشر من أكتوبر ، أقام معسكره على بعد سبعة أميال شمال غرب المدينة .
ولا شك أنه كان يأمل أن يؤدي تحركه السريع من يورك الى لندن الى أن
يأخذ وليم على حين غرة ، كما فعل مع الدانمركيين Danes في موقعة
جسر ستامفورد . وإذا صدق مؤرخ ورسستر Worcester Chronicler
حينما قال : « لم تكن نصف قوات هارولد قد احتشدت بعد » ، عندما
وصل الى هيستنتجز ، فانه لابد أن يكون قد اعتمد على ما يشبه عنصر
المفاجأة ، أو الحظ لتحقيق النصر .

وكما هو الحال مع وليم مازالت هناك أسئلة لا تجد جوابا عن حجم
ومكونات جيش هارولد . ومنها كم كان تعداد تلك القوات؟ لابد أن
جيش هارولد كان يقارب تعداد جيش وليم ، بيد أن من المستحيل القول
انه كان أكبر أو أقل بكثير من جيش وليم . ويحدد المؤرخون المحدثون
تعداد جيش هارولد بحوالى خمسة آلاف مقاتل ، على الرغم من أن المؤرخين
المعاصرين قد خفصوا هذا العدد الى حوالى ثلاثة آلاف مقاتل . وعلى أية
حال اتضح أن معركة هيستنتجز ، كانت عملية أصغر من معركة جسر
ستامفورد .

كان العنصر الرئيسى لجيش هارولد الذى ذهب الى هيستنتجز يتكون
من المحاربين المشاة الذين وعدهم بمنحهم اقطاعات ، وهؤلاء كانوا محاربين
محترفين من أتباعه وأتباع أخويه والاقطاعيين الاثرياء . وكان من الممكن
أن يعيش هؤلاء المحاربون مع الذين ينفقون عليهم ، أو في منازلهم ، أو
فى الأراضى التي تمنح لهم . وكانوا يمثلون حرسا شخصيا لسادتهم
الاقطاعيين بيد أنهم كانوا أيضا على استعداد لتكوين قوة جاهزة للقضاء
على ما يعكر صفو الأمن . ولم يكونوا يختلفون عن الأتباع الاقطاعيين
بالقارة الأوربية الا فى أمر واحد مهم - أنهم كانوا يحاربون مترجلين اذ
كانت خيولهم تستخدم وسيلة للانتقال فحسب .

وكانت طبقة الثين Thanes طبقة من المحاربين . وهم يمثلون
ملاك الأراضى الأكثر ثراء تقريبا ، ولديهم قواتهم الخاصة التي تتكون من

أفراد يعملو مستواهم بعض الشيء عن مستوى المزارعين الذين يشتركون في قوات المقاومة الشعبية fyrd . وفي زمن الحرب كانت طبقة الثين تتولى قيادة عمال المزارع المحلية تحت امرة حاكم الاقليم . ونظرا لأن الأحوال في انجلترا كانت أكثر استقرارا عن القارة الأوربية ، فانهم كرسوا وقتا أطول لإدارة شئون أراضيهم الزراعية ، والمساهمة في تصريف أعمال منطقتهم الريفية ، والمشاركة في محاكم المائة ، وجعلت تلك الظروف منهم مواطنين على قدر من تحمل المسؤولية وأهلا للثقة على الرغم من أنهم لم يكونوا على قدم المساواة في المقدرة القتالية مع الفرسان ، الذين انضموا الى الكونتات والأدواق الذين ساعدوا وليم في موقعة هيستنجز .

على أن الغالبية العظمى التي كونت جيش هارولد كانت من فئة سكان الريف الذين يعملون في الفلاحة . وفي فترة ما في القرون السابقة ، كان من واجب كل رجل قوى البنية أن يحمل السلاح ، كلما دعت الحاجة . غير أن التغيرات التي بدأت في عهد الفريد الكبير Alfred the Great حولت تدريجيا نظام قوات المقاومة الشعبية Fyrd الى جماعة من الجند منتقاء . وفي عهد إدوارد المعترف لم يتم سوى اختيار فرد واحد من بين كل خمسة أفراد للعمل في الخدمة العسكرية لفترة محدودة . وفي ذلك الحين أصبحت عادة أسرة المزارعين التي تشغل مساحة قدرها خمسة هايدات Five hides والهايد مائة وعشرون فدانا ، وهي مساحة تكفي من الناحية النظرية لأعالة أسرة زراعية واحدة - أن تقدم أحد أفرادها ، وأن تزوده بكل ما يحتاجه من سبل الاعاشة . ومن الممكن أن هؤلاء الفلاحين كانوا يختارون أقدر الأعضاء ليمثلهم اذا كان راغبا في ذلك . واذا لم يكن هناك أحد راغب في الخدمة العسكرية ، فإن عليهم أن يستأجروا أى شخص من خارج الأسرة ليتقدم للخدمة العسكرية .

وقد يدهش عصرنا الحديث النى يتمسك بالتخصص والتدريب لكيفية عمل أولئك الجند الجدد الذين افتقروا الى التجربة في ميدان القتال ، ولكن الفضائل التي كانت تعتمد عليها الغالبية آنذاك هي القوة العضلية ، والبراعة العقلية واليدوية ، وكذلك الشخصية . ومن المحتمل أن الجنود المشاة التابعين لوليم لم يكونوا أكثر اعدادا أو أكثر مهارة قتالية من جنود هارولد . وحيث ان الكثير منهم كانوا من المرتزقة ولم يكونوا يدافعوا عن وطنهم أو بلادهم ، فللمرء أن يتوقع أنهم لم يكونوا على مستوى السكسون Saxons . ومن الجدير بالذكر أن وليم عندما اعتلى عرش انجلترا لم يقيم بالغاء نظام قوات المقاومة الشعبية على الرغم من عدم وجود شبه

له فى نورماندى • وبالإضافة الى المحاكم الادارية والمؤسسات الانجلو سكسونية الأخرى التى أبقي عليها وليم ، فانه شعر أن نظام قوات المقاومة الشعبية له مزايا حقيقية • واتضح أنه على صواب عندما ساعدته قوات المقاومة الشعبية فى القضاء على ثورة سنة ١٠٧٥ م وبالطبع فان قوات المقاومة الشعبية هى التى ساعدت فى القضاء على الجيش النرويجى فى موقعة جسر ستامفورد •

ومن الحقائق المهمة فى تاريخ فن القتال التشابه الملحوظ فى الأسلحة وأساليب القتال بين كل من الطرفين المتقاتلين بل ان الرومان على صلفهم ، وهم الذين رفضوا لفترة طويلة تدريب الخيالة لاستخدامهم فى حروبهم ، وجدوا أن من الحكمة أن يطلبوا من حلفائهم ، أو من القوات المرتزقة تغطية احتياجاتهم عندما واجهوا يقاتل على ظهور الخيل • وفيما يتعلق بالأسلحة والدروع ، لم تشذ معركة هيستنجز عن ذلك • فأقوى محارب مدرب تدريباً جيداً فى كل من الجانبين المتقاتلين كان يلبس قميصاً ذا دروع من حلقات معدنية حديدية ويصل الى الكوعين والركبتين • وسماء الانجليز برنى byrnie وسماء الفرنسيون هوبرك haultberk واستخدم الجنود فى كل من البلدين غطاء للرأس والعنق أو خوذة مخروطية ، لها امتداد مدبب فى حافتها لحماية الأنف • وارتدى عدد قليل الطماق المدرع (كساء معدنى لحماية الساقين) (*) وبالنسبة للأسلحة فانهم كانوا يحملون حربة ، وسيقاً ، ورمحاً ، وبلطة ، ودبوساً معدنياً شائكاً لكسر الدروع وسيقاً ثقيلاً ذا نصلين حادين • ويحسوق أنفسهم بتروس تشبه فى شكلها الطائرات المصنوعة من الورق ، وكانت مغطاة بالجلد ومصنوعة من الحديد ، أو البرونز ، أو الخشب ومستديرة فى أعلاها • وإذا كانت التروس تحمل علامات مزخرفة فانها كانت تشير الى شخصية ما ، أو عائلة ما • وبالنسبة لأودو Odo أسقف مدينة بايو Bayeaux فيقال انه ظل يجرى هنا وهناك ، فى ميدان القتال أثناء معركة هيستنجز ، ولم يكن يحمل سيفاً أو بلطة ، وإنما هراوة ، اذ كان محرمًا على رجال الكنيسة اراقة الدماء •

وعلى الرغم من التشابه العام فى الأسلحة والدروع التى استخدمها وليسها المحاربون الانجليز والنورمان ، فان هناك نقطتى خلاف واضحتين تتطلبان التعليق • فالملاحظة الأولى الأكثر أهمية هى دور الحصان • اذ اعتاد الانجليز استخدام مطاياهم للوصول الى ميدان المعركة • وهناك يترجلون ويحاربون دون استخدام الخيول • أما النورمان فانهم مارسوا

(*) ما بين القوسين من عند المترجم •

الطريقة التي صارت شائعة فى القادة الأوربية ، وحاربوا وهم على ظهور الخيل . على أن القدرة الأكثر على الحركة والتحمل قابلتها ميزة أقل ، اذ ان خيولهم كانت تفتقر الى الدروع الواقية . فقد قتل الانجليز ثلاثة خيول كان وليم يمتطيها . أما الفرق الثانى المهم فهو استخدام السكسون للبلطة الحربية الدانمركية ذات المقبض الطويل . وهى السلاح الذى استخدمه الفايكنج ابان اغاراتهم التى قامت على السلب والنهب . وظلت تلك البلطة تثبت تفوقها كسلاح تدميرى ، اذا ما استخدمها سكسونى قوى ببراعة ضد فارس نورمانى ومطيته .

كان المشاة فى الجانب الانجليزى ، وكذلك الجانب النورماندى يحملون الأقواس والسهم ، بالإضافة الى السكين والخنجر . ويتحدث المؤرخون المعاصرون عن أناس استخدموا القوس والنشاب ، على الرغم من عدم ظهورهما فى لوحة بايو . ولقد أحضر بعض الجنود من المشاة أسلحتهم بمعرفتهم - اذ قاموا بصنعها - فى الوقت الذى تم تزويد الآخرين بها مثلما تصور اللوحة ومهما كان مصدر تلك الأسلحة فانها كانت تفتقر الى دقة التشكيل والتصنيع وهو ما ينطبق على كل مظاهر الحرب فى العصور الوسطى ابان القرن الحادى عشر - واذا كان جندى المشاة مخطوفا فاته كان يضع خوذة على رأسه ، أو يرتدى قميصا به دروع ، على الرغم من أن معظم المقاتلين اعتمدوا على الصدرة المصنوعة من الجلد التى غالبا ما كانت مبطنه ، لحمايتهم من السهم . وتفوق جيش وليم بوجود رماة للسهم أكثر من عدهم فى جيش هارولد وهى اضافة مهمة لصالح النورمان فى رأى بعض المحللين .

لقد دارت رحى معركة هيستنجز فى أرض قفراء نسيبا ، ويجدد المؤرخ الأنجلو سكسونى مكان المعركة بوجود « شجرة تفاح رمادية » ، فوق تل فى الهضاب التى تبعد حوالى ستة كيلومترات شمال مدينة هيستنجز . ولم تكن تلك المنطقة هى التى اختارها هارولد لاستخدام القوة لحسم الموقف بينه وبين وليم . وانما كانت المكان الذى توقف فيه فى مساء الثالث عشر من أكتوبر ومعهم رجاله بعد أن هرعوا من لندن الى هناك ، حيث وصلوا فى غاية الاجهاد والانهك . وربما قرروا الاستراحة فى تلك الليلة ومباغته معسكر وليم فى اليوم التالى . ورأى معظم المؤرخين أن هارولد لجأ الى الأسلوب نفسه الذى اتبعه مع النرويجيين فى موقعة جسر ستامفورد عندما أسرع تجاه وليم محاولا مباغتته . ومع ذلك فهناك احتمال أن اسراع هارولد تجاه الجنوب كان يهدف الى عدم تمكين وليم من تخريب الاقليم ، الذى كان به معظم اقطاعات هارولد . وربما قامت قوات

هارولد الاستطلاعية بتحذيره من التعداد الخطير لجيش وليم الذى كان فيما يرجع ينتظر وصول التعزيزات .

على أن الموقف الذى كان واضحا تماما هو عدم اتخاذ هارولد موقف الهجوم . بل ان حوليات الأنجلو سكسون تقول ان النورمان انقضوا فجأة على الانجلو قبل أن يستطيعوا من نومهم ، وان كان من الصعب تصديق ذلك . اذ كانت لهارولد قوات استطلاعية ، وأصدقاء عاشوا فى المنطقة . أمدهم بالمعلومات علاوة على أنه اذا كان وليم قد ظهر بطريقة لم يتوقعها أحد ، فكيف استطاع رجال هارولد أن يجدوا الوقت الذى يجمعون فيه جذوع الأشجار ، ويقطعون الأخشاب الثقيلة والسنيكة ، وأسوار حظائر الأغنام ، والأبواب الخشبية ، والموانع المادية المشابهة لكى يدعوا الحائط الواقعى الذى واجهوا به وليم وجيشه صباح الرابع عشر من أكتوبر ؟ وليس هناك مجال لتكرار موقف هارولد القوى . اذ كان يعسكر على قطعة أرض خالية من الأشجار فى غابة بالقرب من حافة قل عرضه ستئاة ياردة . واستفاد هارولد من وجود وديان ضيقة شديدة الانحدار على الجانبين . ويشرف من موقعه على سفوح التل الذى كان على جيش وليم أن يتسلقه .

ولم يذكر الكتاب المعاصرون شيئا عن الطريقة التى نظم بها هارولد رجاله خلف السور الواقى الذى شيده . ومن ناحية أخرى يبدو أن جيش وليم قسم نفسه الى الأقسام التقليدية ، القلب ويتكون من النورمان ، والميسرة وتتكون من البريتون Bretons ، والميمنة ويشار اليها ببساطة بالجناح الفرنسى . وكان بكل قسم من تلك الأقسام طليعة من الرماة وحملة الرماح ، ويتبعهم جنود من المشاة الثقيلى العدة ، ومعهم فرسان على ظهور الخيل فى المؤخرة .

وحوالى الساعة التاسعة صباحا دفع وليم طليعة جيشه تجاه سفح التل بقوة مفاجئة . وما أن وصل جنوده من المشاة الخفيفة الى موضع على التل شعروا أن سهامهم يمكن أن تكون لها فعالية ، حتى سدوا ضرباتهم . غير أن هذه السهام لم تحدث الا أضرارا بسيطة ، اذ كان العدو يختفى بقدر كبير خلف تروسه وتحصيناته الأخرى ، وبعد ذلك بقليل أمطرهم بقذائفهم . وفى ذلك الحين بدأ الانجليز يقابلون الهجوم بمثله ، وبكل شيء استطاعوا رميه أو قذفه - بالبلطات والرماح ، والأحجار المربوطة بالعصى ، والسهام - وفعلوا ذلك بحماية شديدة لدرجة أن البريتون وهم ميسرة جيش وليم تحولوا الى حالة من الفوضى ، وارتدوا على أعقابهم تجاه أسفل التل . على أن حالة الهلع التى أصابت البريتون شجعت بعض الانجليز على تعقبهم الى سفح التل على أمل إبادتهم ، وهم

يفرون فى غير نظام • غير أن وليم أدرك الطبيعة الخرجة للموقف ، فتحرك بسرعة بفرسانه للتصدى للانجليز لمنعهم من المطاردة • وهى مناورة لم تنقذ البريتون من الكارثة فحسب ، وانما أوقعت عددا كبيرا من الانجليز فى شرك لم يستطع أحد منهم الإفلات منه •

وهذه الحادثة هى إحدى التفاصيل القليلة عن المعركة التى وصفها المؤرخون ، على الرغم من أن القتال استمر لمدة ثمانى أو تسع ساعات ونعنى بذلك حتى الغسق ، وللقارىء أن يخمن ماذا حدث • ومن المحتمل أن المعركة اتخذت صفة العراك الصاحب - صراع عنيف بين جماعات وأفراد فى تلاحم دون أدنى نظام وبشكل عام - ودار الجزء الأكبر من المعركة على سفح التل أمام السور الواقى الذى عبره المحاربون السكسون ، وانقضوا ليطبقوا على العدو من تحتهم عند قاع سفح التل • وفى بداية تلك المعركة سقط أخو هارولد •

أما وليم فقد كان يقاتل بحماس شديد لدرجة أنه استبدل ثلاثة من الخيول بعد أن قتلوا من تحته • وفى إحدى مراحل القتال انطلقت صيحة أن الدوق قد قتل ، وهو تطور كان من الممكن أن ينهى مقاومة النورمان على وجه السرعة ، ونرى فى لوحه بايو وليم رافعا خوذته ، وينادى على وجاله ، بأنه مازال على قيد الحياة •

وذكر المؤرخون الفرنسيون مثل وليم من بواتيه William of Poitiers أن وليم استخدم التكتيك الحربى الخاص بالانسحاب المخادع ، وذلك فى محاولة لتفسير عمليات الانسحاب النهائية التى قام بها النورمان • ثم شن وليم هجوما مضادا تمخض عن نتائج مروعة بالنسبة للعدو عندما أساء الانجليز فهم الانسحاب ، واعتقدوا أنه هزيمة ، وتقدموا بعيدا جدا عن دفاعاتهم • وان كان بعض المحللين لا يوافقون على هذا الرأى • ودافعوا عن هارولد باعتباره محاربا محتكا للحد الذى لا يجعله يتعرض ثلاث مرات للخدعة الحربية نفسها ، ولا سيما أن الانجليز تمتعوا بموقف جيد بالنسبة لميدان المعركة ، من خلال سورهم الواقى • ويشك المحللون أيضا فى مقدرة وليم على تنفيذ هذه المناورة الصعبة • وقبل البعض الآخر كلمات بواتيه Poitiers بالمعنى الظاهرى ، وأصروا على أن الجيش الرومانى كان منظما ، لدرجة تسمح له بإجراء انسحاب مخادع • كما أن تقدم السكسون البطئ ، والحذر ، أمام السور الدفاعى الحصين ، قد أمد وليم وفرسانه بوقت كاف لإعادة تنظيم قواته من المشاة « التى كانت منسحبة » من أجل معاودة الهجوم •

وعندما أنهكت المعركة الجميع دون تحول حاسم ، ازداد وليم قلقا وترقبا ، وهو يرقب حمرة الغسق التى بدأت ترتسم فى السماء اذ أدرك أنه اذا لم يكسب المعركة قبل قدوم الليل ، فانه سيجد جيشه المنهك فى الصباح التالى فى مواجهة جيش من الانجليز المفعمين بالنشاط ابان الليل ويقال انه أصدر أمرا بشن هجوم عام أخير كتب له النجاح . اذ انهار السور الواقى وزاد الطين بلة ، أن سقط هارولد قتيلا (٤) . وبرغم ذلك لم يتوقف القتال . وعندما تقهر الانجليز وتفرقوا فى الغابة التى بدأ الظلام يخيم عليها ، استدار بعض المحاربين من أصحاب الاقطاعات وهاجموا النورمان الذين كانوا يطاردونهم وقتلوا عددا كبيرا من أشجع رجال وليم قبل أن يجبر العدو على الارتداد كلية . وفى النهاية ، كما عبر المؤرخ الأنجلو سكسونى تعبيرا مناسباً ودقيقاً « سيطر الفرنسيون على مكان المذبحة » (٥) .

حددت معركة هيستنجز مصير انجلترا الأنجلو - سكسونية ، اذ لم يعرف القادة الانجليز ماذا يفعلون على الفور ، ذلك لأن مقتل هارولد أفقدهم الرجل الوحيد الذى قبلوه عن طيب خاطر . وأعلن حاكم ميركيا Mercia وحاكم نورثومبريا ، وبعض رجال الكهنوت بما فيهم رئيس يورك ، موافقتهم على اختيار ايثلنج Aetheling ، وهو حفيد شقيق أو شقيقة ادوارد المعترف ، بيد أنهم فعلوا ذلك دون حماس ، ذلك لأن الشاب كان صغير السن ، ويفتقر للخبرة التى تؤهله للثقة .

وأظهر وليم من ناحيته الدهاء الذى عرف عنه ، وكذلك قسوته ، وتحرك أولا الى رومنى Rommney ، ودوفر Dover لكى يطمئن على خطوط المواصلات مع نورماندى ، ثم ذهب الى كانترين التى حالفها الحظ ، لنجاتها من غضبه . وبعد ذهابه شهد رجاله عدة غارات . وقتلوا الرجال والحيوانات وأحرقوا المنازل ، وحظائر الخيول ، وأدوات الفلاحة وغيرها . ولم يتركوا خلفهم سوى الأسى والخراب والدمار ، وبعد أن أحرق أحد طوابير جنوده سوثورك Southwork اتجه بجيشه غربا تجاه نهر التيمز Thames والى ولنجفورد Willinford حيث استسلم ستيجاند السكسونى Saxon Stigand ثم عبر وليم نهر التيمز ، وفى الوقت الذى وصل فيه الى بركهانستد Berkhansted فى طريقه الى لندن ، حضر اليه القادة السكسون الآخرون بما فيهم ادجار Edgar وهم على استعداد لاداء يمين الولاء له . وفى يوم عيد الميلاد ، وبعد مرور عام تقريبا على تتويج ايلدرد Ealdred رئيس أساقفة يورك للملك هارولد فى دير وستمنستر ، قام أيضا بوضع التاج على رأس وليم الفاتح .

اختتم وليم رئيس أساقفة صور ، واكثر المؤرخين أهمية في القرن الثاني عشر تاريخه عن مملكة بيت المقدس ، بتعليق موقع للكتابة في النفس وموهن للعزيمة ، اذ كتب سنة ١١٨٤ م ، عن المسيحيين في سوريا ، « ان كوارث هذا الشعب المغلوب والذي تعددت بلاياه هي الموضوعات الوحيدة التي فرضت نفسها » (١) . والواقع أن وليم كان لديه مبرر لتشاؤمه ، اذ لم يكن الشقاق السياسى المتزايد الذى مزق شمل المسيحيين القلائل الذين اتخذوا من سوريا وطناً لهم ، أو اتفاق العالم الاسلامى تحت قيادة صلاح الدين الملهمة من الأمور الخافية . وكانت الامارات الصليبية فى خطر شديد . فبعد ذلك بسنوات ثلاث ، وفى الرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م ، ثبت صحة هواجس وليم السوداء ، عندما هزم صلاح الدين المسلمون الصليبيين هزيمة نكراء . وفى الثانى من أكتوبر ، استسلمت بيت المقدس لصلاح الدين وصارت مملكة بيت المقدس أثراً بعد عين .

والواقع أن وضع المسيحيين كان خطيراً عندما كتب وليم تعليقه المنذر بالسوء سنة ١١٨٤ م ، على الرغم من عدم استحالة تغيير هذا الوضع . ولولا ثقة المرء فى قدرات المؤرخ على وضوح الرؤية ، لكان من الممكن ايجاد مبررات تتعلق بصحته العلية بأنها كانت سببا فى تشاؤمه - اذ مات بعد ذلك بوقت قصير - وربما كان يعانى من الشعور بالمرارة الذى لازمه نتيجة لتنصيب هرقل بطريقاً لبيت المقدس برغم عدم استحقاقه لهذا المنصب ، قبل أربع سنوات على وفاة وليم ، الذى كان تواقاً لشغله .

عانى المسيحيون من الأزمات قبل سنة ١١٨٤ م ، ونجحوا فى تخطيها . وعلى الرغم من أن معركة حطين كانت من النوع الفريد ، فان ما جعلها أشنع مأساة ، بكل ما فى الكلمة من معنى ، هى حقيقة أنه لم يكن هناك حاجة قط لخوضها . ولولا اللحظة الفاجعة التى تقدم منها جوى

Guy ملك بيت المقدس باقتراحه الأهووج ، لاستطاع المسيحيون الاستمرار في سياستهم الناجحة بصفة عامة في تجنب المعارك الكبرى مع العدو ، الى أن تنهار الجبهة المتحدة التي أوجدها صلاح الدين . وفي تلك الحالة ، لم يكن العالم ليعرف شيئا عن صلاح الدين ، أو عن ريتشارد قلب الأسد ، أو الحملة الصليبية الثالثة التي أوصلت هؤلاء الرجال جميعا الى الشهرة . بل ربما لم يسمع العالم عن الحملات الصليبية التالية . تلك هي الاعتبارات التي بررت اعتبار معركة حطين على أنها أحسم المعارك التي حدثت طوال عصر الحروب الصليبية .

بدأ عصر الحروب الصليبية في أواخر صيف سنة ١٠٩٦ م ، عندما احتشد الفرسان المسيحيون في القسطنطينية استجابة للدعوة الملحة التي وجهها البابا أوربان الثاني لشن حرب مقدسة ضد المسلمين . اذ القى البابا أوربان الثاني خطابا طويلا ورنانا ومفعما بالتوبيخ والتعنيف على مستمعيه مركزا على سوء معاملة الحجاج الى الأراضي المقدسة ، التي كانت في ذلك الحين تحت قبضة المسلمين ، وذكرهم بأن أرض الكتاب المقدس ، « أرض اللبن والعسل » . ترقب استردادها . ومن القسطنطينية شق الصليبيون طريقهم بالنضال والكفاح ببطء عبر الأراضي الوعرة في آسيا الصغرى وسوريا . وكادت تودى بهم كوارث عدة ولكنهم حققوا هدفهم في النهاية في الرابع عشر من يوليو سنة ١٠٩٩ م ، عندما استولوا على بيت المقدس .

وبلغ عدد المحاربين الذين شاركوا في هذه الحملة الصليبية حوالي ثلاثين ألفا (الكلمة اللاتينية للصليب Crux ، والتي جاء منها كلمة صليبي Crusade) . وفي هذه الجال ، كانت الاستجابة للدعوة البابوية كبيرة . اذ كان تعداد سكان أوروبا قليلا ، والمنطقة لاتزال تعيش في العصر الاقطاعي وكانت فترة من الفوضى النسبية عندما اهتم جماعة من النبلاء الاثرياء ، الذين امتلكوا الأراضي والمهتمين بزيادة ثرواتهم قبل كل شيء ايان سيطرتهم على أوروبا سياسيا واقتصاديا . ولولا أن أواخر القرن الحادي عشر كان مقعما بروح حركة الإصلاح الديني والانبعاث الروحي ، لاثارت دعوة البابا أوربان قليلا من الحماسة .

ومع ذلك فلو أنه كان قد احتشد ضعف عدد المسيحيين الذين لبوا دعوة أوربان لما كان هذا العدد كافيا للتصدي على الاطلاق للأعداد الهائلة للمحاربين الذين كان في استطاعة العالم الاسلامي حشدهم لو أنه كان عالما اسلاميا متحدا . بيد أنه لم يكن كذلك اذ ان المسلمين في سوريا الذين تحصلوا الوطاة الكبرى للهجوم المسيحي ، لم يتلقوا سوى مساعدة

ضئيلة من المسلمين في بلاد ما بين النهرين أو من مصر . وما أن أتت سنة ١١٠٩ م ، حتى كان الصليبيون قد اقتطعوا من العالم الاسلامي أربع مناطق لأنفسهم على امتداد ساحل البحر المتوسط بما فيها مملكة بيت المقدس الى الجنوب ، واقليم طرابلس ، وامارة أنطاكية القريبة من الشاطئ ، واقليم الرها في أقصى الشمال والمحاذي لأرمينيا تقريبا .

وما أن صار بيت المقدس تحت قبضة الأيدي المسيحية حتى عادت الغالبية العظمى من المسيحيين الى أوطانهم في أوروبا . ومن يمين طالع حكام الامارات المسيحية الصغرى الذين تركوهم من خلفهم أن مجموعة الدول الاسلامية ظلت منقسمة على نفسها ، كما كان الحال من قبل . وكانت هناك حوادث متماثلة عندما عقد شيوخ القبائل المسلمون تحالفا مع الامراء المسيحيين ضد المسلمين الآخرين ، وفي بعض الأحيان أيضا تحالف المسيحيون مع المسلمين ضد المسيحيين الآخرين وكان من جراء هذه الفرقة أن استطاعت الامارات الصليبية الاعتماد في العادة ، على سياسة الحياد ، اذ لم يكن في استطاعتها التعاون ، ومن أمثلة ذلك امارتا دمشق وحلب ، اللتان اعتبرتا الخليفة في بغداد أشد خطورة على حكمها الذاتي من المسيحيين .

وعقب فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ م) تنبه الأمراء المسيحيون ، الذين ربما أدركوا ادراكا كاملا ضعف مركزهم ، الى ضرورة مصادقة المسلمين . وكان سقوط امارة الرها سببا عاجل بحدوث هذه الحملة الصليبية . وأخذ كل من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا ، على عاتقهما مهمة اجهاض الهجوم الاسلامي الذي استهدف اقتلاع جنود الامارات الصليبية . غير أن كونراد فقد جيشه في آسيا الصغرى ، في حين حقق لويس نجاحا طفيفا . وعندما كتب على هذه الحملة الصليبية الفشل الذريع ، هاجم المسيحيون دمشق التي ارتبطوا معها بعلاقات ودية ، في هجوم غير محكم . وكان الهجوم خاطئا وفاشلا ، بالرغم من أنه أعطى للمسيحيين دوسا مفيدا ونعني به ، أن استمرار تفكك العالم الاسلامي هو أفضل الآمال لبقاء المسيحيين .

وظهرت عوامل أخرى غير تفكك العالم الاسلامي ساعدت الامارات المسيحية على الاحساس بالأمل في التصدي لهجوم المسلمين . ومنهما حضور الصليبيين الجدد . ففي غضون ١١٠٠ - ١١٠١ م وصلت الى القسطنطينية ثلاثة « جيوش » في طريقهم الى بيت المقدس . وكما حدث فلم يصل أى من تلك أبعد من الأناضول حيث أصيبوا بالاخفاق ، بيد أن بعض الجماعات المسيحية وصلت الى سوريا ، وبصفة خاصة عندما

تولت المدن الإيطالية نقل الحملات الصليبية وتوصيلها الى المدن المسيحية المحصنة على امتداد الشاطئ . وفى سنة ١١٠١ م وصل أسطول من جنوه الى ميناء حيفا محملا بالرجال والعنادر . وفى العام التالى وصلت مائتا سفينة من انجلترا بها الكثير من القوى البشرية المطلوبة . وعندما تخرج الموقف أجبر الحجاج على الانضمام الى المقاتلين بالرغم من أنه لم يكن فى نيتهم القتال . وحدث هذا عام ١١٨٣ م ، أى قبل معركة حطين بأربع سنوات ، عندما قام صلاح الدين بهجومه الكبير على مملكة بيت المقدس . عاما بعد عام ظل القساوسة والرهبان يذكرون المؤمنين بواجبهم فى مساعدة الحرب الصليبية بالرجال ، والمال ، واستجاب الحجاج والمحاربون كل عام لتلك الدوافع الملحة التى مارسها القساوسة والرهبان بكل قوة وعزم .

وثبت أن دور المدن الإيطالية كان حاسما بالنسبة لبقاء الامارات الصليبية ، اذ ان تلك الامارات كانت تفتقر الى الأساطيل التابعة لها ، فى حين كانت السفن البيزنطية فى الصورة بين الحين والآخر ، لأن الامبراطور البيزنطى كان فى حاجة اليها فى أماكن أخرى ، وفى العادة . ومن أجل الوفاء بحاجات الصليبيين للسفن ، قدمت المدن الإيطالية خدماتها . وكانت البندقية ، وجنوة ، وبيزا أكثر المدن الإيطالية نشاطا ، كما كانت أيضا أكثر الجماعات المغامرة فى مجال زيادة نطاق التجارة التى حولت اقتصادية غرب أوربا رويدا رويدا . وبالرغم من أن تلك المدن الإيطالية المذكورة لم تفعل شيئا بشأن إقامة الامارات الصليبية ، فانها استغلت الفرصة الذهبية لصالحها فى زيادة عملياتها التجارية . والواقع أنهم لعبوا دور التجار ورجال الأعمال أولا ، ودور الصليبيين ثانيا ، بيد أنه بدون مساعدتهم ، ما كان للصليبيين أن يحتفظوا بالأراضى التى سيطروا عليها الى مدى طويل .

ان السفن التى قدمتها المدن الإيطالية مكنت الصليبيين من تجنب مخاطر الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، حيث تعرضت جيوش مسيحية عديدة للقناء . وعمل قيامهم بالنقل البحرى على حل المشكلة الضخمة المتعلقة بإمداد الصليبيين ، الذين أقاموا فى سوريا ، حيث نقلوا الأسلحة الحربية ، ومعدات الحصار . وأثبتت السفن الإيطالية أنه لا يمكن الاستغناء عنها فى عملية الاستيلاء على مدن المسلمين الحصينة على امتداد الشاطئ . بل ان الاستيلاء على مدينة بيت المقدس البعيدة عن الشاطئ سنة ١٠٩٩ م تم بسهولة بفضل وصول المعدات التى أنزلها أسطول جنوه فى مدينة يافا . وبعد كارثة حطين ، كان الأسطول الصقلى هو

الوحيد الذى منع صلاح الدين من اكتساح طرابلس ، وأنطاكية ، ابان
موكب نصره فى أراضى سوريا .

ان الثمن الذى طلبته المدن الايطالية مقابل خدماتها كان باهظا .
ففى مقابل تقديم سفنهم ومساعداتهم المالية ، فانهم حصلوا على امتيازات
تجارية كبيرة تضمنت الحق فى الحصول على أحياء خاصة بهم بالمدن
أداروها كما لو كانت ملكا لهم . وفى سنة ١١٢٣ م حصلت مدينة
البندقية على حى بكل مدينة فى مملكة بيت المقدس وتمتعت جنوه ، وبيزا
بامتيازات مشابهة فى مدن أخرى . وقيدت تلك الامتيازات حركة الحكام
فى ادارة شئون اماراتهم ، بل حتى فى التعامل مع العدو ، طالما أن أهدافهم
وأهداف أولئك الذين ينتمون الى المدن الايطالية ، فى حالة تعارض بصفة
دائمة . وكان الايطاليون مهتمين بالتجارة بصفة أساسية ، بما فيها
التجارة مع العدو ، وكانوا يعارضون أى سياسة من شأنها تعريض
السلام للخطر . وكما حدث ، فان الأقلية المحدودة التى عاشت فى سوريا
كانت فى العادة تطالب بسياسة السلام كمطلب وحيد حكيم من الامارات
الصليبية وكان هذا مطلب المدن الايطالية بصفة عامة .

بل انه حتى فى الحالات الشخصية الخاصة ، لعب الذهب الايطالى
دوره فى التأثير على مجرى التاريخ الصليبي . ومن أمثلة ذلك قصة
وقعت قبيل معركة حطين مباشرة . اذ وعد ريموند أمير طرابلس ،
جيرارد من ريد فورت Gerard of Ridefort الذى كان مولعا
بالترحل والمغامرات الفروسية فى انجلترا ، أن يزوجه أول وريثة غنية
يصادفها . وعندما مات Dorel السيد الاقطاعي من بوترون
Lord of Botron ، قام ريموند Raymond باتمام
زواج ابنة دوريل بتاجر ثرى من بيزا ، بدلا من أن يزوجهها الى
جيرارد ، بعد أن قدم إليه هذا التاجر البيزى ، ما يعادل وزن الفتاة ذهباً
وفقا لما قيل فى حينه . واذا ما كانت هذه القصة حقيقية ، فان ريموند
لن يأسف على أى شئ أكثر من مجرد أنه حث فى وعده الى جيرارد ،
ومن ثم جنى على نفسه كراهية جيرارد الأبدية له . وترك جيرارد الخدمة
العسكرية وصار فيما بعد رئيسا للربان الداوية Templers . وفى
الليلة السابقة على معركة حطين أقنع جيرارد ، جى Guy ، ملك
بيت المقدس بأن يرفض الخطة الاستراتيجية السلمية التى تقدم بها
ريموند ، وأن يهاجم صلاح الدين وهو الاقتراح الذى انتهى بنهاية
مأساوية للمسيحيين وريموند .

وربما كان من أهم حوادث هذا العصر التى ساعدت الامارات
الصليبية فى جهودها لمقاومة المسلمين هو تشكيل فرقتي الداوية

هذين النظامين العسكريين أتباعه الذين تجمعوا في شكل جماعات متحمسة من أجل مساعدة الحجاج عند زيارتهم الأراضي المقدسة . وبمرور الوقت أخذت هذه الجماعات على عاتقها تحمل مسئولية حماية الحجاج ، وأصبح هؤلاء الحماة محاربين على مستوى الكفاية . وأثبتوا أنهم أشجع المحاربين في مواجهة العرب ، ولم تعد مهمتهم حماية الحجاج فحسب وإنما امتدت الى محاربة المسلمين ، في كل مناسبة وحتى الموت . وإذا كان صلاح الدين قد سمح للأسرى بأن يقدوا أنفسهم أو أن يدفع الآخرون الفدية عنهم ، إلا أنه لم يطبق ذلك على فرسان الداوية والاسبتارية ، نظرا لأنهم قد ألزموا أنفسهم بالقسم أن يقاتلوا دفاعا عن الدين طالما كانوا على قيد الحياة ، لذلك فإن صلاح الدين نفذ حكم الاعدام في كل فرد من الفرسان الداوية والاسبتارية وقع تحت قبضة يده .

وشكل أعضاء هذين التنظيمين الجيش العامل الوحيد الذي كان في استطاعة حكام الامارات الصليبية اللجوء اليه ، في وقت المحنة أو الذي كان جاهزا لمقاومة بعض الجماعات المغيرة على المناطق الريفية . فكان طبيعيا أن تتولى تلك التنظيمات مهمة قيادة ، وإدارة الحصون القوية على امتداد حدود كل امارة ومن السير ادراك كيف صارت تلك التنظيمات تشكل عنصرا لاغنى عنه بمرور الوقت في الحرب في سوريا . ولسوء الحظ غالبا ما حولتهم المنافسة البريرة الى أعداء ، على مثال المدن الإيطالية . ومن ثم أضعفوا أهميتهم أمام الحكام الصليبيين . وكانت التنظيمات العسكرية تابعة مباشرة للبايوية ، ولذلك خاضوا الحرب كحلفاء لا كرعاء للملك بيت المقدس وربما قام حكام الامارات الصليبية بمساومتهم مقابل تعاونهم بنفس الطريقة التي اتبعوها مع المدن الإيطالية .

ان ذكر الفرسان الداوية والاسبتارية يعيد الى الذهن صور القلاع مثل قلعة الكرك للفرسان الفرنسيين ، وضمت هذه القلعة المهمة ألفي مقاتل . ويشير هذا الى الأهمية الحيوية لتلك القلاع ابان عصر الحروب الصليبية . وكانت هذه القلعة تقع في سوريا الشمالية حيث سيطرت على حركة سير القوافل من حمص وحماة الى بلاد ما بين النهرين . لذلك لم يكن في استطاعة قافلة للمسلمين المرور ما لم تكن مصحوبة بقوة عسكرية قوية ، وذلك في حالة الحرب . وينطبق الشيء نفسه على قلعة في شرق الأردن جنوب البحر الميت ، والتي كان في استطاعتها اعتراض سبيل القوافل بين دمشق ومصر .

وهذا يقدم لنا دورا مهما عن القلاع . اذ ان وجودها في أماكن استراتيجية جعلها تسيطر على حركة انتقال البضائع مما شجع على السلام

بين الجماعات المعادية . وساعدت أيضا كمراكز ادارية فى توطيد الحكم
المسيحي . وأحبطت هجمات الجماعات العربية الغيرة ، مما ساعد على
استعمار واستغلال المنطقة من الناحية الاقتصادية . وعلى الرغم من أن
عدد هذه القلاع لم يكن كافيا ، وكذلك القوى البشرية بها ، فانها حدت
من حرية جماعات المسلمين القليلة التى دأبت على مهاجمة المناطق الريفية .
بل انه ربما تردد جيش كبير اذا ما فكر فى المرور أمام قلعة قوية ما لم
يجد نفسه معرضا للمصاعب ، ومضطرا الى التراجع . وعلى الجانب
المقابل ، أمدت تلك القلاع الجماعات الصليبية بمكان آمن عندما كانت
الهزائم تجبرهم على التراجع أمام هجوم العدو .

وفى سنة ١٠٩٥ م عندما أعلن البابا أوربان دعوته أمام المجتمعين
من رجال الكهنوت والاستقراطيين فى كليرمونت Clermont من أجل
خوض حرب مقدسة Crusade ضد (المسلمين) ، فانه فعل ذلك
ردا على استغاثة وصلته فى العام السابق من الكسيوس كومنين
Alexius Comnenus الامبراطور البيزنطى . حيث طلب
الامبراطور محاربين لمساعدته فى الأناضول ضد الأتراك السلاجقة ،
الذين اجتاحتوا الجزء الأكبر من هذا الاقليم بعد انتصارهم الذى جاء
بكارثة على الجيش البيزنطى فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م . ان البابا
هو الذى وسع دائرة الطلب الذى كان فى جوهره متواضعا من ناحية
الامبراطور الى حركة واسعة المدى اشتملت على سبع أو ثمانى حملات
صليبية ، وانضم اليها عشرات الآلاف من المقاتلين لمدة قرنين تقريبا قبل
أن يتم طرد المسيحيين من بلاد شرق البحر المتوسط Levant .
ولم يكن الكسيوس يتصور شيئا بمثل هذا الطموح على الاطلاق ، اذ لم
يكن هو أو من جاء بعده من أباطرة بيزنطة مهتمين ببيت المقدس
المقدس والأراضى المقدسة بدرجة اهتمامهم بإقليم الأناضول وأنطاكية .

ومع ذلك لعب الأباطرة البيزنطيون دورا حيويا فى نجاح الحملات
الصليبية اذ ان اسطولهم كان أقوى الأساطيل فى ذلك الجزء من
البحر المتوسط . ورغم أن مصالحهم جعلتهم يحتفظون بسفنهم قرب
ديارهم فى العادة ، فانهم تعاونوا أحيانا مع الجهود الصليبية جنوبا حتى
مصر : ولولا ارتياب الصليبيين الراسخ فى الدوافع الأساسية لبيزنطة ،
بالاضافة الى أنانية هؤلاء الصليبيين ، لسجل تاريخ الصليبيين العديد
من صفحات النجاح للمسيحية .

حكمت القسطنطينية كلا من سوريا ومصر فى فترة تاريخية
سابقة . ونظرا لنجاح السيادة الأقطاعيين الغربيين فى انتزاع المنطقة
الساحلية الشرقية من مجموعة الدول الاسلامية دون أن تقدم بيزنطة

مساعدة مباشرة ، لذلك فانهم ادعوا تبعية تلك الأراضي لهم ، برغم القسم الذى أدوه من قبل أمام الكسيوس بأن يكونوا أتباعا مخلصين له . وفى ذلك الحين لم يستطع الكسيوس أن يفعل شيئا ليباشر حقه بالقوة . وفيما بعد ، عندما واجهت الامارات الصليبية صعوبة فى الدفاع عن نفسها لم يكن أمامها خيار فى طلب مساعدة بيزنطة ونتيجة لذلك ، فان امارة أنطاكية ، أقرب الامارات الى القسطنطينية ، اعتبرت غالب الأحوال اقطاعا تابعة للإمبراطور .

وكان وجود السلطة البيزنطية فى الأناضول ، وفى المنطقة التى تقع شرق قيليقية Cilicia أمرا خطيرا بالنسبة لوجود الامارات الصليبية . وقبل إبادة الجيش البيزنطى فى مايكروكيغالون Mycriocephalon فى شرق الأناضول ، سنة ١١٧٦ م على يد الأتراك وهى الهزيمة التى قضت على بيزنطة كقوة عظمى فى تلك المنطقة ، لم يشعر المسلمون فى الموصل بالحرية فى حشد قواهم من أجل احتلال حلب ودمشق . وكانت هاتان المدينتان مفتاحا للسيطرة على شمال سوريا . وقد تعامل حكامهما الذين استقلوا مع المسيحيين فى طرابلس ، وانطاكية ، ومملكة بيت المقدس كامارات حاضرة عملت على حمايتهم من الهجوم المباشر من قبل الموصل وبغداد . وكان الجيش البيزنطى ، قبل كارثة مايكروكيغالون يحافظ على توازن القوى من الناحية الواقعية بين الامارات الصليبية والمسلمين الذين تمتعوا بالحكم الذاتى فى حلب ، ودمشق ، والموصل . ان الهزيمة التى منيت بها بيزنطة فى مايكروكيغالون يمكن اعتبارها تطورا مهما أكثر من أى شئ آخر فى تتبع قصة السقوط النهائى لبيت المقدس على يد صلاح الدين .

وارتبط علو شأن الامارات الصليبية أو أفول نجمها بالمقدرة الشخصية لحكامها . وربما يبدو هذا مدهشا مادام الملك أو الأمير سيدا اقطاعيا - كما كان الحال فى غرب أوروبا - يدير مملكة يدبر شئونها عدد من النبلاء الأثرياء أشباه المستقلين الى حد كبير . ونعم هؤلاء البارونات barons بحق استشارتهم فى كل الموضوعات المهمة تقريبا ، بل وحتى فى الموضوع المهم المتعلق بالخلافة حتى انه اذا ما تبنى سيد « اقطاعى » سياسة يعارضها غالبية أتباعه اتهموه بالتهور والطيش . واذا كان هؤلاء الحكام خاضعين لوضع غير محدد المعالم على أطراف العالم الاسلامى ، الا أنهم كانوا أسعد حظا لمتعتهم بسلطة فاقت سلطة أبناء عموماتهم الاقطاعيين فى غرب أوروبا . اذ كانت المسألة مسألة بقاء أغلب الأحوال لأنه ما لم تتعاون الطبقة الأرستقراطية مع سادتهم الاقطاعيين ، على الأقل فى فترات المحن ، فان

ذلك سوف يجلب الضياع للجميع . وبسبب عظم مساحة مملكة بيت المقدس ، وحقيقة أنها تضم مدينة القدس ، فإن ملك هذه المملكة مارس نوعا من السيادة الاقطاعية العليا على الامارات الصليبية الأخرى .

كان جوفرى من بويون Godfrey of Bouillon أول حاكم لمملكة بيت المقدس عشية الاستيلاء عليها فى يوليو ١٠٩٩ م . وكان انجاز جودفرى الرئيسى هو الحاقه الهزيمة بجيش مصرى فى عسقلان . وهو النصر الذى ساعد على تقوية الحدود الجنوبية لمملكته . وعند موت جودفرى سنة ١١٠٤ م خلفه شقيقه بولدوين Boldwin حاكم الرها . وحتى ذلك الحين كانت بيت المقدس تابعة للكنيسة من الناحية العملية . ولقد أثبت بلدوين الأول أنه لا يقل مقدرة عن أخيه ، اذ صد الهجمات

العسكرية المصرية من الجنوب ، فى حين حقق وضعا قويا فى الشمال حتى اضطرت اماره حلب الاسلامية الى دفع اتاوة منتظمة له اعترافا بتفوقه عسكريا عليها . ويرجع الفضل الى ابنه بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣١م) فى الموافقة على وجود الرهبان الداوية والاسبتارية وتشجيعهم على ممارسة المهام الحربية وذلك بأن عهد اليهم بالقلاع على امتداد الحدود الشرقية .

وخلفه الملك فولك Fulk كونت أنجو Anjou ، الذى تزوج من ابنة بلدوين الكبرى ، وفى ذلك الحين اتخذت السياسة الخارجية اتجاها مهما . وحتى هذه المرحلة شكلت كل من مصر فى الجنوب وحلب ودمشق فى الشمال تهديدات مستمرة لوجود المملكة . وبعد سنة ١١٢٨ م ازداد تهديد وجود مملكة بيت المقدس خطورة . وفى تلك السنة استولى عماد الدين زنكى أتابك الموصل على مدينة حلب ، وفى السنة التالية ، استولى على حماه ، وهى مدينة كبرى فى شمال سوريا . وعلى ضوء ما حققه زنكى من نجاح لم تستطع كل من دمشق وبيت المقدس أن تتحملا البقاء فى حالة من العداء بصفة عامة حتى مجئ الحملة الصليبية الثانية التى جانبها التوفيق . ولم يتمخض الهجوم المسيحى على دمشق عن فشل ذريع فحسب ، وإنما جعل هذه الامارة المسلمة ترمى بين أحضان نور الدين بن عماد الدين زنكى وخليفته ، وبذلك تفاقم التهديد لبيت المقدس من الشمال بدرجة خطيرة . وسعى خليفته بلدوين الثالث للرد على هذا التهديد بعقد تحالف مع الامبراطور فى القسطنطينية . وأفاد هذا التحالف مملكة بيت المقدس الى أن حلت الكارثة ببيزنطة فى موقعة مايكروكيفالون ١١٧٦ م .

كان من الممكن أن تكون وفاة بلدوين الثالث سنة ١١٦٣ م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره خسارة مأساوية لمملكة بيت المقدس لو لم يكن أخاه الأصغر عمورى الأول قد برهن على أنه ملك موهوب لم يسبق أن

شهدت مملكة بيت المقدس مثيلا له . فمن بين انجازاته غير السياسية ، تعيينه وليم الصورى William of Tyre مؤرخا للبلاط الملكى ، اذ بدون حوليته الرائعة ، ما كان لنا أن نعرف سوى القليل جدا عن مملكة بيت المقدس ، والحملات الصليبية الأولى . واستمر عمورى الأول فى سياسة المحافظة على الصلات القوية مع الامبراطور البيزنطى ، الى حد قبول الوصاية على بيت المقدس . وتمخض هذا التحالف عن شعور خاطيء بالقوة دفع عمورى الأول والامبراطور البيزنطى الى محاولة غزو مصر . وكانت فكرتهم عن ثروة مصر الهائلة صحيحة تماما ، شيد أنهم أخطأوا الحسابات فيما يتعلق بتدهور أحوال هذه الدولة الاسلامية . وتمخض تدخلهم عن شىء واحد فحسب ، وهو اضعاف مصر وفتح الباب لتدخل نور الدين ونائبه صلاح الدين الذى جعل نفسه حاكما على مصر بعد وقت قصير .

ثبت أن موت عمورى الأول سنة ١١٧٤ م كان كارثة مأساوية بالنسبة لمملكة بيت المقدس . اذ ترك العرش الى ابنه الصغير ، بلدوين الرابع ، الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره ، والذى لم يكن قاصرا فحسب ، وانما مصابا بمرض الجذام أيضا . فمسألة خلافة العرش أزعجت عهد بلدوين بدرجة أدركها الجميع لمدة اثنى عشر عاما . وكذلك الوصاية على العرش ، لأن بلدوين ظل قاصرا لمدة عامين ، وبعد ذلك تطلب الأمر ملكا بدلا منه ، ايان فترات اشتداد المرض . وكان ريموند الثالث Raymond III ، كونت طرابلس الوصى الأول على العرش ، قد أثبت أن اختياره كان موفقا . فعلى الرغم من أن تاريخ حياة ريموند قد سجل تقييمات متباينة ، فانه برز من بين القادة الصليبيين لعصره ، على أنه أحد الذين كانوا على استعداد للاعتراف بحتمية تحقيق قدر ما من التوافق مع الغرب ، ووصفه وليم بأنه كان « رجلا مخيفا الى حد ما ، ومتوسط الطول ، وقسمات وجهه تشبه العقاب ، ولون بشرته داكن ، وشعره أبيض وداكن ، وكان عريض المنكبين » .

وميز حادثان لهما أهمية قصوى السنوات الأولى من عهد بلدوين الرابع . الحدث الأول هو القضاء على الجيش البيزنطى سنة ١١٧٦ م ، فى مايكرويوكيفالون . وأبعدت هذه الهزيمة السلطة البيزنطية كعامل فى سوريا ، وبذلك حرمت مملكة بيت المقدس بطريق غير مباشر من حليف أساسى . أما الحدث الآخر ، فقد وقع فى العام التالى سنة ١١٧٧ م ، عندما متى صلاح الدين بهزيمة مريرة عند مونت جيزارد Mont Gisard الى الجنوب والغرب من بيت المقدس . وفى ذلك الحين نجح صلاح الدين فى السيطرة على دمشق وسوريا الشمالية ، وأرسل جيشه الكبير لهاجمة

المناطق الريفية التي ليس لها دفاعات ، وكذلك القرى الواقعة بين بيت المقدس والشاطئ ، على أمل استندراج الصليبيين للدخول في معركة . ومن حسن حظ الصليبيين أن بلدوين الرابع رفض المعركة ، بيد أنه ما أن تبعثر جيش صلاح الدين في عملياته الهجومية حتى أعطى بلدوين الرابع أوامره بالهجوم . فكانت النتيجة أن تحطمت قوة العرب ، وهروب صلاح الدين المفاجيء الى مصر . ولولا استخدام صلاح الدين لحمل سريع جملة الى مصر ، لتغير تاريخ الحروب الصليبية . والواقع أن العالم الاسلامي ظهر به رجال قلائل مثل صلاح الدين كانوا قادرين على تحقيق التعاون بين الحكام المنشقين على أنفسهم ضد المسيحيين .

كانت هزيمة صلاح الدين في تلك الموقعة المناسبة البهيجة الوحيدة عند الصليبيين في عهد بلدوين الرابع الحزين . وإذا كانت حالة بلدوين قد تدهورت بتزايد المرض عليه ، فإن الموقف السياسي للمملكة تدهور أيضا . فلكى يكون هناك وريث للعرش من بعده ، فانه زوج سيبيل Sibyl ، شقيقته الكبرى الى جى من لوزينيان Guy of Lusignan الذى كان وافدا جديدا من فرنسا ، وأصبح كونتم المدينة يافا ، ومدينة عسقلان باعتباره أحد الأتباع الإقطاعيين قى المملكة . وعندما فقد بلدوين بصره ، عين جى وصيا على العرش . غير أنه عزله بعد عام بسبب عدم صلاحيته وتكبره ، وعين ريموند أمير طرابلس بدلا منه ، ولكى يمنع وراثه سيبيل للعرش ، وكذلك جى من خلالها ، فانه قام بتتويج ابن سيبيل من زوجها الأول (وليم من مونتفرات) William of Montferat باسم بلدوين الخامس . بيد أن الصبي مات فجأة ، بعد موت بلدوين الرابع وعندئذ نفذت سيبيل وحي مؤامرة مع ريجنالد من شاتيون Reginald of Chatillon ورؤساء المنظمات العسكرية ، والبطريرك هرقل . وقاموا جميعا باقرار سيادة البارونات الآخرين على بيت المقدس وكذلك ريموند من طرابلس ، لكى يمكن تتويج سيبيل وحي ملكا ومملكة . بيد أن ريموند رفض التبعية الإقطاعية ، وذهب الى مدينة طبرية .

ولم يكن صلاح الدين يأمل مثل هذه الفرصة المواتية لمهاجمة مملكة بيت المقدس في هذا الوقت من الشقاق المرير بين القادة المسيحيين ، إذ انه كان يتطلع الى مثل هذا الأمر . وكان على أهبة الاستعداد ، وكان صلاح الدين قد واصل حركة احياء قوة الدول الاسلامية التي بدأها عماد الدين زنكى فيما بين ١١٢٧ - ١٢٢٨ م ، عندما أقام حكما مبنيا على السيطرة على حلب ، وحوران ، والموصل . وفيما بعد أجبر عماد الدين زنكى اماره الرها على قبول سيادته سنة ١١٤٤ م ، بيد أن الاغتيال أنهى

حياته . وأكمل ابنه نور الدين ما بدأه والده . فاستولى على دمشق ، وأجبر الأمراء المسلمين شبه المستقلين في شمال سوريا على الاعتراف بسيادته ، واجتاح أجزاء من امارة أنطاكية التي تقع شرق نهر العاصي . وعندما طلب شاور ، الوزير المصرى الذى كان يناضل من أجل السيادة ، المساعدة من نور الدين ، أرسل اليه جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه الكردي ، ونجح شيركوه وعين شاور وزيرا ، بيد أنه قتله بعد وقت قصير وتولى الوزارة صلاح الدين فى مارس ١١٦٩ م .

كان صلاح الدين أشهر قادة الأمة الاسلامية فى القرن الثانى عشر . ونشأ فى مدينة بعلبك حيث عين عماد الدين زنكى والده حاكما لها . وخدم صلاح الدين فى بيت نور الدين ، وفيما بعد ذهب مع عمه شيركوه الى مصر . وما أن صار صلاح الدين وزيرا فى مصر حتى عمل على بناء قوة هذا البلد العسكرية ، وامتدت سلطته سريعا على شبه الجزيرة العربية واليمن . وفى سنة ١١١٧ م قضى على الحكم الفاطمى الذى افتقر الى المقدرة فى مصر ، وأمر بالدعاء فى المساجد للخليفة العباسى فى بغداد ، وبذلك أعاد الوحدة المذهبية فى مصر وآسيا على المذهب السنى . وفى سنة ١١٧٤ م نعم بقدر كبير من الحظ السعيد عندما مات نور الدين تاركا خلفه ابنا وحيدا فى الحادية عشرة من عمره . فسارع صلاح الدين شمالا ، وتزوج أرملة نور الدين ، وسيطر على سوريا . وفى سنة ١١٨٥ م أجبر الخليفة العباسى فى بغداد على الاعتراف به سلطانا على العالم السنى . وفى ذلك الحين أصبح قادرا على القضاء على مملكة بيت المقدس وكذلك الامارات الصليبية الأخرى .

وقبل أن نتابع حسن طالع صلاح الدين وسوء طالع الامارات الصليبية فى ذروتيهما عند موقعة حطين ، فانه من المفيد أن ندرس مواطن القوة الذاتية ومواطن الضعف عند الخصمين . ان المشكلة الأساسية التى واجهت الامارات الصليبية فى جهودها للدفاع عن أنفسها ضد هجوم المسلمين كانت النقص فى القوى البشرية ، فقليل من الأسر بخلاف طبقة النبلاء تركت أوروبا للاستيطان فى الشرق ، ومن بين هذه الأسر عدد قليل من الرجال كان قد جاء الى الشرق . وظل هؤلاء المسيحيون الوافدون يمثلون أقلية صغيرة بين السكان الأصليين الذين تألفوا فى معظمهم من المسلمين والعرب . وكان من المؤكد ألا يتوقع قيامهم بتقديم مساعدة ضد أى هجوم من قبل المسلمين .

أما فيما يتعلق باليونانيين والسوريين المسيحيين الذين عاش أجدادهم فى تلك البلاد قبل ظهور الاسلام فقد عاشوا فى اطمئنان تحت الحكم الاسلامى اذ دفعوا ضرائب بسيطة ، ومارسوا معتقداتهم بدون

تدخل . ونظرا للعلاقات الودية بينهم وبين حكامهم المسلمين ، فانهم لم يرحبوا بقدوم الغربيين بأى حماس ، واعتبروهم أدنى منهم من الناحية الثقافية بالإضافة الى أنهم يمثلون طائفة مذهبية منشقة . فقد ساعدوا الصليبيين على مضض . أما فيما يتعلق بطرد الصليبيين فانهم لم يحركوا ساكنا لمنع المسلمين .

وفى هذه الحال كان على الامارات الصليبية والقادمين لها من الغرب الاعتماد على أنفسهم بصفة أساسية لمواجهة التهديد الاسلامى . وقدمت تنظيمات الرهبان العسكرية عنصرا كبيرا للقوة . والمساعدة الأخرى جاءت من التدفق المستمر للمحاربين القادمين من أوروبا . ومن حين الى آخر قدم الحجاج المساعدة . وفى بعض المناسبات كان من الممكن القضاء على تلك الامارات لولا تعاون المدن الإيطالية .

على أن أكثر المصادر التى أمكن الاعتماد عليها لتقديم المحاربين كانت الطبقة الارستقراطية الاقطاعية التى تسيطر على الأرض . وفى مملكة بيت المقدس كان أكثر هؤلاء أهمية السادة الاقطاعيون للبارونيات الأربع الكبرى التى انقسمت اليها المملكة . وكان يتبع كل بارون مائة فارس . أما الفرسان المستقلون المسئولون عن الحماية المباشرة للملك فقدموا خدمات شخصية . وقدمت الجماعات المسيحية الكنسية والمدنية نصيبا من المحاربين كان بعضهم من الفرسان والغالبية من المشاة . ومن الناحية النظرية كان لدى ملك بيت المقدس ألف من الخيالة ، وحوالى عشرة آلاف من المشاة . بل إن هذا العدد النظرى كان قابلا للانخفاض ابان هجمات نور الدين وصلاح الدين على الأطراف الشرقية للمملكة أو عندما تعرضت تلك المناطق للاغارات التخريبية .

واضطر الصليبيون الى استخدام الجند المرتزقة لتعويض النقص فى القوى البشرية . فعلى سبيل المثال قبل معركة حطين مباشرة ، وفى سنة ١١٨٣ م ، فرض ملك بيت المقدس ضريبة لجمع المال لاستئجار القوات المحاربة مقابل راتب وفى الأوقات العادية استفاد ملك بيت المقدس من الهبات المستمرة التى اعتادت الجماعات المؤمنة فى الغرب ارسالها ، ومن الذين لم يكن فى استطاعتهم المجئ شخصيا ، لذلك رغبوا فى أن يكون لهم نصيب فى النعم الالهية الخاصة التى وعدتهم بها الكنيسة عن طريق هذه الوسيلة غير المباشرة . وفى الثمانينيات من القرن الثانى عشر قدم هنرى الثانى مبلغا كبيرا من المال تكفيرا عن مشاركته فى مقتل توماس بيكيت Thomas Becket .

وفى وقت الضرورة الملحة لجأ الأمراء الصليبيون الى محاولة أخيرة وهى اعلان التعبئة العامة ، والتى عرفت باسم arriere-ban

وهذه الخدمة العسكرية المبنية على مبدأ إجبار كل رجل حر على المساعدة في الدفاع عن المجتمع . ونظرا لأن الرجال الذين تم تجنيدهم على هذا النحو افترضوا في العادة الى الخبرة والمعدات الحربية ، لذلك فان نظام التعبئة العامة كان وسيلة طبقت في المواقع الحرجة فقط . على أن الرجال الذين تم تجنيدهم بهذه الوسيلة ربما كان في استطاعتهم استغلال مواهبهم المحدودة ، على أحسن الأحوال ، في الدفاع عن المدن والقلاع ، بيد أن وجودهم لا يمكن على الاطلاق أن يلقي الحاجة الى الحاميات العسكرية المحترفة والكبيرة . وقد فشلت الامارات الصليبية في الاحتفاظ بالجيوش العاملة لمجابهة العدو بقوة ، وفي نفس الوقت تزويد الحاميات بالقدر الكافي للدفاع عن مدنها ، وكان معنى هذا الفشل هلاكهم .

وعلى النقيض من ذلك فقد كان في استطاعة صلاح الدين حشد أى عدد من القوات يحتاج إليها . اذ كان في استطاعة صلاح الدين حشد القوى البشرية من مصر وسوريا ، ومن الموصل بعد سنة ١١٨٥ م - التي أمده بحوالى ستة آلاف فارس في جيشه - حتى انه لم يشعر بأى نقص . فربما فقد صلاح الدين جيشا ، كما حدث له في موقعة موئت جيزارد سنة ١١٧٧ م ، ومع ذلك كان قادرا على معاودة تهديد المسيحيين في العام التالى . واذا كان صلاح الدين افتقر الى المواهب الادارية وكان في نفس الوقت كريما بافراط فيما يتعلق بتنظيم الموارد المالية ، فانه أيضا كانت لديه مشكلة مالية ، بالرغم من أنها لم تكن على مستوى خطورة مشكلة أعدائه الصليبيين . وظلت مشكلة صلاح الدين الرئيسية هي كسب الأمراء الأقوياء والاحتفاظ بولائهم له ، وكان كل أمير ملزما بتقديم المhone المالية للحرب ضد المسيحيين وتقديم عدد محدد من الفرسان . ونظرا لمتنع صلاح الدين بالاحترام الشديد ، لايمانه العميق دون تكلف ، ولحسن تقديراته ، فانه تمكن من الاعتماد على تعاون الأمراء معه ، على الأقل طالما كانت بشائر النجاح تبدو في الأفق .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين كانت لديه الوسيلة لزيادة الموارد البشرية أكثر من الصليبيين ، فان حجم جيشه في المعارك الفعلية كان مقاربا لجيش أعدائه بصفة عامة . والذي حدد عدد رجاله الذين اصطحبوه في معاركه لم يكن في العادة اعتبارات الكفاءة القتالية بقدر اعتبارات طبيعة الأرض ومناخ سوريا . ان فقر التربة وكذلك نقص موارد المياه جعل من استخدام الجيوش الكبرى أمرا غير عملي . وينطبق هذا بصفة خاصة على المشاة ، الذين شكلوا عبئا حيث كانوا يشقون طريقهم ببطء ومشقة عبر مسافات طويلة يتحتم عليهم اجتيازها ، ولهذا السبب كانت جيوش العرب تتكون على وجه الحصر أو القصر من الفرسان تقريبا .

فيما عدا مصر حيث حارب الرماة من المشاة . وفي سوريا وفلسطين حل رماة السهام من الفرسان محل رماة النبال من المشاة .

ومن ناحية أخرى كانت الجيوش الصليبية ، تتكون من الكثير من المشاة لأسباب عديدة . منها أنهم افتقروا الى الخيول ، في الوقت الذي كان العرب يحصلون عليها دون عناء .

ومن ناحية ثانية ، قلما ظهر العدو في حالة استعداد للحرب ، فقد كان على الصليبيين حشد كل ما يستطيعون حشده من الرجال ، وبخاصة المشاة ، الذين قاموا بواجب حماية القلاع والمدن . ومع ذلك فان السبب الأساسي في استخدام المشاة ان ثبت ذلك هو عدم امكانية الاستغناء عنهم كحاجز دفاعي بين الفرسان الصليبيين الثقيلين بالدروع والفرسان العرب الذين تميزوا بسرعتهم وخفة أسلحتهم . ونظرا للوابل المنهمر من السهام الحربية التي سددها العرب ، بالاضافة الى مقدرتهم على شن الغارات المتكررة ، فان فرسان الصليبيين كثيرا ما كان يتم القضاء عليهم قبل أن يتم القتال الالتحامي .

وحينما نتفحص عن كتب نوعيات المقاتلين المواجهين لبعضهم البعض في سوريا ، نجد أن الفارس الصليبي كان أشدهم جميعا عدة وعتادا ، وهذا التفوق انما هو نمط مماثل لما كان عليه المحارب في غرب أوروبا . حيث تمخضت الأحوال عن وجود مثل هذا النوع من المحارب . وكان تفوق هذا الفارس أمرا معترفا به في الشرق الأدنى بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة ، والنقص في الأعلاف ، والمياه كثيرا ، مما جعل القتال صعبا الى حد كبير . وكان هذا الفارس الصليبي يحمل رمحا وسيفا ، وخنجرًا في أغلب الأحوال أيضا . وارتدى الفارس ملابس لحماية تتكون من قميص به دروع ذات زرد وله أكمام ، ويصل حتى ركبتيه . وقطع أخرى من المعدن لحماية ساعديه ، ومعصيه ويديه ، ورجليه ، بل وحتى قدميه . ويغطي الجزء الأمامي من رأسه خوذة اسطوانية أو مخروطية ، تحمي رقبته ، وتحمي الجزء الأكبر من وجهه قلنسوة مدرعة . وتحشى مطيته المدرعة تدريعا ثقيلا صفائح معدنية واقية ، بالرغم من أنها ليست على مستوى ركب تلك المطية . ولو كانت الصفائح المعدنية الواقية الخاصة بالحصان على مستوى الفارس بالنسبة للدروع المعدنية لا تغد تاريخ الحروب الصليبية مجرى آخر . فعندما توقف ضجيج معركة حطين

وانقشعت سحب الغبار ، وكان من النادر وجود فارس من الجيش المسيحى على قيد الحياة ، فى حين كان هناك مئات الفرسان الذين لم يصابوا بأذى .

ولكى يمد الصليبيون أنفسهم بالفرسان حملة الأسلحة الخفيفة لتدعيم موقف الفرسان الأقوياء من حملة الأسلحة والمعدات الثقيلة ، وينفذوا المهمات المحددة المناسبة للفرسان الذين لديهم المقدرة على الحركة السريعة ، لجأت الامارات الصليبية الى سكان البلاد الأصليين ، واعتمدت على الحلفاء . وفى العادة عرف هؤلاء الفرسان باسم الفرسان الأتراك حملة الأسلحة الخفيفة Turcopoles اذ انهم حاربوا على غرار ما كانوا يفعلون فى بلادهم . واستعمل الأتراك النبال والسهم ، وبذلك شكلوا قوة معادلة للفرسان الرامين بالسهم المسلمين ، واستخدم الصليبيون الأتراك فى عمليات الاستطلاع أيضا . وساعدت حركتهم فى تقييد حركة الفرسان العرب فى الاغارة على المناطق الريفية . وعندما كانوا يشاركون فى القتال ضد جيش ضخم للعدو فانهم كانوا ينضمون الى الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة .

ان المشاة الذين قاتلوا مع الجيوش الصليبية أعدوا أنفسهم كشركاء عاملين مع الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة فى كل العمليات الحربية الكبرى . واختلفت معداتهم ومهاراتهم وفقا لخطتهم القتالية . فالجنود المرتزقة ، وضعوا على رؤوسهم قلنسوة من حديد ، وأحاطوا أجسادهم بنوع من الزى الحربى ، وهو فى العادة معطف حربى gamberson أو عباءة من الجلد السميك أو الكتان المبطن . ويحمل الفرد منهم ثرسا ، وقوسا ، أو قوسا ونشابا . وكان القوس والنشاب أثقل من القوس العادى ، وأكثر صعوبة فى الحمل ، بيد أن قذائفه لها قوة ماحقة لدرجة أنها تستطيع تكسير الدروع والأوصال على مدى قريب . ويقوم المشاة بالتصدي للعدو معتمدين على كثرتهم العددية بالإضافة الى السهم الشديدة التى يطلقونها الى أن تحين اللحظة التى ينقض فيها الفرسان ويشنون هجوما شديدا . « وتحرك العدو وفقا لمتطلبات المعركة : تقدم رجاله بيننا وبين فرساننا ، وظلوا محتفظين برباطة الجأش والثبات كالبنين المرصوصين . وكان كل فرد من رجالهم مرتديا عباءة من اللباد ، ومن تحتها قميص من الدروع المحكم التى لم تحدث بها سهما ما أى أثر . وفى الوقت نفسه صوبوا تجاهنا الأقواس والنشاب ، التى أصابت الخيل والخيالة ، وطرحتهم أرضا بين المسلمين . ورأيت بينهم رجالا حمل الفرد منهم ما بين رمح الى عشرة رماح مثبتة على ظهورهم ، وبرغم معاناتهم من الاجهاد فى خطاهم العادية ، فانهم لم يشخلوا عن موضعهم بين قواتهم . وانقسم

المشاة الى قسمين : قسم تقدم ليفطى الفرسان ، فى حين تحرك القسم الآخر على امتداد الشاطئ دون الاشتراك فى القتال ، وانما استهدف الراحة . وعندما تعب القسم الأول استبدل الأماكن مع القسم الثانى ، وأخذ دوره . وسارت الفرسان بين قسمى المشاة ، وظهرت فى الوقت المناسب الذى رغبت فيه فى شن الهجوم » (٢) .

وتشير هذه القصة من كتاب مؤرخ معاصر الى نوعية التكتيك الحربى والاجراءات الوقائية التى مارسها فى العادة المسيحيون ضد الاعداء العرب . على أن كثيرا من معلوماتهم عن كيفية التعامل مع العدو قد اكتسبوها بالممارسة . بيد أن بعض هذه المعرفة اكتسبوها من المستشارين العسكريين فى القسطنطينية . وإذا كان بعض الصليبيين مالوا الى الاستهزاء من تحذير هؤلاء المستشارين من الخيالة الأتراك الذين اشتهروا بسرعة الحركة ، فان تعرضهم للابادة فى موقعة دوريليوم Dorylaum فى آسيا الصغرى ، وهى المعركة الأولى للحملة الصليبية الأولى ، كان من الممكن أن يكون درسا واقعيا . وفيما بعد علمتهم تجاربهم فى سوريا دروسا أخرى كان عليهم أن يعوها من أجل بقائهم ، مثل عدم الابتعاد كثيرا عن مصادر الماء ، وعدم مواصلة مطاردة جيش منسحب ، وعدم الانتشار بحثا عن الغنائم ، والا يعرضوا أنفسهم لخطر الوقوع فى حصار على يد العرب الذين اشتهروا بالمرأعة والدهاء . وكان الصليبيون مجبرين على أن يتعلموا درسا قاسيا بصورة خاصة وهو أهمية المحافظة على الوحدة المتماسكة والمنظمة ضد عدو كان هدفه الأساسى القضاء على تلك الوحدة . وفى فرنسا كان على الفارس أن يعتمد على نفسه الى حد كبير فى مهمته العسكرية . فبعد هجوم مفاجئ أولى ضد العدو ، ربما يقوم هذا الفارس بالهجوم على أحد أفراد العدو ، أو يهاجم جماعة من العدو متعاوناً مع العديد من زملائه . بل ربما خرج من المعركة عندما يشعر أنه قد بذل كل ما هو مطلوب منه فى ذلك اليوم . بيد أن الأمر فى سوريا ليس كذلك . اذ لابد أن يظل مرافقا لجيشه ، وأن ينسق تحركاته مع تحركات المشاة ، الذين كان وجودهم حيويا بالنسبة لحياة الجيش . ويجب عليه الا يسمح بوجود ثغرات بين صفوف جيشه ، أو أن يسمح للعدو السريع الحركة بأن يباعد بينه وبين المشاة . وباختصار ، يجب عليه أن يتعلم النظام ، وهى فضيلة كانت غريبة كلية بالنسبة لشخصية الفارس .

وفى محاولة لتحقيق قدر من التماسك فى الجيش الصليبي ضد العدو الذى سعى الى القضاء على هذا التلاحم ، أصبح من المعتاد تقسيم القوة الضاربة الى وحدات صغيرة . وكانت تلك الوحدات الصغيرة تتلقى

تعليماتها المباشرة من قائد واحد اتبع بدوره استراتيجيات معدة من قبل حظيت بموافقة القادة . وكانت تلك الوحدات لاتهاجم فى وقت واحد ، وانما فى موجات متتالية ، وتهاجم مواضع مختلفة فى خطوط العدو . ان الهجوم المفاجئ الذى تقوم به جماعة من الفرسان الأشداء ، لم يكن أمرا جديدا بيد أنه فى فرنسا كانت الحاجة الى بعض التعاون بعد هذا الهجوم أمرا نادرا ، طالما أن العدو يحارب فى العادة بنفس هذا الأسلوب المنظم . أما فى سوريا فانه يكون أمرا انتحاريا ما لم يتحقق شئ من الاتحاد بين القوات المقاتلة وعلقت الداوية **Templers** أهمية ، على مسألة استمرار التعاون مع الجيش ابان المعركة الى حد أنهم جسدوا هذا الشرط الأساسى فى نظمهم الأساسية وعاقبوا بقسوة أى فارس ترك موقعه دون اذن .

كانت مسألة التعاون بين الفرسان والمشاة هى أشد الأمور خطورة بالنسبة للجيش الصليبية ، وكان موضع المشاة ، فى العادة بين الفرسان والعدو ، حيث شكلوا حاجزا وقائيا ضد سهام العدو التى قد تصيب خيول الفرسان بطريقة أو بأخرى . وساعد تكتلهم أيضا على ابطاء الهجوم المباشر للأتراك الذين اتصفوا بسرعة الحركة والذين حاولوا مهاجمة جناحى الجيش الزاحف . وقدم الفرسان المساعدة بدورهم للمشاة اذا ما حاول فرسان العدو الضغط بشدة عليهم . وفى العمليات الهجومية حينما تحين الفرصة للفرسان للقيام بالهجوم ، يفتح المشاة طريقا ، ويسمحون للفرسان بالهجوم من خلاله . وكان فى استطاعة ريتشارد القضاء على كل جيش صلاح الدين لو لم ترفض الاسبتارية **Hospitallers** أوامره ، وقاموا بمهاجمة العدو قبل أن يعطيهم الملك ريتشارد الإشارة بالهجوم . وبالرغم من هذا الخطأ ، فان تحرك الاستبارية الذى اتسم بالعجلة ، أجبر ريتشارد على أن يأمر قواته بالهجوم وهو مكروه وفتح المشاة الصفوف والحق هجوم فرسان الملك احدى الهزائم الشنيعة التى تعرض لها صلاح الدين فى حياته .

وهنا وصف المؤرخ مسيحي لهذه المعركة ، « كانت الأرض بطولها وعرضها تعج بجماعات من الجنود الأتراك المدربين تدريبا جيدا ، وأعداد وافرة من الأعلام المتعددة الألوان ، وقد اصطفوا فى كتائب وسرايا من الخيالة ، وأما تعداد المشاة فقط الذين كانوا مزودين بالدروع ، فيبدو أنه زاد على العشرين ألفا وانقضوا على قواتنا دون ابطاء ، وبسرعة تفوق سرعة النسور أو العقاب . وتحول الهواء الى اللون الأسود من الغبار المتصاعد من سنايك خيولهم ، وأحدث العازفون على الآلات الموسيقية ضجيجا مفرعا بالنفير ، والأبواق ، والطبول ، والصنجات ، وكل أنواع الآلات النحاسية فى الوقت الذى انقضت القوات من الخلف وهى تصرخ بصيحات

الحرب • لأن (المسلمين) يعتقدون أنه كلما علا الضجيج ، اشتدت الروح المعنوية عند المقاتل المسلم ، وكذلك هاجمنا الأتراك - عليهم اللعنة - من الأمام ، ومن الخلف ، وهاجموا جناحي جيشنا ، واندفعوا بقوة ، وصاروا على مقربة شديدة الى الحد الذي لم يمكن مشاهدة الأرض الجرداء لمسافة ميلين ، اذ أنها كانت كلها مغطاة بجيش العدو الكثيف • وعندما أصدر ريتشارد الأمر بالهجوم فى النهاية ، وصف شاهد عيان من المسلمين ما حدث ، وقال : « اننا شاهدنا فرسان العدو ، الذين تقدموا معا فى ثلاث كتلات ضخمة ، يلوحون برماحهم ، ويطلقون صيحات الحرب ، ويندفعون نحونا بسرعة ، وفجأة فتح لهم المشاة ثغرات بين صفوفهم ليسمح لهم بالمرور خلالها » •

ان مقدرة الجيوش العربية على سرعة الحركة فرضت نفسها على التكتيكات الحربية التى اعتادوا عليها ضد الجيش الصليبي ، الذى كان أكثر استخداما للدروع • وطالما أن العرب لديهم المقدرة على الحركة والمناورة بدرجة أسرع من أعدائهم المسيحيين فانهم استطاعوا فى العادة تجنب المعارك التى لا يرغبون خوضها • وفى استطاعتهم اختيار الزمان والمكان لشن هجومهم • واذا بدا مصير الحرب غير موات فانهم ربما اقلبوا على أعقابهم بعد التحامهم فى القتال مع العدو ، وولوا الأدبار وربما أعادوا حشد قواهم فجأة ، وعاودوا القتال • هذا هو ما وصفهم به توما المؤرخ المسيحي عندما تصدوا للملك ريتشارد والصليبيين عند تقدمهم صوب أرسوف • « ان المسلمين لم يرهقوا أنفسهم بالدروع الثقيلة كما فعل فرساننا ، فانهم كانوا قادرين دائما على أن يبرزوهم فى سرعة الحركة ، لذلك كانوا مصدر قلق مستمر • وعندما يتعرضون للهجوم فانهم اعتادوا الانسحاب بأقصى سرعة ، وأما عن خيولهم فهى أكثر الخيول سرعة فى العالم ، ويمكن للمرء أن يشبههم بطائر الخطاف فى خفة الحركة ولسرعة • وعندما يرون أنك توقفت عن مطاردتهم ، يتحول هروبهم الى هجوم عليك ، انهم مثل الذباب المزعج الذى فى مقدورك طرده لفترة قصيرة من الوقت ، ثم يعود ثانية فى اللحظة التى تتوقف فيها عن صده بشدة ، وطالما أنك مستمر فى الصد ، فانه يظل بعيدا • وكذلك المحارب التركى اذا رغبت عنه بعد أن تجبره على الابتعاد فانه يطاردك حتى عقر دارك دون توان ، بيد أنه ينوذ بالفراق اذا استدرت اليه » •

ونظرا لادراك العرب لتفوق الفارس الصليبي بسبب دروعه وأسلحته الأثقل فانهم حاولوا أنهاكه عند تقدمه عن طريق الغارات المتكررة على جناحي جيشه • واكتشفوا أيضا أن الهجوم العنيف والمستمر لفترة طويلة الذى يمارسونه ضد مؤخرة جيش زاحف يتمخض عن وقوع كل الجيش فى حالة الارتباك ، حتى لو فشل هذا الهجوم فى تدمير هذا الجزء الاساسى

من الجيش . وعندما يتجهون ضوب العدو ، فانهم يطلقون وابلا من السهام من أقواسهم المخيفة ، ثم يقتربون عندما يشعرون أنهم أفقدوا العدو اتزانه ، ويهاجمون بالرمح ، والسيف المستقيم ذى الحدين ، والسيف وحيد الحد المعقوف قليلا . واذا ما نجح الجيش الصليبي فى صد الهجوم ، فانهم يولون الأدبار أو يتظاهرون بذلك ، على أن يعاودوا الهجوم بعد ساعات قلائل أو بعد أيام قلائل ، الى أن يدركوا أن العدو لا يتوقع هجوما بدرجة لا ريب فيها وأحيانا تنجح الجيوش العربية فى استدراج المسيحيين الى الدخول فى معركة مع قوة معدة كشرك للعدو أو بالتظاهر بالتقهقر . وربما ترتب على ذلك تبديد شمل الصليبيين لتلهفهم على احراز نصر مزعوم ، هذا فى الوقت الذى يجدون فيه العرب قد شنوا عليهم هجوما معاكسا محدثا كارثة مريعة . وقبل معركة حطين بمائة عام كان أتو الثانى Otto II ملك المانيا من القلة المحظوظة ، اذ استطاع الافلات عندما نصب له العرب كميناً فى جنوب ايطاليا .

ونتيجة لمقدرة القوات الاسلامية على الحركة السريعة ، ولتفوقهم البشرى والحقيقة الواضحة أن المسيحيين لا يشغلون سوى موطئ قدم على حدود العالم الاسلامى ، سلم الأمراء الصليبيون منذ البداية تقريبا بضرورة اقرار وانتهاج استراتيجية دفاعية ضد العدو . ان الصليبيين حاولوا تجنب الدخول فى معركة بكل حساباتهم . اذ كان فرسانهم المحترفون فى حد الندرة ومن الصعب وجود بديل لهم . كما أن فرحهم بالنصر كان قصير المدى ، طالما أن العدو بموارده الهائلة كان قادرا على معاودة القتال بعد وقت وجيز . ولم يدخل الصليبيون المعركة الا وهم واثقون من النصر أو عندما بصعب عليهم تجنب القتال شريطة عدم حدوث نتائج خطيرة ، اذ كان القضاء على جيشهم بمثابة كارثة لعدم توافر الموارد التى يحتاجون اليها . لذلك ما أن تم القضاء على الجيش الصليبي حتى تحدثت نهاية لمملكة بيت المقدس .

ان نجاح انتهاج هذا النوع من الاستراتيجية الدفاعية عمل يعود الى ذكاء الأمراء الصليبيين ، ومع ذلك لا مفر من الحقيقة القائلة بأن لو كان العالم الاسلامى موحدا تحت حكم شخصية قادرة على شاكلة الخليفة عمر (رضى الله عنه) (٢) ، لما كانت الاستراتيجية الدفاعية كافية لبقاء الصليبيين . ولم تكن غالبية الجند العربية محترفة للقتال ، اذ كانوا يشتركون فى القتال لعدة أشهر ، وبعدها يشعرون بالملل تدريجيا ، ثم يصرون على العودة الى بلادهم وأسرهم . وبنفس القدر كانوا تواقين للمعودة من حيث أتوا اذ كانوا يحاربون من أجل الغنيمة فى المقام الأول . وبعد خمسة أو ستة أشهر من القتال كان فى استطاعتهم جمع كل ما فى مقدرتهم حمله معهم ، ومن ثم فلا مبرر للاستمرار فى القتال . على أية حال ، فان

الأمطار والطقس البارد فى نهاية كل عام كانت من أسباب وضع نهاية للقتال فى العادة . وبحلول فصل الربيع التالى واجه صلاح الدين المشاكل الدائمة ، وذلك باقناع الأمراء بالتطوع ومعهم قواتهم الجديدة التابعة لهم ، ونجح فى جعلهم كالجسد الواحد بعد أن حولهم الى قوة قتالية متماسكة وقادرة على القضاء على الصليبيين قبل أن ينهى سقوط الأمطار القتال مرة ثانية .

لا بد لنا من العودة للحوادث التى أفضت الى الكارثة فى حطين . ان الرجل الذى يتحمل المسئولية الرئيسية لتحريك هذه الحوادث التاريخية هو ريجينالد من شاتيلون Regnald of Chatillon (أرناط) (*) أمير حصن الكرك ، الذى اتصف بالشجاعة وان كان يميل الى التهور . لقد كان يوما كثيبا على مملكة بيت المقدس عندما قرر ريجينالد أن يجرب حظّه فى سوريا ، بعد أن حضر مع لويس السابع ابان الحملة الصليبية الثانية . ويبدو أن ريجينالد كان فارسا تقليديا مولعا بالمغامرات الفروسية ، وكان متهورا ، وشجاعا ، ووسيعا ، بيد انه كان يفتقر الى الحكمة والانضباط الذاتى . واستحوذت وسامته وسلوكياته المفعمة بالحيوية على اعجاب كونستانس Constance حاكمة انطاكية الأرملة التى أقنعت بلدوين الثالث فى لحظة ضعف أن يسمح لها بالزواج من ريجينالد . وفى سنة ١١٦٠ م قدم العرب خدمة جليلة للمسيحيين عندما أسروا ريجينالد لمدة ستة عشر عاما فى حلب ولم يحرك أحد ساكنا من أجل فديته . وعند اطلاق سراحه تزوج ستيفانى Stephanie وريثة امارة شرق الأردن المهمة . وتوجد فى المنطقة قلعة الكرك القوية ، والمعروفة باسم صخرة الصحراء ، والتى تقع فى منطقة عالية جنوب البحر الميت مما جعلها تسيطر على طريق القوافل بين دمشق الى الشمال ومصر ومكة الى الجنوب .

وفى صيف سنة ١١٨١ م ، وابان فترة هدنة ، اعترض ريجينالد (أرناط) سبيل قافلة كانت فى طريقها الى مكة . وفى السنة التالية بنى عدة سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف على شاطئ البحر الميت ، ونقلها مفككة الى خليج العقبة حيث قام بتجميع أجزائها وشرع فى مهاجمة السفن التجارية الاسلامية على البحر الأحمر جنوبا حتى الموانى التى تخدم مدينتى مكة والمدينة . بل يقال انه اعتزم مهاجمة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فاستشاط صلاح الدين غضبا . وفى أوائل سنة ١١٨٧ م عندما انقض ريجينالد على قافلة للمرة الثانية ، ابان فترة هدنة ورفض إعادة كل ما استولى عليه من أمتعة وأسرى ، برغم طلب جى ملك بيت المقدس بالحاح . أعلن صلاح الدين الجهاد ، وأقسم أن يقتل ريجينالد

(*) أرناط هو الاسم الذى درجت المصادر العربية على اطلاقه عليه - المترجم .

« أرناط » بيديه . وفى الرابع والعشرين من شهر يونية ١١٨٧ م جمع صلاح الدين والأمراء التابعون له حوالى عشرين ألف مقاتل شرق بحيرة طبرية قرب حدود الأراضى المقدسة . وبعد ذلك بيومين ، وفى يوم الجمعة المبارك عند المسلمين ، والموافق السادس والعشرين من يونية ، عبر صلاح الدين نهر الأردن وبدأت الحرب .

وفى الوقت نفسه كان الملك جى ومستشاره يعدون العدة على قدم وساق لتصدى لهجوم صلاح الدين . على أن استعداد القائد المسلم كان أشد الاستعدادات خطورة على الصليبيين . فعلى الرغم من خوفهم وكرهيتهم لريموند فإن الموقف كان فى غاية الخطورة مما دفعهم الى ارسال وفد اليه طلبا لتعاونه غير أن الموقف كان من الصعوبة الى حد استحالة انقاذه ، اذ لم تكن العلاقات ودية بين ريموند وصلاح الدين فحسب نظرا لاحترام كل منهما للآخر ، وانما كان ريموند ما يزال يشعر بالمرارة بسبب الطريقة المتكبرة التى غالج بها جى وزملاؤه مسألة اعتقال ريموند للعرش . غير أن الموقف كان خطيرا للغاية مما جعل ريموند يبلغ كبريائه ، ويقدم وعده بالمساعدة . اذ كان يدرك أنه اذا ما ضاعت مملكة بيت المقدس من أيدي المسيحيين ، فإن الدور سياتى على امارته فى طرابلس .

ولم يحدث للمسيحيين أن حشدوا جيشا كبيرا مثل ما جمعوا هذه المرة وبناء على طلب المساعدة ، أرسل يوهيموند Bohemond أمير أنطاكية ابنه ريموند ومعه خمسين فارسا . وأخليت المدينة والقلاع من حامياتها . وأعلن الملك التعبئة العامة arriere-ban من أجل حشد كل القوى البشرية . وتم اتفاق الذهب الذى أرسله هنرى الثانى مؤخرا على الجند المرتزقة وتم احضار بقايا الصليب الحقيقى (*) من بيت المقدس ، كعمل أخير بهدف التقليل من المخاوف والعمل على رفع الروح المعنوية بأقصى قدر ممكن . وربما بلغ تعداد الجيش حوالى ثمانية عشر ألف مقاتل - منهم ألف ومائتان من الفرسان ثقيلى العدة وأربعة آلاف فارس خفيفى السلاح ، وباقي العدد من المشاة - وتجمعوا جميعا فى صفورية ، وهى مدينة صغيرة فى اماره طبرية على بعد حوالى أربعة أميال شمال غرب الناصرة .

وهناك فى صفورية ، فى الثانى من يوليو ، اجتمع الملك جى ومستشاروه فى مؤتمر خطير . اذ ان الكارثة لا ريب فيها . لقد فرض صلاح الدين المعركة الفاصلة ، ولا بد من اتخاذ قرار . وعندما فشلت محاولات صلاح الدين الأخرى فى استدراج الجيش المسيحى للقتال ،

(*) هذا وفقا للأساطير الغربية - المترجم .

هاجم مدينة طبرية ، وسيطر على كل من فيها ، وضرب حصارا حول القلعة التي لجأت اليها اسكيفا Eschiva زوجة ريموند أمير طرابلس . واستغاثت بجى مما جعله يجعل بدعوة مستشاريه ، وكان أمامه خياران هما اما أن يتحرك الجيش الصليبي الى طبرية ليفك الحصار عن القلعة ، كخطوة تؤدى الى معركة كبرى مع صلاح الدين أو أن يظل فى صفورية وينتظر الخطوة التالية لصلاح الدين .

على أنه أصبح واضحا ببساطة تامة أن وجود الجيش الصليبي ، وكذلك مملكة بيت المقدس يتوقف على ما يقرره الصليبيون . ويبدو أن المستشارين أدركوا ادراكا كاملا هذه الحقيقة ، ولذلك استمرت المناقشات بانفعال شديد لعدة ساعات . غير أن الناطق بلسان هؤلاء المستشارين الذى جهد البقاء حيث كانوا فى صفورية لم يكن سوى ريموند زوج اسكيفا اذ كانت لدى ريموند خبرة طويلة بكل ألوان القتال فى سوريا ، وبالتكتيكات الحربية لصلاح الدين على وجه التخصيص . وحذر القادة الآخرون من أن هجوم صلاح الدين على طبرية ليس سوى مجرد شرك أعد باحكام على أمل دفع الجيش المسيحى الى مغادرة صفورية ، وأن مركزهم فى صفورية قوى . وأن طبيعة المنطقة تحميهم من التعرض للمحاصرة ، كما أن قربهم من قلاعهم والقرى الموالية لهم يكفل لهم الحماية والطعام ويمدهم الينبوع الكبير الذى يقع جنوب صفورية مباشرة بكل ما يحتاجون اليه من الماء .

ولفت ريموند أنظار المجتمعين الى أنه اذا كانت رغبة صلاح الدين خوض معركة ، فإن عليه أن يذهب اليهم فى شهر يوليو ، أشد شهور السنة حرارة وجفافا وأن يجتاز أرضا صخرية جرداء ، وباحتضار يتعرض لظروف ثنى أى قائد حكيم عن الهجوم . وللنسيب نفسه ، فانه سيكون عملا انتحاريا بالنسبة للمسيحيين اذا ما حاولوا السير حوالى خمسة عشر أو ستة عشر ميلا الى طبرية تحت تلك الظروف الشاقة . دون أدنى أمل فى الحصول على الماء طوال تقدمهم وتعرضهم لهجمات فرسان صلاح الدين المستمرة . وحثهم ريموند على الانتظار اذ ان الوقت كان فى صالح المسيحيين ، كما أن تجنب المعركة مع صلاح الدين لمدة شهور قلائل يساعد على تفرق الجند من حوله ، وكذلك تخفيف حدة الأزمة تدريجيا .

كان هناك بعض الأفراد الذين فندوا مزاعم ريموند بحماس شديد ، وعلى رأسهم جيرارد من رايد فورت رئيس الداوية ، وريجينالد ، ولكن أقمرت غالبية المستشارين حجج ريموند ، وعندما انتهى الاجتماع فى منتصف الليل تقريبا كان قد أصبح معلوما أن الجيش المسيحى سيبقى فى صفورية . وقبل نهاية تلك الليلة ذهب جيرارد وربما ريجينالد

الى خيمة جى فى محاولة أخيرة لاقناعه بتغيير رأيه ولم يكن ريجينالد بالشخص الذى يتجنب مشروعا محفوفا بالمخاطر ، فى حين أن حقد رايد فورت المستمر على ريموند ، ربما دفعه الى اكتشاف مواطن الضعف فى الاستراتيجية التى أوصى بها عدوه الشخصى .

وربما كان هناك سبب مباشر لشعور رايد فورت بالمرارة تجاه ريموند . اذ يقبل بعض العلماء صحة رواية المؤرخ المسلم أن ريموند سمح منذ شهرين على بدء معركة حطين ، لابن صلاح الدين ، باجتياز طبرية لكى يغير على الأراضى المسيحية ، بناء على طلب من صلاح الدين . وكان هذا انتقاما لاستيلاء ريجينالد على القافلة بالقرب من حصن الكرك . ولقد أعلن ريموند موافقته على هذا الطلب المدهش لغرابته لكى يحافظ على مشاعر صلاح الدين الودية نحوه ، وإن كان قد أصر على أن تدخل الجماعة المغيرة المنطقة بعد غروب الشمس ، وأن تغادرها قبل الغروب . على أن ريموند أرسل تحذيرا الى المسيحيين بأن يظلوا فى قراهم حتى لا يتحرش أحد بهم ، والهدف من ذلك هو حمايتهم من التعرض للخسائر العاجلة . ومن الواضح أن المغيرين أخذوا قليلا من الأذى . بيد أنهم واجهوا جماعة من الفرسان الداوية والفرسان الآخرين ابان عودتهم بالقرب من الناصرة وقضوا على الغالبية العظمى منهم ، تاركين حوالى ستين قتيلًا من الفرسان الداوية فى أرض المعركة . وكان رايدفورت من بين القلة التى أفلتت من المذبحة . وإذا كانت هذه الحادثة قد تمت ، فانها لابد وأن أقنعت ريموند بضرورة مصالحة جى لكى يضىفى غطاء على موقفه المثير للشكوك ، وأنها تقدم الدليل للشك فى مدى الاعتماد على ريموند .

ان مسألة ولاء ريموند هى التى سيطرت على حديث رايدفورت مع جى اذ قدم رايد فورت الدليل على أن ريموند ليس بالرجل الذى يمكن الثقة فيه . اذ كان قد رفض ذات مرة استضافة جى ، كما أن كل فرد يعلم أنه صديق لصلاح الدين : أليس هو الذى أصر على البقاء فى صفورية ليحمى صديقه صلاح الدين من الهزيمة ؟ وربما حذر رايدفورت جى من أن العذوف عن محاربة صلاح الدين فى ذلك الحين قد يضىفى عليهم الاتهام بالجبن . وذكره بأنه اتهم بالجبن منذ سنوات مضت ، سنة ١١٨٣ م ، عندما رعى الدخول مع صلاح الدين فى معركة عندما تقدم صلاح الدين فى ذلك الحين ، وضرب المناطق الريفية بالقرب من توبانيا . ولابد أن رايدفورت قد ذكر جى باعتباره سيدا اقطاعيا أعلى ، أن الواجب الأول للملك يحتم عليه الاسراع فى مساعدة سكيفا Eschiva تابعته الاقطاعية ، التى الحت فى طلب مساعدته . وفوق ذلك لابد أنه قد أقنع جى أنه برغم اشتداد درجة الحرارة والنقص فى مورد المياه ، فمن المحتمل أن يقضى عليهم صلاح الدين اذا هاجمهم فى مكانهم ، لذلك فمن الواجب

تحرك الجيش صوب طبرية . وأنه والداوية سيتوليان حماية مؤخرة الجيش
اذ من المحتمل أن يركز العرب أعنف هجماتهم عليها ، ويبدو أنه استطاع
أن يضمن للملك أن هذا الجزء من الجيش سوف يؤدي واجبه .

وأيا كانت الحجج التي حاول كل من رايدفورت وريجينالد عرضها ،
فقد غير جى رأيه ، واستعد الجيش المسيحي الذي اتسببته حالة من
الاضطراب للرحيل فى الساعات الأولى من صباح الثالث من يوليو . وكان
ريموند فى مقدمة الجيش ، بينما كان جى قائدا لقلب الجيش ، وتولى
الداوية ورايدفورت المؤخرة . وتزايد الاحساس بالتطير لدى كثير من
الصلبيين منذ تحركهم وبخاصة عندما ازدادت حرارة الجو وزاد عطش
الرجال والحيوان ، فى الوقت الذى أمطرهم فيه الرماة بالسهم فى جيش
صلاح الدين بوابل من السهم من كل صوب وأصبح الموقف لا يحتمل
شيئا فشيئا .

وعند الظهر أبلغ رايدفورت الملك جى أن رجاله لم يعد فى استطاعتهم
التحرك الى الأمام ، اذ أصبحوا فى حالة انهك . اذ أنه بسبب شدة حرارة
الجو ، ونقص المياه ، والهجمات الشرسة التي واصلها فرسان العدو دون
توقف لم يعد فى امكان رجاله المسير . واذا لم يأمر جى بالتوقف عن
المسير ، فسيحدث العدو تفرقة بين رجال رايدفورت ، وباقي الجيش يترتب
عليها حتما القضاء التام على الجميع . وبرغم أنه كان قرارا خطيرا ، فان
جى شعر أنه ليس أمامه خيار فى هذه الحالة . فأصدر جى الأمر بالتوقف ،
واقامة معسكر ، وهم فى وسط الصحراء حيث أطلق العدو الصيحات
العالية ، بعد أن حشد أعدادا كبيرة من حولهم ، مع أنهم ما زالوا فى
منتصف الطريق الى طبرية ، وعلى بعد عدة ساعات من مكان الماء ،
وبالنسبة لريموند والعديد من الفداة الآخرين كان قرار جى بالتوقف
بمتابة كارثة ووفقا لما ذكره أحد المؤرخين ، فان ريموند ، ما أن علم بقرار
جى حتى صرخ قائلا : « وا أسفاه ! لقد انتهت الحرب يا الهى ! وأصبحتنا
فى عداد الموتى » !

وعسكر الجيش الصليبي بصفة مؤقتة فى العراء ، فى مكان يدعى
ماريسكاليا Marescallia بالقرب من قرية حطين ، عند أسفل سفح
هضبة صغيرة داكنة اللون بلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة آلاف قدم عن قرية
طبرية . ويطلق السكان الأصليون على الهضبتين الصغيرتين عند قمة التل
اسم قرنى حطين ، ويقال ان المسيح (عليه السلام)لقى موعظة على
الجبل فى هذا المكان المرتفع . وبالنسبة للمسيحيين تكشف لهم أن تلك
الليلة كانت من ليالى الجحيم بكل حق وصدق . اذ لم يكن هناك ما يطفىء
ظمأهم . فلم يكن الغبار أن يهدأ حتى أشعل العرب أغصان شجيرات
أحدثت دخانا خانقا كاد أن يقضى عليهم خنقا . وكتب المؤرخ ان الحصار

الذى ضربته العدو حول الصليبيين كان محكما للحد الذى جعل من
المستحيل على هرة اجتيازه . وبالإضافة الى حالة اليأس التى انتابت
المسيحيين ، عندما أطلق العدو صيخة الابتهاج بالنصر قائلين : الله أكبر
لا إله الا الله ! ، وأدى ضعف الروح المعنوية للجيش المسيحى الى حالة
من الاجهاد البدنى الشديد والذعر الكامل .

وفى صباح اليوم التالى ، فى الرابع من يوليو ، استأنف الجيش
الصليبي الذى علت وجوه رجاله وملابسهم الأتربة والغبار سيره الشاق
حتى حوالى الظهيرة استمر الرجال فى التقدم ، وفى ذلك الحين كانت قد
تلاشت مقدرة المشاة على المقاومة كلية . لقد عانوا الأمرين من متاعب
اليوم السابق ، وفى ذلك الحين رفضوا أن يلحقوا بالفرسان وتسلق
المشاة سفح التل . ومن المحتمل أنه أحد قرنى حطين ، وتسمرؤا فى
مكانهم برغم توسلات قادتهم ، ونصائح الأساقفة الذين أرسلهم جى ليحضهم
على القتال . وهناك التقى بهم العرب . ومن لم يذبح من الجنود
كالماشية ، أو يصاب بجروح قاتلة ، ساقه العرب ليبيع فى أسواق
النجاسة .

وفى الواقع كان الموقف باعثا على اليأس . فبدون حماية المشاة
أصبح الفرسان مكشوفين لهجوم رماة السهام العرب بشكل مباشر .
وتمكن ريموند وأتباعه من أن يشقوا طريقهم عبر الحصار ، ولاذوا بالفرار .
وكانت قلة أخرى قادرة على النجاة بنفس الطريقة . ويقال ان ستة من
الفرسان تمكنوا من الفرار . وربما أغرى صلاح الدين الحال الجرح
للجيش الصليبي ، ولذلك أمر صلاح الدين بشن هجوم آخر .

وذات أشرس المعارك ضراوة على قمة أحد القرنين ، ومن المحتمل
أنها نفس القمة التى شهدت مذبحه المشاة فى أوائل النهار . ووفقا
لشهادة ابن صلاح الدين فان الفرسان المسيحيين شنوا هجوما مروعا ضد
المسلمين وصلاح الدين الذى بدا حزينا وشاحب الوجه . وخينثذ وبناء
على أمر صلاح الدين شن المسلمون هجوما مضادا على المسيحيين تمخض
عن ترك المسيحيين لمكانهم ، والنزول الى سفح التل للمرة الثانية غير
أنهم صدوا المسلمين ثانية . على أن هجوما مضادا للمسلمين حقق نجاحا .
وما أن رأى صلاح الدين سقوط علم الملك على الأرض حتى قفز من على
ضهوة جواده وسجد لله شكرا ، اذ تأكد أنه أحرز النصر النهائي .

كانت المذبحة كبيرة جدا ، وتم أسر أعداد كبيرة من المسيحيين ويقال
ان صلاح الدين ذبح ريجينالد بيده . وأطلق صلاح الدين سراح جى ،
وبعض كبار رجال دولته وأى شخص آخر استطاع أن يفدى نفسه بما
طلبه صلاح الدين من الذهب ، باستثناء الداوية والاستتارية . اذ قام
صلاح الدين بأعدامهم علنا . ونجا رايدفورت حيث تجرع مرارة الكارثة

التي تحمل مسئوليتها الى حد كبير . أما الصليب الحقيقي فلا يعلم أحد شيئا عن مصيره .

كانت نتيجة معركة حطين مفاجئة ، وعاجلة ، ودائمة . فنظروا لأن الحاميات في كل أنحاء مملكة بيت المقدس قد استنفدت في حشد قوات الجيش الصليبي ، فان كثيرا من القلاع استسلمت دون مقاومة تقريبا . وذكر مؤرخ عربي أن اثنتين وخمسين قلعة تمت السيطرة عليها في الحال . وفي العاشر من يوليو سقطت عكا . وفي الرابع من سبتمبر سقطت عسقلان . وفتحت بيت المقدس أبوابها لصالح الدين في الثاني من أكتوبر ، وصارت مملكة بيت المقدس أثرا بعد عين . على أن صلاح الدين واجه صعوبات في المدن الساحلية نظرا لتلقيها المساعدات من البحر . وظلت كل من طرابلس وأنطاكية ، وصور في أيدي المسيحيين ، غير أن الهزيمة الشنيعة التي نجم عنها فقدان الكثير في وقت قصير ، هزت أوروبا الغربية من الأعماق ، ودفعتها للقيام بعمل فوري - ففي يناير الذي تلا سقوط مملكة بيت المقدس كان كل من ريتشارد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا يخططان بالفعل للقيام بالحملة الصليبية الثالثة .

ولو أخذ القادة المسيحيون بنصيحة ريموند ولم يغادروا صفورية من أجل فك الحصار عن طبرية ، لما كانت هناك حاجة الى حدوث معركة حطين ، أو حملة صليبية ثالثة ، وربما ما احتاجت أوروبا لارسال جيوش كبرى الى سوريا . وبعد موقعة حطين ، بدأت مكانة صلاح الدين العالية ، ونفوذه في الازدهار ، ولم يحدث للعالم الاسلامي أن أنجب قائدا في مثل منزلته الرفيعة استطاع مواصلة الحرب ضد الصليبيين . وبالنسبة لأوروبا الغربية ، فمنذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر فصاعدا ، فان ملوكها كانت لديهم أهداف أكثر أهمية من أن يشغلوا اهتمامهم بالقيام بحملة صليبية أخرى .

٦ - معركة بوفين

كان هنرى الثانى ملك انجلترا ، ولويس السابع ملك فرنسا فى منازعات متكررة . اذ كان لويس متضايقا بسبب الأعداد الكبيرة من الاقطاعات التى كانت فى حوزة هنرى فى فرنسا ، ومنها الاقطاعات المهمة مثل نورماندى Normandy وأنجو Anjou ، واقطاعية تولوز Toulouse فى جنوب فرنسا التى تنازعا عليها . واكتسب هنرى حقوقه عندما تزوج اليانور من اكويتين Eleanor of Aquitaine التى كانت زوجة لـ لويس من قبل . وكان لويس قد طلقها لعدم قدرتها على انجاب ولد له . ولما تزوجت هنرى أنجب منها خمسة أبناء (١) . واختلف الملكان أيضا بسبب توماس بيكيت Thomas Becket رئيس أساقفة كانتربرى Canterbury وكانت الاجراءات القاسية التى اتخذها هنرى لتشويه سمعة هذا الأسقف تشويها كاملا دافعا له على الهروب الى فرنسا ، حيث وجد المأوى عند لويس . وأخيرا ظل لويس يشجع أبناء هنرى المشاكسين على تحقيق طموحاتهم الخاصة بالسيطرة على اقطاعات والدهم التابعة له فى فرنسا .

وكانت تلك المنافسة الصفة المميزة للملوك العصور الوسطى الذين تربطهم علاقات الجوار . ولم يكن يحمل أحدهما للآخر أى كراهية أو حقد . ويبدو أن هذين الملكين استفادا من علاقاتهما الزوجية القوية التى ربطتهما باليانور ، التى كانت عالية الهمة ، الأمر الذى جعلهما يشعرا بمشاعر الرفقاء . على أية حال رجب هنرى بالملك الذى تربطه به صلة القرى فى دوفر Dover ومنها اصطحبه الى مزار توماس بيكيت الشهير بالقرب من مدينة كانتربرى سنة ١١٧٩ م . وقد حدث أن نال لويس شفاعة القديس لابنه العليل فيليب الذى كان يحتضر وشاركه هنرى فى صلواته . ولو كان هنرى يعلم ما تخفيه الأيام لما شارك لويس فى صلواته ، ولا سمح له بالقدوم الى كانتربرى ليلمس شفاعة القديس العظيم . ذلك لأن الصبى فيليب استرد صحته ، وخلف والده تحت اسم فيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) . بزت أعماله ، وكان ذلك على حساب انجلترا

ومصالح هنرى هناك . وفى بوفين Bouvines احدى المعارك الفاصلة فى
العصور الوسطى ، قضى فيليب على هذه المصالح .

وأبدى فيليب الثانى ، والمشهور فى التاريخ باسم فيليب اغسطس
قدرا يسيرا من الدلالة التى تبشر بعلو شأنه وبأنه سيصبح أعظم ملوك
فرنسا فى العصور الوسطى . وكان لا يرى الا بعين واحدة ، وربما كان
ذلك سببا فى جعل الناس يتخذونه مادة للمزاح . بيد أنه لا يوجد شيء
يقلل من مكانة الرجل نفسه . وقليل من الحكام امتلكوا قدرا كبيرا من
المعرفة العملية أو المقدرة والمثابرة لتحقيق أهدافهم .

وكما حدث قدمت مشاكل فيليب مع زوجته أنجبورج مثالا واضحا
آخر على اصراره ومثابرتة ، اذ كان قد تزوج أنجبورج شقيقة ملك الدانمرك
سنة ١١٩٣ م ، لكى يحصل على مساعدة الأسطول الدانمركى فى غزو
انجلترا . وفى سنة ١٢١٣ م أعاد فيليب أنجبورج الى عصمته ، لكى يقود
حملة صليبية بابوية ضد انجلترا عندما أراد البابا انوسنت الثالث
Innocent III عزل الملك حنا . وتلك كانت الفكرة المتسلطة تسليطا مطلقا
على فيليب وعاش لها طوال حياته ، ولم يكن قائما بحرمان ملك انجلترا
من كل الاقطاعات التابعة له فى فرنسا فحسب ، وهو الشيء الذى حققه
تقريبا ، وانما كان هدفه الأساسى هو التوحيد الفعلى لتاجى انجلترا
وفرنسا بشكل واقعى تحت اسمه أو اسم ابنه .

تعلم فيليب منذ صباه أن ينظر الى انجلترا كعدو . بل ان أى شاب
قليل النضج العقلي كان يدرك هذه الفكرة ، اذ كان هنرى ملك انجلترا
يحكم أجزاء من فرنسا تزيد على مساحة الأجزاء التى كان يحكمها والده
لويس ، على أن الأراضى التى امتلكها هنرى فى فرنسا كانت فى حوزته
على أنها اقطاعات تابعة لملك فرنسا ، وكان على هنرى أن يقدم كل
مستلزمات الولاء الاقطاعى المادية فى شكل خدمات أو أموال . على أن
هذه العلاقة الاقطاعية لم تخف حقيقة أن هنرى مارس نفوذا أو سلطة أكبر
فى تلك الأقاليم . وجنى منها موارد مالية أكثر مما حصل عليه لويس .
وربما قبل لويس هذا الوضع ، بيد أن ابنه فيليب وجد أنه أمر لا يمكن
السكوت عليه .

واشتملت ممتلكات هنرى على سلسلة من الاقطاعات التى امتدت على
طول كل الشاطئ الأطلسى من نورماندى فى الشمال الى أكويتين Aquitaine
فى الجنوب . ولا يوجد ملك فرنسى لديه الوسيلة للعمل بطريقة أو
بأخرى يقبل موقفا يرى فيه ملكا أجنبيا يدير شئون مساحات كتلك
من الأراضى الفرنسية ، لذلك بذل فيليب كل جهد لتغيير ذلك الموقف .

وأولى فيليب معظم عنايته باقليم نورماندى الذى يقع فى مواجهة بحر المانش ، الذى يفصل بين انجلترا وفرنسا ، والذى من المحتمل أنه كان أغنى وأفضل الاقطاعات بالنسبة للاقطاعات التى كانت تحت يد ملك انجلترا . وأبدي عناية أقل باقليم أكويتين الذى كان بالجنوب ، وإن كان أكبر الاقطاعات التى كانت تحت يد ملك انجلترا . بيد أنه من الصعب السيطرة عليه ، وفى الوقت نفسه كان أبعد الأقاليم عن انجلترا . أما اقليم تولوز Toulouse فقد تجاهله تقريبا ، كما تجاهل الحملة الصليبية الإلبجنيسية Albigensian Crusade التى كانت تقاتل هناك ، إذ كان من الممكن ترك تلك الأقاليم فى الجنوب والجنوب الغربى الى حين ، حيث كانت انجلترا أشد أعداء فيليب خطورة . لذلك ما أن وضع فيليب يده على نورماندى ، فإنه لم يحقق لنفسه الأمان من تهديدات انجلترا فحسب ، وإنما جعل نفسه فى موضع يسمح له بتهديد انجلترا .

وباستثناء انجلترا أبدى فيليب اهتماما كبيرا باقليم الفلاندر وذلك لأن موقعه فى الشمال الغربى لفرنسا وفى مواجهة انجلترا ، أضفى عليه أهمية غير عادية ، إذ كانت هناك تجارة نشطة متزايدة بين انجلترا وبينه تقوم على انتقال الصوف الانجليزى الخام اليه فى مقابل المصنوعات الصوفية الفلمنكية . وكان لويس والد فيليب قد أدرك الأهمية الاستراتيجية للاقليم بالنسبة للدفاع عن فرنسا ، وكذلك الخطر الذى تشكله تجارة الأصواف على فرنسا فى المستقبل . وخطب لويس لابنه فيليب وريثة الاقليم المتاخم لذلك الاقليم من ناحية الجنوب ، والذى يقع فى المنطقة التى عرفت باسم أرتوا Artois فيما بعد . ثم تزوج فيليب الفتاة . وعندما كان فيليب فى سوريا مشاركاً فى الحملة الصليبية الثالثة ، جاء نبأ وفاة والد زوجته . لذلك ترك ريتشارد قلب الأسد والحرب مع صلاح الدين ليعود الى وطنه لوضع يده على اقليم ارتوا الذى آل اليه بحكم الوراثة فى تلك الفترة الحرجة .

ومنذ غادر فيليب سوريا فجأة ، لم تعد هناك أى محبة أو ثقة بينه وبين ريتشارد . إذ كانوا من قبل أصدقاء وحلفاء ، على عكس ما كان عليه الحال مع هنرى الثانى والد ريتشارد . وكان فيليب أصغر سناً من ريتشارد ، بيد أنه كان أكثر دهاء من زميله القوى البنية ، وعمل على تقوية المشاعر الودية مع ريتشارد على أمل استغلاله ضد والده . وكان قد قام بتشجيع ريتشارد الابن العاق ، فى طموحاته للسيطرة على اقطاعات هنرى فى فرنسا . وهو مطمع سوف يؤدي الى إثارة الوالد على ابنه بالإضافة الى وضع ريتشارد تحت تصرف فيليب ، حيث كان فيليب

وإنقا من مقدرته على السيطرة عليه . وتشمل تلك الاقطاعات الجزء الأغنى ، والأكثر سكانا فى امبراطورية هنرى التى عمل من أجل اقامتها بكل جهد منذ زمن طويل . ورغم أنها كانت مملكة مترامية الأطراف ، فان هنرى لم يكن مستعدا للتخلى عن ادارة أى جزء منها ليس لمجرد الأنانية ، وإنما الخوف من أن اساءه أبنائه لادارتها ، قد يسمح بتحويلها الى فيليب . وفى النهاية انقلب كل أبناء هنرى على والدهم ، وكان ريتشارد قد تبرأ من ولائه لوالده قبل وفاته فى يولية ١١٨٩ م ، وأعلن تبعيته الاقطاعية لفيليب باقطاعاته التى يملكها اسميا من والده فى نورماندى ، وأنجو Anjou .

وإذا كان فيليب قد اعتقد أن ريتشارد قد يكون عدوا أقل خطورة من والده هنرى الثانى ، فانه كان مخطئا . اذ عوض ريتشارد عن افتقاره الى القدرات الادارية والدبلوماسية بمعرفته للشئون الحربية وتمتعه بقدر من الشجاعة الشخصية ، التى توازنت مع تفوق فيليب فى درايته بفن ادارة شئون الدولة ، وإبان فترة بقاء ريتشارد فى سوريا لمحاربة صلاح الدين كان فيليب قد دخل بقواته الى اقليم نورماندى فى مؤامرة مع حنا الأخ الخائن لشقيقه ريتشارد الذى أغراه فيليب بمحاولة اعتلاء عرش انجلترا . وعندما عاد ريتشارد من الحملة الصليبية ومن سجنه فى ألمانيا ، استرد على الفور الأراضى التى كان فيليب قد وضع يده عليها . ثم سلم ريتشارد الاقليم المعروف باسم فكسين Vexin الى فيليب على أمل الوصول الى تسوية دائمة معه ، وهذا الاقليم عبارة عن قطعة أرض مثلثة الشكل متداخلة بين أراضى نورماندى وأنجو ، وهى بمثابة مفتاح يمكن منها السيطرة على نورماندى . ولكى يحبط كل محاولات فرنسا للسيطرة على اقليم نورماندى ، شيد ريتشارد قلعة جيار Chateau Gaillard على جزيرة نهر السين Seine وهى أقوى قلعة عرفها غرب أوروبا . وهكذا قابل فيليب شخصا لا يقل عنه فى شئ ويصعب عليه اخضاعه اليه . ولولا اصابة ريتشارد بسهم ملوث (٢) أودى بحياته فى ابريل ١١٩٩ م ، لتغير مجرى تاريخ انجلترا وفرنسا ، ولما كانت معركة بوفين Bouvines ولما انتهت بالنصر لصالح فيليب .

وجد فيليب فى حنا (جون) شقيق ريتشارد خصما أقل تشددا . الا أنه فيما يتعلق بمدى موطن الضعف فى شخصية حنا فقد يختلف العلماء فى تقديرهم ، وبصفة عامة وصفوه بأنه كان غادرا وقاسيا ومتهورا ، وشديد الذهاء ومخادعا ، ولم يخلص الا لوالدته ، اذ كانت والدته اليا نور Eleanor صديقتها الوحيدة . ورغم ما قيل عن حنا ، فانه كان من الممكن أن يترك سجلا تاريخيا ايجابيا فى صالحه ، لولا المؤرخون الذين المعادون

له الذين كانوا يخشون بأسه ، ولولا المشاكل الخطيرة التي جابهته . على أن العديد من تلك المشاكل كانت من صنعه . ومن أمثال تلك المشاكل خلافه الذي طال أمده مع البابا انوسنت الثالث Innocent III بسبب ستيفن لانجتون Stephen Langton الذي اختاره لمنصب رئيس أساقفة كانتربري ، بيد أن حنا لم يوافق عليه . وفي هذا النزاع استطاع حنا أن يبرهن على أن أسلافه الملكيين قاموا جميعا باختيار الرجل الذي كان يشغل هذا الكرسي الأسقفى . ومع ذلك فإن رفضه المتشدد لقبول ستيفن ، ولم يكن من سبب لهذا الرفض سوى العناد الذي جلب عليه صدور قرار الحرمان الكنسى ضده ، والكثير من البلايا على انجلترا ، وكان من أسباب ذلك أيضا حاجته الى موارد الكنيسة المالية التي صادرها فترة الحرمان الكنسى .

وكان زواج حنا المفاجيء من ايزابلا وريثة أنجوليم Angouleme Isabella of عقبة أخرى في طريقه ، وربما كان هذا الزواج وليد الحب عندما قابلها في اكويتين وهو في طريقه الى قشتالة Castile حيث كان عليه اتمام استعدادات زواجه من وريثة البرتغال . ويبدو أن والدة حنا باركت هذا الزواج ، التي ظلت متوقدة الذهن رغم تقدمها في السن ، وكانت ايزابيلا وريثة لاقليم أنجوليم ، وهو الاقليم الذى له تاريخ طويل في معارضة الحكم الانجليزى في اكويتين . وكانت مخطوبة من قبل الى هوج الأسمر Hugh the Brown من بيت لوزينيان Lusignan ، وهى أيضا أسرة معادية للحكم الانجليزى ، وكان من الممكن أن يوحّد زواج ايزابيلا من هوج تلك الأسرتين القويتين في تحالف قوى . معرضا للخطر أى أمل انجليزى فى السيطرة على اكويتين ، وبالمثل كان من الممكن أن يقطع وسيلة المواصلات البرية بين اكويتين فى الجنوب ، والاقطاعات الانجليزية الأخرى فى الشمال .

وعلى الرغم من أن زواج حنا السريع يمكن تفسيره وفقا للدوافع الدبلوماسية ، فانه قدم لفيليب أغسطس الذريعة القانونية لإعلان مصادرة اقطاعات حنا عندما تخلف عن المثول أمام القضاء فى باريس لسماع قرار المحكمة الاقطاعية . وكان هوج وعائلة لوزينيان قد ناشدوا الملك فيليب أن يدفع لهما التعويضات التى طالبا بها بعد رفض حنا . وكان اقمحام فيليب نفسه فى هذا النزاع أمرا مناسبا تماما فى مثل هذه الحالة ، حيث انه السيد الأعلى لكل من حنا وعائلة لوزينيان . وكان فيليب قد أعد العدة لغزو نورماندى . ولو لم يقدم احتقار حنا للمحكمة برفضه الحضور أمامها المبرر لفيليب لإعلان مصادرة ذلك الاقليم ، لكان قد اخترع بعض المبررات الأخرى للغزو .

كان من الممكن أن يواجه فيليب صعوبات في تنفيذ قرار محكمته في باريس لولا الأخطاء الأخرى التي ارتكبها حنا . إذ لم تكن نورماندى سعيدة في عهد حكم حنا المتسلط ، وثار هذا الاقليم بسبب أعمال السلب والنهب التي مارستها قواته المرتزقة بصفة خاصة . ومع ذلك فإن اقليم نورماندى كان من الممكن أن يواصل بعزم وعناد مقاومته لفيليب لولا معاملة حنا لآرثر شقيقه الأكبر ، وكان كونتا Count لاقليم بريتانى . ولو أن قواعد الوراثة تم تطبيقها بكل دقة لأعطى آرثر العرش الانجليزى عند وفاة ريتشارد ، وهو الأمر الذى تمنى فيليب حدوثه . بيد أن ريتشارد وإيليانور أعلنوا موافقتهم على اعتلاء حنا للعرش ، لأن كلا منهما شعر بعدم مقدرة آرثر على التصدى لخطه فيليب الماكر فى الاستيلاء على نورماندى . والاقطاعات الانجليزية الأخرى . ولفترة من الوقت راود فيليب الأمل فى أن يعتلى آرثر العرش . ولكن أخيرا فى سنة ١٢٠٠ م اعترف بحنا كملك شرعى على كل هذه الاقطاعات فى فرنسا .

ثم غير كل ذلك صدور قرار المحكمة فى باريس . إذ اعترف فيليب على الفور بآرثر كحاكم على بريتانى . ودين Maine ، وأنجو Anjou وأكويتين ، أما نورماندى فقد آلت الى فيليب مباشرة وفقا لقرار المحكمة . وبدا الموقف سيئا بالنسبة لحنا ، إذ كان على آرثر وعائلة لوزينيان وأصدقائهم الاتجاه جنوبا الى أكويتين ، فى الوقت الذى اتجه فيه فيليب بقواته الى نورماندى . وقامت قوات آرثر بهجوم سريع واحتلت مدينة ميريبو Mirebeau التى تصادف وجود إيلانور ، والدة حنا بها . ونجحت إيليانور فى الهروب الى قلعة المدينة . وأرسلت منها رسالة عاجلة الى حنا طلبا للمساعدة . وهذه هى المرة الوحيدة فى حياته التى أبدى فيها حنا استعدادا حقيقيا وعن طيب خاطر . إذ وصل على وجه السرعة لانقاذ والدته ، وأسر آرثر الذى لم يكن يتوقع ذلك ، وكذلك أسر لوزينيان وهما فى فراشهما .

وكان وقوع آرثر بين يدى حنا نذيرا بتبدد أحلام فيليب . وعندما اختفى آرثر ، انطلقت شائعات أن حنا قتله فى ثورة غضب انتابته وهو ثمل . على أن جريمة حنا الحقيقية أو المزعومة جعلت المقاومة فى نورماندى والأقاليم الشمالية الأخرى ضد فيليب تتضاءل . وفى ديسمبر ١٢٠٣ م تخلى حنا عن كل فرنسا باستثناء أكويتين ، على الرغم من صمود قلعة جيار حتى مارس من العام التالى . وبنهاية سنة ١٢٠٦ م صارت كل الممتلكات الانجليزية فى فرنسا تحت سيطرة فيليب باستثناء أكويتين .

ولو أن حنا رضى بضياح تلك الأقاليم لتغير مجرى الحوادث فى غرب أوروبا ، أبان العقد التالى بشكل جوهري . وربما لم يصل الأمر فى انجلترا الى حد المواجهة كما حدث فى رينميد Runnymed بين حنا وباروناته . وربما لم يصدر العهد الأعظم (الماچنا كارتا) نتيجة للاجراءات القاسية التى اتخذها حنا لجمع الأموال وحشد الرجال لاسترداد الأقاليم التى ضاعت فى فرنسا الأمر الذى أدى الى ثورة بارونات عليه . ومن الواضح أنه لم يكن هناك مبرر لمعركة بوفين ، اذ ان هذه المعركة دارت رحاها لتقرر بصفة نهائية اذا ما كان حنا قادرا على استرداد تلك الاراضى من عدمه ، (وكما سيتم ذكره فيما بعد ، صار فردريك ملك صقلية الصغير فردريك الثانى ملك ألمانيا ، نظرا لخوف فيليب من حنا ، ومن أوتو الخامس حليفه الذى كان يحكم ألمانيا ، الأمر الذى جعل فيليب يساعد فردريك فى طموحه ليحل محل أوتو) .

على أنه من الصعب ادانة حنا لجعله مسألة استرداد تلك الأقاليم هدفه الأسمى فى عهده حتى لو كان دافع هذا هو العناد اذ ان الواجب الاول لأى ملك يختم عليه الحفاظ على ما ورثه عن أسلافه . وكان اقليم نورماندى تحت حكم الانجليز منذ سنة ١٠٦٦ م ، عندما جعل وليم دوقها من نفسه ملكا على انجلترا . أما معظم الممتلكات الأخرى فانضمت الى بريطانيا فى عهد والده هنرى الثانى ، الذى أصبح كونتا على أنجو ، وبريتانى ودوقا على أكويتين بعد زواجه من اليانور .

على أن أكويتين الاقليم الوحيد الذى ظل تابعا لحنا فى فرنسا لم يكن معرضا لخطر الضياح . اذ لم يمارس أبدا ملك فرنسا سلطة مباشرة على الاقليم ، بالإضافة الى أن الطبقة الارستقراطية به فضلت من الناحية الفعلية دعاوى ملك الانجليز البعيد عن دعاوى الملك الفرنسى القريب . وظلت على ولائها للملك انجلترا طالما لم يحاول الانتقال من تمتعها بالحكم الذاتى . وأبان الحكم الانجليزى للاقليم نشطت تجارة الخمور المزدهرة بين انجلترا وجاسكونى Gascony فى أقصى الجنوب من اقليم أكويتين . وكان للشعور الودى الذى فجرته هذه التجارة تأثير وقوة عند سكان جنوب غرب فرنسا أكثر من الشعور القومى فى عصر لم يكن لدى الانسان سوى القليل من الاحساس بهذه الفكرة العاطفية .

لقد أدرك حنا ادراكا كاملا قوة سحر المال مثل والده . ولا ريب أنه لا يوجد شيء يمكن أن يضاهى المال فى كسب الرجال والمعارك . ولكن هنرى أبدى اعتدالا فى زيادة الموارد المالية ، على النقيض من ابنه . واستحدث هنرى البدلية Scutage وهى رسم يدفعه أتباع الملك الاقطاعيين اذا ما رغبوا ، بدلا من تقديم الخدمة العسكرية المفروضة عليهم تجاه

ملكهم • بيد أن هنري فرض هذه الضريبة وفقا للحاجة • لكن حنا لم يفعل كما فعل والده • اذ طلب البدلية سنويا حتى سنة ١٢٠٦ م ، ثم سنويا مرة ثانية من سنة ١٢٠٩ م الى أن ثار البارونات عليه • وبرغم ذلك فان المطالب المالية التي ألزم باروناته بسدادها ، من المحتمل لم تكن هي التي عجلت بقيام الثورة • وانما هناك حوادث أخرى وعلى رأسها هزيمة حلفائه في موقعة بوفين • وفي تلك الفترة وجد حنا في الكنيسة الانجليزية ضحية أكثر استسلاما لسياسته المالية الاستبدادية ، فمنذ سنة ١٢٠٨ م حتى سنة ١٢١٣ م ، وهي مدة قرار الحرمان الكنسي الذي أصدره البابا ضد حنا ، قام موظفوه بمصادرة الموارد الكنسية ، وتركوا رجال الكهنوت يعيشون على الكفاف • وبفضل المبالغ الضخمة التي صادروها - كان حنا على استعداد لسداد ما يزيد على عشرة آلاف مارك Mark (١) واستأجر حنا القوات المرتزقة لحروبه ، هذا في الوقت الذي أرسل فيه مندوبوه ومعهم حقائب مملوءة بالذهب لشراء الأصدقاء من بين الطبقة الارستقراطية في الأراضي المنخفضة أو ألمانيا •

لقد كان حنا في أمس الحاجة الى الحلفاء بنفس قدر حاجته الى القوات المرتزقة ، من أجل تحقيق أمله في استرداد الاقاليم التي صارت في أيدي فيليب • وكان اقليم الفلاندر ، وكذلك الإمارات على امتداد الحوض الأدنى لنهر الراين منطقة حرجية ، غير أن نواب حنا توقعوا أن يفتحوا الأبواب عن طريق المال • وكان فيليب مدركا لهذا الخطر • وكان أخطر ما في الأمر علاقة الصداقة مع اقليم الفلاندر • ففي سنة ١٢١٢ م سعى فيليب الى اتمام زواج وريثة ذلك الاقليم بفيراند Ferrand ابن سانكو الاول Sanch I حاكم البرتغال ، بل انه عمل على أن يتم عقد زواج الخطيبين في كنيسة القصر الملكي في باريس • وربما كان الاجراء كفيلا بضمان ولاء العريس الشاب لفيليب ، لولا قيام لويس بن فيليب بانتزاع العديد من مدن اقليم الفلاندر بموافقة والده ، ومن بين تلك المدن الموطن المزدهر لجماعة القديس أومير Saint Omer فانضم فيراند الغاضب على الفور الى حلفاء حنا الذين تزايد عددهم • وانضمت كونتيه Boulogne التي تقع على الحدود الجنوبية لاقليم الفلاندر الى حنا • وفي مايو ١٢١٢ م قام رينو من دامتري Reneaud of Dammetrin بقبول اقطاع مالي من حنا • وعندما طرد فيليب المتشكك رينو من بولون ، صار الكونت

(١) المارك وحدة نقد انجليزية قديمة تعادل ١٣ شلن و ٤ بنسات ، وتزن حوالى ثمانى أوقيات أو ما يعادله ٢٤٨.٨ أو ٢٤٨.٨ جراما - المترجم •

رينو اشد اتباع حنا تخمينا في منظمة التحالف الانجلو - جرمانى ضد ملك فرنسا .

والامر الذى جعل هذا التحالف الشمالى خطيرا جدا على فيليب هو ولاء اوتو الخامس ملك ألمانيا والامبراطور الرومانى المقدس لهذا التحالف . وكما جرت الحوادث أصبحت ألمانيا شريكا فى التحالف ليس بسبب الصراع بين حنا وفيليب ، وانما لأن التاج الالمانى أصبح طرفا فى هذا النزاع . ولمعرفة الخلفية التاريخية للموقف فى ألمانيا ، فمن الضرورى العودة الى سنة ١١٩٧ م ، وهى السنة التى مات فيها هنرى السادس ملك ألمانيا والامبراطور الرومانى المقدس . اذ ان موته المبكر وهو فى الحادية والثلاثين من عمره سبب الفوضى والشقاء لألمانيا ، لأنه ترك ابنه فردريك الذى لم يبلغ الثالثة من عمره ليحكم اراضى مترامية الأطراف . وكانت كونستانس Constance والدته فردريك ابنة لملك صقلية التى كانت ضمن امبراطورية هنرى السادس . وكانت كونستانس تأمل فى أن تستعيد تلك الجزيرة لابنها ونجحت فى ذلك ، وكان فيليب من سوابيا Swabia شقيق هنرى السادس قد أبدى رغبة فى التمسك بتولية فردريك عرش ألمانيا ، غير أنه كان واضحا أن الأمراء الألمان لن يقبلوا ملكا طفلا ، لذلك نادى لنفسه بالعرش . واختارت الغالبية العظمى من الأمراء فيليب ، على الرغم من أن مجموعة كبيرة قبلت من ريتشارد ملك انجلترا الأموال ، وأعلنوا تأييدهم لابن أخت زوجته أوتو من برونسويك Otto of Brunswick .

وفى ذلك الحين شهدت ألمانيا خمس عشرة سنة من الحرب الأهلية التى ليس لها هدف محدد ، برغم ما أحدثته من خراب ودمار ، والتى لم تنه الا بقرار دخول معركة بوقين ، وبرغم خلافات أمراء ألمانيا التقليدية فانه كان فى امكانهم اختيار ملك لو تركوا لأنفسهم بيد أن اقتقارهم الى الوحدة جلب عليهم التدخل الأجنبى . وكان ملوك انجلترا وفرنسا والبابا انوسنت الثالث على رأس هؤلاء الأجانب .

عمل ريتشارد على اعتلاء أوتو للعرش . اذ انه كان ابن شقيقة زوجته المفضل اليه . وكان أوتو قد تربى تحت رعاية البلاط الانجلو - نورمانى حيث حظى بحب زوج نخلته لشجاعته ولياقته البدنية الفائقة . كما كان أوتو ممثلا لما أطلق عليه اسم المصالح الويلفية Welf interests التى تنهى أن يتروك الملك حكم الولايات الواقعة على امتداد بحر الشمال والحوض الأدنى لنهر الراين الى حكامها . وحيث تستطيع المصالح الانجليزية أن تزدد قوة بالمخل تقريبا . ونظرا لما حظى به أوتو من تأييد بريطانى قوى ، فانه كان فى امكانه النجاة فى توحيد ألمانيا لولا مواطن

الضعف فى شخصيته اذ وصفه مؤرخ بأنه كان « متكبرا » أحمق ،
ولو أنه كان شجاعا » .

ونظرا لأن ريتشارد ومن بعده خليفته حنا ساعدا أوتو فى الصراع
على التاج الألمانى ، كان من المسلم به أن يعارض ذلك فيليب أغسطس
ملك فرنسا ، وأن يؤيد ترشيح فيليب من سوابيا Philip of Swabia
ملكا على المانيا .

كان فيليب أحد أفراد أسرة الهوهنشتوفين Hohenstaufen
أشهر أسرة فى تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى . وحكمت هذه الأسرة
ألمانيا إبان النصف الثانى من القرن الثانى عشر . ففى عهد فردريك
بارباروسا Frederick Barbarossa (١١٥٩ - ١١٩٠ م) ، فاخرت
ألمانيا به كاقوى ملك ومحارب صليبي فى أوروبا . وتمركزت مصالح
الهوهنشتوفين فى سوابيا وجنوب ألمانيا ، وهى الأقاليم التى كان لفيليب
بها مصالح قليلة .

أشار المؤرخون بصفة عامة الى البابا انوسنت الثالث الذى غطت
فترة بابويته تلك الفترة التاريخية الحرجة ، كاقوى بابوات أوروبا فى
العصور الوسطى وأكثرهم طموحا اذ كان اصلاح الكنيسة من بين أهداف
انوسينت الكبرى ، وهو هدف كان من الممكن الا يحظى سوى باهتمام
قليل من الملوك لو أنه لم يتعرض لنفوذهم فى اختيار الأساقفة . ولكى
يخفف البابا انوسينت الثالث من ذلك النفوذ اذ لم يكن فى استطاعته
القضاء عليه دخل فى صراع مرير وطويل الأمد مع حنا ملك انجلترا الذى
رفض الاعتراف باستيفن لايفتون كرئيس لأساقفة كانتربرى . أما فى
حالة فيليب الذى اشتبك معه انوسينت فى نزاع أيضا ، فإن موضوع
الخلاف كان شخصا الى حد كبير ، اذ كانت أنجبورج زوجة فيليب قد
استغاثت بالبابوية من أجل استرداد حقوقها كزوجة شرعية ، وشرع البابا
فى مساعدتها ، بهدف اقناع الملوك بأنهم لا يتمتعون بامتيازات خاصة
تسمو على امتيازات أى قروى من ناحية الأخلاق .

ومما عمل على تعقيد العلاقات بين انوسينت وألمانيا مركز الملك
الألمانى المهيمن الذى قد أعطاه الحق منذ أمد بعيد فى التدخل فى شئون
الكنيسة الألمانية ، وكذلك نفوذه فى إيطاليا باعتباره امبراطورا رومانيا
مقدسا وربما زاد طموح الملك الألمانى ، تحت هذا اللقب الى ممارسة السلطة
ليس فى ألمانيا فحسب وانما فى إيطاليا أيضا . وشمل ذلك روما مدينة
البابا . ونظرا لأن كل ملوك ألمانيا منذ ١١٥٢ م كانوا من أسرة
الهوهنشتوفين وحملوا لقب أباطرة رومان مقدسين فانهم ادعوا لأنفسهم

سلطات قانونية كبيرة في ايطاليا . ولذلك قام البابا انوسينت بمساندة قضية أوتو من برونسويك Otto of Brunswick بشأن خلافة العرش منذ بداية النزاع أملا في تقليص هذا التدخل في ايطاليا الى الحد الأدنى في المستقبل . لذلك بذل البابا ومستشاروه كل ما في وسعهم من أجل تقديم الأدلة القانونية على أحقية أوتو في عرش ألمانيا .

بدأ الصراع على خلافة عرش ألمانيا بمجرد وفاة هنري السادس سنة ١١٩٧ م . ومرت سنة بعد أخرى من الفوضى والمنازعات دون أن تنجلي عن ظهور ملك . وفي ذلك الوقت التف غالبية الأمراء حول فيليب من سوابيا ، شقيق هنري تحت تأثير فقدان انجلترا لاقليم نورماندي ، وتوقف تدفق الأموال الانجليزية . وفي سنة ١٢٠٦ م تدهور مركز أوتو في ألمانيا الى الحد الذي أجبره على مغادرة البلاد . وبعد أن أدرك انوسينت أن الوقت يضيع ، وعلى أمل انقاذ ما يمكن انقاذه ، توصل البابا الى اتفاق مع فيليب فيما يتعلق بحقوقهما الذاتية في ايطاليا . وفي سنة ١٢٥٨ م عندما بدا أن اختيار فيليب سيجعل ألمانيا تنعم بالسلام ، قضى خنجر عدو شخصي على الملك الجديد . وكان الأمراء الألمان قد وصلوا الى حد الارهاق والانهك ، ومن ثم رفضوا كل البدائل الأخرى ، واختاروا أوتو Otto على الفور .

غير أن انوسينت لم ينعم طويلا بهذا الكسب المفاجيء ، ونعنى بذلك، اختيار الملك الذي كان يريد لعرش ألمانيا ، اذ في خلال شهور قلائل كان أوتو يعلن مطالبته بالأراضي والحقوق الامبراطورية في ايطاليا بنفس القدر الذي أكد عليه أباطرة الهوهنشتوفين . ولو وضع أوتو حدا لمطالبه لكان من الممكن أن يتسامح انوسينت معه . ولكن اختلف الأمر عندما تحرك أوتو بقواته الى ايطاليا ، عبر الأراضي البابوية الى الجنوب الايطالي ، وأعد العدة لقيادة جيشه الى صقلية . فأعلن انوسينت وهو في حالة من الألم النفسي المبرح ، أنه ليس أمامه من خيار سوى التبرأ من أوتو ثم وافق على مرشح للعرش يمكن قبوله دون اعتراض كملك ألماني وامبراطور روماني مقدس . ولم يكن هذا الشخص سوى فردريك الشاب من بيت الهوهنشتوفين ، وهو ابن هنري السادس الذي حكم ألمانيا وايطاليا . وحصل انوسينت على وعد فردريك بترك صقلية لابنه هنري ، على أن يظل هو في ألمانيا شمال جبال الألب .

وسارع كل من أوتو وفردريك الى مغادرة شبه الجزيرة الايطالية الى ألمانيا ، التي تنازعا عرشها . على أن مصير الشاب الذي كان معلقا بخيط ، تحسن رويدا رويدا ، اذ ان اسم الهوهنشتوفين جذب بعض الأمراء ،

وبخاصة فى جنوب ألمانيا ونجح فردريك فى كسب النبلاء الآخرين بالدبلوماسية والأموال التى قدمها اليه فيليب أغسطس ومن ناحية أخرى ، فإن أساليب أتو الغنيفة بالإضافة الى افتقاره الى فن ادارة شئون الدولة ، ونزوعه الواضح الى السيطرة على ألمانيا لامجرد حكمها عوامل أفقدته بعض الأصدقاء . ومع ذلك فظالما ظلت أموال الملك حنا تتدفق ظل مركز أوتو فى شمال ووسط ألمانيا فى أمان .

ومن ثم بدأت سنة ١٢١٣ م ، وقد انقسم غرب أوروبا الى حلفين متحفرين : الاول ضم أوتو الذى ظل ملكا لألمانيا فى نظر الكثير ، وحنا ملك إنجلترا ، وكونت الفلاندر ، بالإضافة الى غالبية الأمراء بالأراضي المنخفضة والحوض الأدنى والأوسط لنهر الراين . أما الحلف المعارض ، فضم فردريك الذى نازع أوتو على عرش ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . وكان أمام المتنافسين الكبار الكثير من المخاطر . فبالنسبة لحنا كان النصر يعنى استرداد اقليم آكويتين ، وستجلب عليه المتاعب من البارونات عند العودة الى وطنه . وكان النصر يعنى لفيليب أغسطس تأمين سيطرته على اقليم نورماندى ، ومستقبل مشرف للطموحات الملكية لأسرته ، اذا ما أحرز أوتو وخلفاؤه النصر . فسيكون عرشه آمنا فى ألمانيا ، أما الهزيمة فكانت تعنى النسيان . واذا ما كسب فيليب أغسطس المعركة ، فسيكسبها أيضا فردريك الذى سيحكم عندئذ ألمانيا كملك وكامبراطور روماني مقدس ، أما اذا خسر فيليب المعركة فعليه أن يقنع فردريك بأملاكه فى ضقلية .

أين كان يقف البابا انوسينت فى هذه المعركة المرتقبة ؟ انه لم يكن متأكدا تماما ، ومن حسن حظه أنه لم يكن لديه ما يقدمه أكثر من الصلوات لأنه تحير فى اختيار الحلف الذى يعلن مساندته له . اذ كان يرى أن على المسيحيين معاربة المسلمين الذين استولوا على بيت المقدس لا أن يحاربوا المسيحيين الآخرين . أما ملكا ألمانيا فردريك وأوتو فكان الأول من أسرة الهوهنشتوفين . والثانى طموحا مثل أى فرد فى أسرة الهوهنشتوفين . ووجد انوسينت الثالث صعوبة فى تحديد أيهما أشد خطورة . وكان الأمر كذلك بالنسبة لحنا وفيليب اذا نال فيليب الخطوة من جديد فى ذلك الحين لدرجة أنه رد زوجته أنجبورج الى عصمته ، كما أن حنا لم يعد عدوا كذلك . ان امكانية اشتراك بارونات خنا الميالىن الى اثاره القلاقل ، فى حملة مسيحية تؤيدها البابوية بقيادة فيليب تعبسر القناة الانجليزية لخلق خنا عن الغرض دفعت ذلك الملك العنيد للاذعان لمطالب انوسينت اذ أقر اختيار ستيفن لانجتون فى منصبه . ثم لجأ الى مناورة بارعة ، فسلم إنجلترا الى أتوسيلت وتسلمها منه كاقطاعة على

أمل أن يحميه دوره الجديد كتابع اقطاعى للبابا من هجوم فيليب وتمرد بارونات عليه .

وكانت بعض المناوشات قد بدأت فى أواخر ربيع سنة ١٢١٣ م ، فى أعقاب استمدادات فيليب الذى جمع أسطوله وقواته فى بولونيا فى شهر أبريل ، ثم تحرك فى مايو الى جرافلين على الحدود الفلمنكية . ولم يكد فيليب يصل الى ذلك الموقع الذى يسمح له بالاقلاع الى أنجلترا حتى سلمه ممثلوا البابا أمرا بابويا بإنهاء كل الإجراءات العدائية ضد حنا التائب فى ذلك الحين . غير أن فيليب الذى كان له تاريخ طويل فى تجاهل الأوامر البابوية تجاهل هذا الأمر البابوى أيضا . وواصل اختلاله لعدد من المدن الفلمنكية بما فيها مدينتا بروج Bruges ، وجينت Ghent ثم تخلى عن التفكير فى غزو إنجلترا عندما فاجأ أسطول انجليزى أسطوله ودمر الجزء الأكبر منه . وكان هذا الاسطول الانجليزى تحت قيادة ايرل ساليزبرى Earl of Salisbury الذى كان أخا غير شقيق للملك حنا . وزاد من شعور فيليب بالحزن وخيبة الأمل اختيار كونتات بولونيا ، والفلاندر ، وهولندا تلك اللحظة لإعلان انضمامهم الى حلف حنا .

لم تكن آمال حنا فى القضاء على فيليب استعادة اقليم نورماندى تبدو قريبة المنال . وفى أواخر يوليو سنة ١٢١٣ م ، أرسل حنا وفدا الى ألمانيا للانتهاء من اعداد الخطط الحربية لتحركات الجيوش . وكان على أتو ومن معه من الحلفاء الفلمنكيين ، والذين يعيشون فى الحوض الأدنى لنهر الراين ، أن يقوموا جميعا بغزو فرنسا من الشمال الشرقى ، فى الوقت الذى يتقدم فيه حنا ، وما يستطيع تجنبه من الأصدقاء فى اقليم أكويتين عبر اللوار فى اتجاه باريس . وكان حنا مصمما على التحرك للقتال ، بيد أن البارونات فى بلاده رفضوا ذلك . وتذرعوا بأنهم ليسوا ملزمين بتقديم الخدمة العسكرية لسيدهم الاقطاعى الأعلى لأن تلك الحملة الحربية خارج حدود المملكة الانجليزية . ولم يكن فى مقدرتهم المجادلة على هذا النحو مع هنرى الثانى والد حنا . اذ كان هنرى محبوبا للغاية من الشعب الانجليزى وقويا جدا الى الحد الذى يمكنه من قبول مثل ذلك التحدى . كما أن عدد البارونات الانجليز الذين كان لهم اقطاعات فى اقليم نورماندى فى عهد هنرى ، فاق بكثير عددهم فى عهد حنا . ومن ثم لم ير هؤلاء فائدة تعود عليهم من هذه الحرب . وعلى ذلك أرجأ حنا حملته العسكرية ، وهو يعانى من مرارة خيبة الأمل .

وفى شهر فبراير سنة ١٢١٤ م ، تغيرت الظروف وأصبح حنا قادرا على التحرك مرة ثانية ، اذ نجح فى حشد جيش معظمه من القوات التى تقاتل مقابل راتب . ووصلت تلك القوات الى بلده لاروشيل

La Rochelle . في الخامس عشر من ذلك الشهر . وسارت الأمور على ما يرام في تلك الفترة ، اذ كان هدف حنا الفوري استعادة Poitou التي تقع شمال أكويتين ، وهو الأمر الذي دفع كثير من نبلاء أكويتين الى الاشتراك معه . واندفع حنا شمالا على وجه السرعة ، الأمر الذي جعل فيليب الذي كان يرقب تحركات الحلفاء الشماليين يتجه جنوبا عن طريق سومور Saumur وشينون Chinon في محاولة للحاق بحنا ، ليقطع عليه خط التراجع الى أكويتين . ولو كان حلفاء حنا الشماليين على استعداد لشن هجوم في تلك الفترة لكانت نهاية فيليب ومن سوء حظ حنا ، أن حلفاءه كانوا غير مستعدين بالرغم من أن فيليب كان قد رأى أنه ليس من الحكمة أن يعهد الى كل جيشه بالتصدي لحنا وعهد الى ابنه لويس بقيادة نصف القوات ، وعاد الى الشمال .

وعند اقتراب فيليب تراجع حنا جنوب نهر اللوار ثم عبره مرة ثانية وفي التاسع عشر من يونيو حاصر قلعة لا روش أو موان La Roche-au-Moine آخر عقبة في طريقه الى باريس . ومع ذلك ، عندما جاء لويس بجيشه ، فك حنا حصاره ، ورجع ثانية صوب الجنوب . ولم يترك له حلفاؤه من البواتين حق الاختيار ، اذ رفضوا تماما أن يحاربوا ابن سيدهم الاقطاعي الأعلى ، فيليب ملك فرنسا . وكل ما استطاع أن يفعله حنا هو التقهقر الى لاروشيل ليواجه مصيره مع أوتو وحلفائه في الشمال .

وبعد انتظار طويل أعد أوتو حلفاءه للقتال . واذا ما وضع المرء في اعتباره افتقار أوتو للكياسة في التعامل مع زملائه الارستقراطيين لما تعجب من طول هذا ولولا المال الانجليزي لما تأتى تشكيل حلف قوى من أدواق برايبوانت Braboant اللورين ، وبولونيا وهولندا ، ومن النبلاء الفرنسيين الذين تعرضوا للتشتت لخوفهم من فيليب أو من الذين طردهم . وكان كونت نيفر Nevers أكثر هؤلاء النبلاء شهرة . وأخيرا كانت فرقة انجليزية تحت قيادة حاكم ساليزيرى . وتجمعت قوات الحلفاء في هانيو Hainaut على مقربة من فالينسين Valenciennes على بعد بضع أميال من بيرون Peronne حيث يوجد فيليب وجيشه . وجاء اليوم المحتوم لكثير من السادة الاقطاعيين ولأربعة من الملوك ولممتلكاتهم جميعا .

ورغم الأهمية غير العادية لهذه المعركة ، لانعرف على وجه الدقة عدد الرجال الذين حاربوا في كل من الجانبين ، والمشكلة هنا هي الاحصاءات التي تركها الكتاب المعاصرون ، الذين كانوا يكتبون لجمهور من القراء والمستمعين كان اهتمامهم بالأعداد الصحيحة يقل عن اهتمامهم

بالتشويق الدرامي ، مما دفعهم الى اثاره اهتمام الجمهور والهاب خياله بالمبالغة في الأرقام ، كما فعل ريتشارد من سين Richard of Sens الذى ذكر أن جيش أوتو بلغ ما يزيد على مائة ألف مقاتل من المشاة ، بالإضافة الى خمسمائة وعشرين ألفا من الفرسان . ومن الصعب الوصول الى الأرقام الصحيحة اذ أن المؤرخين الذين يعتمد بهم شعروا بأنهم لم يجانبوا الصواب عندما افترضوا أرقاما تتناسب مع أهمية المعركة .

ولقد قام أومان Oman ، أشهر عالم انجليزى كتب فى فن الحرب ، بتخفيض الأرقام التى وردت فى المصادر المعاصرة عن جيش فيليب الى حوالى ألفين وخمسمائة فارس ثقيل العدة ، وخمسة وعشرين ألفا من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان خفيفى العدة . وبالنسبة لأوتو وحلفائه خصص لهم حوالى ألف وثلاثمائة فارس وأربعين ألفا من المشاة . ويرى العلامة الألماني الكبير ديلبروك Delbruck أن عدد قوات فيليب من الفرسان زاد بحوالى ألف وخمسمائة فارس عن عدد فرسان أوتو ، فى الوقت الذى خفض فيه عدد المشاة فى كل من الجانبين ، بحجة أنهم لم يلعبوا دورا مهما فى المعركة . أما العلامة الأمريكى بيلر Beeler فيرى أن الجيش الفرنسى تكون من ألف ومائتين من الفرسان ثقيلى العدة (٣) وثلاثة آلاف من الفرسان خفيفى العدة وربما عشرة آلاف من المشاة . ونظرا لأن فيليب كان قد عين ابنه لويس قائدا على حوالى عشرة آلاف من قواته التى تحت قيادته ، وذهبت تلك القوات للتصدي لحنا ملك انجلترا ، استنتج بيلر أن القوات التى بقيت تحت قيادة فيليب والتى خاضت معركة بوفين كانت أقل من عدد قوات أوتو . أما المؤرخ الفرنسى فردينان لوت Ferdinand Lot فيرى أن جيش أوتو كان أكثر عددا من جيش فيليب بعض الشيء ، ويعتقد أنه كان ألفى ومائة من الفرسان ثقيلى العدة . وعشرة آلاف من المشاة . ومع ذلك كان للفرسان أهمية كبرى ، فى تحديد مضمير المعارك ، وهنا كان لفيليب عنصر التفوق العددي والنوعي . ومن المحتمل أن الفرسان الفرنسيين كانوا أفضل فرسان فى العالم ، وهذا التفوق يمكن ارجاعه الى خبراتهم فى الحروب الصليبية والأعمال الحربية المستمرة التى شهدتها فرنسا على امتداد معظم القرن الثانى عشر .

وظل بعض الجدل قائما بشأن الدور الذى لعبه المشاة فى معركة بوفين . اذ ورد ذكر جندى المشاة فى اشارة عابرة ، وهى حالة دفعت معظم الكتاب الى الاستنتاج ان دوره كان قليل الأهمية بالنسبة لنتيجة المعركة . ويبدو ذلك أمرا مدهشا لغرابته ، وذلك لأنه فى ذلك الوقت أثبت جندى المشاة أنه شريك لا غنى عنه للفارس عند محاربة المسلمين فى سوريا . وبالرغم من أن الموقف فى شمال فرنسا كان مختلفا عن الموقف

فى سورية ، وفى الشرق الأدنى الشديد الحرارة والجاف ، قام الجندى المشيخى من المشاة بدور الحاجز لحماية الفارس الثقيل العدة والبطيء عند الهجمات العتيفة التى قام بها الخيالة المستلمون الذين تميزوا بالسرعة فى الحركة ، فى حين أن المشاة فى غرب أوروبا لم يمارسوا مثل ذلك الدور ، بل انهم كانوا خلف الفرسان أحيانا ، كما حدث فى معركة تاجليا كوزو Tagliacozzo (١٢٦٨ م) ، ومارشفيلد Marchfield (١٢٧٨ م) .

وربما كان السكسون Saxon خير جنود المشاة فى معركة بوفين . وكان الجرمان أبطأ من الأنجليز والفرنسيين فى التحول التدريجى من القتال كجنود مشاة الى القتال على صهوة الخيل . وفى معركة بوفين ظل كثير من السكسون يقاتلون كما كان يفعل أبناء عمومتهم من الأنجلو - ساكسون فى معركة هيسستنجز ، التى حدثت قبل بوفين بحوالى مائة وخمسين عاما ، اذ حملوا رماحا وكانت خطايف يمكنهم بها طرح الفرسان أرضا من على صهوة خيولهم ، وحملوا خناجر ثلاثية الأطراف لقطع الفرسان فى المواضع الضعيفة فى عديهم . ولابد أن وجود هؤلاء الساكسون هو الذى دفع فيليب أغسطس الى أن يضيخ فى جنوده قبل بداية المعركة مباشرة قائلا : « أن الجرمان سيقاتلون كمشاة أما أنتم يا أبناء شعب الغال فستقاتلون ، وأنتم على ظهور الخيل دائما » .

كان دور المشاة الأساسى فى معركة بوفين ١٢١٤ م هو مساعدة الفرسان لذلك كان جندى المشاة يحمل سيفاً وحرية ، أو القوس والنشاب ، وارتدى كل منهم قميصاً مدرعاً ، ووضع على رأسه قلنسوة من الفولاذ . وفى الوقت الذى كان على جنود المشاة أعاقه لهجوم الفرسان المغادين أو التصدى لهم الى أن يستعد فرسانهم للهجوم ، فإن مسئوليات الفرسان المساعدين بصفة عامة تحددت فى تزويد الفرسان الذين يفقدون مظاياهم بمظايا أخرى ، وطعن خيول الأعداء ، اذا ما كانوا على مقربة شديدة ، وقتل أو أسر أى فارس يسقط من على صهوة جواده ، بمجرد مشاهدته . وبعد مرور مائة سنة على معركة بوفين أحرز المشاة نصراً مؤزراً للفلمنكيين على فيليب الخامس ملك فرنسا عند كورترايا Courtrai (١٣٠٢ م) . ثم أثبتت الهوسيت Hussites ، والسوسريون فى القرن الخامس عشر أن جندى المشاة قادر على القيام بمعركة هجومية .

لم تتغير الملابس الخربية التى ارتداها الفارس فى معركة بوفين ولا الأسلحة الحربية التى حملها الا فى القليل منذ معركة هيسستنجز ، اذ زاد طول قميصه المدرع ، والمشقوق من أسفل ليقى الساقين حتى السمانة . وبدلاً من القلنسوة المعدنية المخروطية الشكل التى كان

يستخدمها من قبل ، فإنه وضع على رأسه خوذة على شكل قدر من المعدن .
وهي نوع من الخوذ المعدنية الاسطوانية الشكل بها شقوق طويلة وضيقة
للعينين . وصارت الملابس الحربية أكثر سمكا ، وتغطي مساحة أكبر
من الجسم أما ترس الفارس فقد نقص حجمه . وحتمت الملابس الحربية
الثقيلة استعمال مطايا إضافية ، اذ كان الفارس يمتطي جوادا الى المعركة
ثم ينتقل الى جواد آخر غير مجهود عند الدخول في المعركة . واتبع الفارس
أيضا طريقة مختلفة في استخدام رمحه ، فبدلا من رميه تجاه العدو أو
استخدامه كخنجر مستطيل ثبته على كتفه أو على ذراعه ، وبذلك تمكن
من تسديد ضربة أشد تأثيرا الى عدوه .

على أن جواد الفارس الذي ليس عليه دروع تقيه ظل نقطة الضعف
في عدة الفارس الحربية ، لذلك صار هدفا لهجوم العدو أكثر من الفارس
نفسه الذي ازدادت دروعه احكاما . ومنذ منتصف القرن الثاني عشر
بذلت الجهود لحماية الجواد ، بيد أنه ظل أكثر تعرضا لضربات الأعداء
من راكبه . وعلى سبيل المثال أمر شارل من أنجو Charles of Anjou
رجالَه بتركيز هجومهم على الخيول ، لا على راكبيها في معركة بنفنتوم
Beneventum سنة ١٢٦٦ . وما أن يفقد الفارس جواده حتى أصبح
لا حول له ولا قوة مثل ريتو Renaud كونت بولونيا Boulogne
الشجاع في معركة بوفين ، الذي وجد ساقيه مثنية تحت جواده عندما
تعرض الجواد الى اصابة طرحته أرضا . وأوشك أحد جنود المشاة أن
يقتله بعد أن صفعه على وجهه ، لولا أن أنقذه أربعة من الفرسان كانوا
يتنازعون بشأن من له الأحقية القانونية في وضع يده على هذا الأسير
المهم جدا .

على أن الوسائل التي اتبعتها كل من حنا ، وفيليب ، وأوتو لجمع
المجندين لجيوشهم فاقت في أهميتها عمليات التطوير التي أجريت على
العدد الحربية أو أساليب القتال التي يؤديها الرجال الحاصلون على
اقتطاعات لمدة أربعين يوما كل سنة قد تحولت تدريجيا الى رسم عرف
باسم البديلة Scutage حيث كان للفرد الفارس حق الاختيار في سداد
مبلغ بدلا من الخدمة العسكرية . وفضل كثير من الناس دفع البديلة على
تأدية الخدمة العسكرية ، على الرغم من أن البارونات بصفة عامة اختاروا
قيادة أتباعهم الى الميدان سعيًا للشهرة ، وعلى الأرجح ليظلوا يلقون الحظوة
عند ملكهم الذي كان سيدهم الاقطاعي الأعلى . وفضلت المدن والمؤسسات
الكنيسة دفع الرسم ، ولكن أميان Amiens وبيافين Beavines
وكومبيني Compiègne وآراس earls أرسلت رجالها للقتال في
بوفين . على أن الفائدة الكبرى التي حققتها البديلة للملك ، هي أنها مكنته
من جميع جيش من المرتزقة ، وعين قادة ذلك الجيش وفقا لاختياره . وكان

حشد فيليب لحوالى سبعة وعشرين ألفا من الجنود وتقسيمهم تحولا أساسيا. فى نظم حشد القوات منذ أن أعد كل من هارولد الأنجلو سكسونى ، ووليم النورماندى جيشهما لخوض معركة هيستنجز .

ان الميزة التى تفوق بها فيليب على أعدائه فى بوفين ، بغض النظر عن التفوق العددي عنده فى الفرسان هى انفراده بقيادة كل قواته دون منازع (وعين الأسقف جيران Guerin ، وهو اسبتارى Hospitaller سابق كقائد أعلى للتنظيم والادارة فى الجيش) ، على النقيض من خصمه . واذا ما أشار المرء الى الافتقار الى عناصر التلاحم والاتجاه كنقطة ضعف صارخة فى الجيوش الاقطاعية لتلك الفترة ، فان نقطة الضعف تلك ، ظهرت بوضوح فى جيش أوتو ، الذى تكون من جماعات من المحاربين من عدد مختلف من الولايات . وكان من الممكن أن يتفق أوتو وحلفاؤه على عمل عسكري ، بيد أن جيوشهم ظلت دائما وحدات منفصلة تحت قاداتها المباشرين ، الذين قد يغيرون الاتجاه ليتحولوا عن أى خطة استراتيجية ، اذا ما شعروا أن مصلحتهم اجراء ذلك . ولقد انكشفت خطورة القيادات المقسمة فى معركة بوفين عندما أمر دوق برابانٹ Brabant وجماله بالانسحاب من ميدان القتال مما أدى بوضوح الى الانهيار الكامل لجيش الحلفاء .

حشد أوتو وحلفاؤه قواتهم فى نيفيل Nivelles أولا الى الجنوب من بروكسيل ثم تحركوا فى الثالث والعشرين من يوليو الى فالينسين ثم الى هاينوت . وفى ذلك اليوم نقل فيليب جيشه من بيرون Peronne الى تورناى Tournai ربما بقصد منع أوتو من الوصول الى القناة الانجليزية . على أية حال ، لم يتأكد أى من الجيشين من مكان وجود الآخر ، وهو الأمر الذى يفسر سبب وجود الفرنسيين الى الشمال من الجيش المحالف . وما أن اكتشف فيليب موقع جيش أوتو ، حتى غير اتجاهه بسرعة ، وتحرك جنوبا فى اتجاه ليل Lille . وهى منطقة منخفضة ، ورخوة . وكان على فيليب أن يقاتل على أرض صلبة ، ذلك لأنه وضع كل آماله فى فرسانه ، لذا اتجه الى بوفين التى وصلها فى صباح السابع والعشرين من يوليو ، بيد أن الأرض كانت رخوة ، لذلك أمر جنوده المشاة بالتحرك غربا عبر الجسر الوحيد المقام فوق نهر مارك Marq على تلك المنطقة . وما أن تقدم هؤلاء الرجال حوالى أربعة كيلو مترات خلف الجسر حتى وصلتهم أوامر عاجلة بالعودة الى بوفين . اذ بلغ فيليب نبأ تقدم جيش أوتو ، وأن بعض القوات الغازية كانت بالفعل فى حالة قتال مع مؤخرة جيشه . ومن الواضح أن أوتو تحرك بأسرع مما كان يتوقع فيليب . وربما كان يأمل أوتو فى قطع خط الرجعة على فيليب تجاه باريس ، حتى يتزكه معزولا فى بلاد الغال المعادين له .

وللمرة أن يتصور أن أوتو تقدم الى الغرب فى محاولة للحاق بفيليب ، بينما اتجه فيليب شرقا . وفى أثره مشاته العائدة عبر نهر المارك ، ولم يحدث التحول سوى القليل من الفوضى نظرا لشدة انضباط قواته . وعندما اندلعت نيران المعركة اتخذ المشاة موقعهم الصحيح أمام الفرسان ومن ناحية أخرى ، فإن جيش أوتو لم يكتف بالتقدم فى جبهة ضيقة ، والتحرك على صورة خط طويل نسافة عدة أميال فحسب ، وإنما اندفع بسرعة متلهفا للحاق بالفرنسيين الأمر الذى هدد تماسيكة . وكذلك كتب فيربروجين Verbruggen ، « ويبدو أن سرعة تحرك قوات أوتو كانت السبب فى هزيمتهم الى حد كبير » (٤) .

ويبدو أن فيليب كان واثقا تماما من هزيمة العدو . ولو أنه ركن الى الهواجس لتجنب المعركة واستمر فى تحريك قواته تجاه الغرب عبر نهر المارك ، ولا ريب أن فيليب كان لديه وقت كاف لمواصلة المسير بثبات . واستطاع جنود المشاة الذين كانوا على بعد أربعة كيلو مترات خلف النهر العودة على الفور ، واصطفوا أمام الفرسان فى مواجهة الشرق . على أن اختيار فيليب مقاتلة أوتو ، وهذا النهر من خلفه حيث لا يوجد سوى جسر وحيد يسمح له بالهروب إنما ينم ذلك كله عن تفاؤله . ويقال ان أوتو كان مندهشا لوجود كل جيش فيليب فى بوفين وليس مجرد الجزء الذى بقى شرق نهر المارك وأدرك رينو خطورة الموقف ، وحذر أوتو من القتال ، بيد أن الامبراطور رفض الاستماع الى تلك النصيحة .

واتخذ الجيشان موقعهما للمعركة القادمة ، وكان فيليب فى قلب الجيش الفرنسى مواجهاً الشرق ، ووجد نفسه أمام أوتو الذى ساعده فرسان النورين ومشاة السكسون الوستفاليين Westephalian Saxon وعلى ميسرة أوتو كان هناك رينو من بولون ، وكونت ساليزبرى ، ومشاة برابانت . وتحت أشعة الشمس ، وبعد منتصف النهار بوقت قليل فى يوم الأحد الموافق الخامس عشر من يوليو بدأ الرماة الفرنسيون يطلقون سهامهم وبدأت المعركة .

وتحركت ميمنة الجيش الفرنسى تحت قيادة الأسقف جيران وبعد قتال عنيف أجبروا الفلمنكيين على الارتداد ، وأسر كوئتهم فيراند Ferrand . وحقق فيليب وقلب جيشه نجاحا أقل . وشن المشاة من السكسون هجوما شرسا قضوا فيه على قوات المشاة من الشعوب الفرنسية . وسقط فيليب نفسه من على صهوة جواده . وكان من الممكن قتله لولا بير ترستان Pierre Tristan الذى اتخذ من جسده درعا واقيا لجسد فيليب وحماه . من أى ضربة قاتلة الى أن أتى الفرسان الفرنسيون لنجدة ، وتعرض أوتو لموقف مماثل . وبعد فشل محاولات عديدة لاحتضار الجواد الملكى الذى كان يمتطيه ، قتل أحد المشاة ذلك الجواد بعد ذلك . وحاول

أوتو النجاة من الأسر على جواد أحضره تابعه برينهارد من هورتسمار Bernard of Hortsmar ، وكان القتال بين ميسرة الجيش الفرنسي ومشاة برابانت أشد شراسة وأكثر خطورة . وما أن أعطى دوق برابانت الأوامر بالتراجع حتى سادت حركة عامة من الانهيار كل الجيش على الفور . وهناك بعض الإشارات التي تدل على أن فيليب كان قد قدم الرشوة إلى ذلك الدوق كما كانت بعض التشكيلات بما فيها قوات البرابانت ، وليمبورج Limbourg ، والبروج Bruges والجنه Ghent الذين وصلوا مؤخرا قد قررت عدم الدخول في المعركة عندما علموا بمصير المعركة . وهذا يعنى أن حلفاء أوتو أكثر من حلفاء فيليب من الناحية النظرية أو على الورق فحسب ما دامت أعداد كبيرة لم تدخل المعركة .

ويقول أومان إن المعركة استمرت ثلاث ساعات ، ويقول فيربروجين Verbuggen انها استمرت أطول من ذلك ، بيد أن العلماء الآخرين يشكون في ذلك ويشيرون إلى قلة المشاهير الذين ورد ذكرهم بين القتلى . فعلى سبيل المثال ، لم يذكر المؤرخ ميلروز Melrose سوى ثلاثة من الفرسان من بين القتلى في معركة بوفين ، وأقل من مائة فارس من جيش الغزاة (ربما حوالي سبعين) من القتلى على الرغم من وجود أكثر من مائتين من الأسرى (٥) . وظل كونت الفلاندر ، وكونت بولون في السجن ثلاثة عشر عاما حتى مات إثنى وقضى كونت الفلاندر المدة نفسها في السجن الجديد في لوفر Louvre ، قبل أن يسمح فيليب للنبله الذين أمضوا فترة طويلة في السجن بالعودة إلى أقاليمهم .

كانت معركة بوفين نصرا مبينا لفيليب ، إذ أصبحت بلاد الفلاندر ، وبولونيا في الشمال تحت قبضته ، ولم يعد هناك أدنى شك في أن نورماندى ، وأنجو : والإقاليم الأخرى : شمال نهر اللوار ستكون تحت حكم الملك الفرنسي . وهكذا قدر لأسرته البقاء في باريس والاستقرار على العرش الفرنسي . لقد أضاعت بوفين آخر أمل عند حنا في استعادة الإقاليم التي كانت تحت سيطرة والده هنرى الثاني في فرنسا . وتوالت النكبات ، إذ لم تكده أبناء بوفين تصل إنجلترا حتى بدأ بارونات في الثورة على « طفيانه » ولولا الهزيمة في بوفين لما ظهر العهد الأعظم Magna Carta بكل ترجيح .

أما بالنسبة لأوتو فكانت بوفين تعنى نهاية المطاف إذ تعرض لسلسلة من المتاعب المستمرة حتى وفاته سنة ١٢١٨ م في هارتس بورج وهي قلعة تقع في برونسفيك Brunswick Harzburg وهي ولاية صغيرة آلت إليه بحق الارث فجح في التمسك بها . واعتلى فردريك الثاني عرش ألمانيا برغم أنه لم يشارك في معركة بوفين . إن فردريك الثاني

مدين بتاجه لفيليب ، وكذلك أيضا بالعربة الامبراطورية التى عليها
صورة العقاب وتنين ، التى كان يستخدمها أوتو الذى لاذ بالفرار • وادعى
لنفسه حق استخدام لقبى ملك المانيا والامبراطور الرومانى المقدس برغم
أنهما لم يكن لهما هيبتهما القديمة ابان عهد سلفه فردريك برياروسا •
وبفضل انتصار فيليب والجيش الفرنسى فحسب آل للقبان الى
فردريك الثانى • وبزغ فجر جديد على غرب أوربا • وحلت فرنسا محل
المانيا كقوة فعالة فى غرب أوربا ، وقال المؤرخ لوتربرج Louterburg
والأسى يخالجه : « ان سمعة الألمان تهاوت الى الحضيض بين الأجانب » •

٧ - معركة كريسى

ربما لو أن لويس التاسع كان أقل تمسكا بالتعاليم الدينية ، لما حدثت حرب المائة عام ، ولما كانت معركة كريسى Crecy . كان هنرى الثالث ملك انجلترا وصهر لويس قد حرض النبلاء المتمردين بفرنسا على خلع لويس عن العرش مرتين . ومن ثم توافرت المبررات لطرد هنرى والانجليز خارج فرنسا . (كان الانجليز يسيطرون على اقليم جاسكونى Gascony فى جنوب غرب فرنسا) . وكان لويس قادرا تماما على طرد الانجليز . ولم تكن انجلترا على عهد هنرى المستقيم أخلاقيا وان كان ضعيفا ندا لفرنسا . بيد أن لويس لم تكن لديه رغبة فى محاربة المسيحيين ، هذا فضلا عن أصهاره اذ كان يرى أن على الحكام المسيحيين أن يعيشوا فى وئام ، وأن يشاركوا بمواردهم فى الصراع الذى لا نهاية له مع المسلمين فى سوريا ، (تولى لويس قيادة الحملتين الصليبيتين الأخيرتين) .

ولم يكتف لويس بالسماح للانجليز بالاحتفاظ باقليم جاسكونى فحسب ، وانما صدق على معاهدة باريس ١٢٥٩ م ، التى منحت هنرى أحقية امتلاك ذلك الاقليم بل وسلمه العديد من الأراضى المجاورة على أمل أن يقنع هنرى والانجليز . وأعلن هنرى من جانبه تخليه عن الادعاءات الانجليزية بالمطالبة بنورماندى ، وأنجو ، والأقاليم الأخرى شمال نهر اللوار ، التى كانت تحت يد جده هنرى الثانى والتى أخذها فيليب أغسطس من حنا ، والد هنرى . ونظرا لعدم وجود بارقة أمل فى استعادة تلك الأقاليم ، قدم هنرى قليلا من التنازل فى معاهدة ١٢٥٩ م عن طيب خاطر ، اذ قبل أن يفى بالتزامات التبعية الاقطاعية الى لويس بالنسبة لجاسكونى ، ومن ثم استمرت انجلترا فى ادارة شئون ذلك الجزء من فرنسا . واستمر ذلك الوضع حتى اندلاع حرب المائة عام عندما وجد الفرنسيون فى القرن الرابع عشر أن الوجود الانجليزى فى جنوب غرب فرنسا لم يعد أمرا يمكن احتماله .

لم يسجل التاريخ عدوات بين شعبين مثلما حدث بين الشعب الفرنسى والانجليزى منذ سنة ١٠٦٦ م ، عندما نجح وليم دوق نورماندى فى هزيمة هارولد الأنجلو سكسونى فى هيستنجز الى أن تحالفا سنة ١٩٠٤ نتيجة لخوفهما من المانيا . وكان انتصار وليم سنة ١٠٦٦ م قد جعله ملكا على انجلترا ، ودوقا لنورماندى ، وهو الاقليم الذى ربما كان أهم أقاليم فرنسا فى ذلك الحين . وكان غرب أوروبا فى العصر الاقطاعى مستعدا تماما لقبول وضع يحكم فيه ملك أجنبى اقليما كبيرا فى مملكة ملك آخر . بل انه أذعن بالقبول عندما حكم هنرى الثانى ملك انجلترا أقاليم ، أنجو ، وأكويتين ، وبريتانى ، وأقاليم أخرى كتابع اقطاعى للملك الفرنسى ، بل انه فى الحقيقة أدار الشئون الداخلية لأراضى فرنسية أكثر من الأراضى التى كانت تحت يد الملك الفرنسى فى أواخر القرن الثانى عشر .

ولم يتقبل فيليب أغسطس ذلك ، كما أن انتصاره على الجيش المتحالف فى بوفين سنة ١٢١٤ م ، قدم له ما يبرر غزوه لنورماندى ، وأنجو ، وكل الأراضى التابعة للانجليز ، والواقعة شمال نهر اللوار . وكان عصر الاقطاع قد اتخذ طريقه للزوال رويدا رويدا ، فى عهد فيليب أغسطس . وفى أوائل القرن الرابع عشر كان قد انتهى تماما . وما كان يمكن قبوله كأمر مناسب سنة ١٠٦٦ م ، وأنه ليس مخالفا للقواعد والأصول بشكل واضح ابان حياة هنرى الثانى ، لم يعد فى الامكان قبوله فى القرن الرابع عشر . ومن ثم كانت سيطرة ملك انجلترا الأجنبى على جزء كبير من جنوب غرب فرنسا السبب الرئيسى لحرب المائة عام .

ان ملوكا من طراز مختلف عن « ادوارد الثالث » ملك انجلترا وفيليب السادس ملك فرنسا ، اللذين كانا فى السلطة سنة ١٣٣٧ م ، عندما بدأت حرب المائة عام ، كان من الممكن أن يقبلوا الوضع البغيض فى اقليم جاسكونى . والحقيقة أن الموقف فى جاسكونى كان سيئا ، وفى سنة ١٣٠٤ م ، كاد ادوارد الأول ، وفيليب الرابع أن يقتتلا ، اذ ان حدود اقليم جاسكونى كانت غير واضحة ، وكذلك حقوق الاقطاعيين الصغار ، فيما يتعلق بامتيازاتهم الاقطاعية لذلك كانت الخلافات والمنازعات متكررة ، وكذلك كانت الدعاوى القضائية التى عرضها الأتباع الاقطاعيون المتضررون أمام محكمة الملك فى باريس ضد موظفى التاج البريطانى فى جاسكونى .

ومع ذلك لم تبدأ الحرب فى عهدى ادوارد الأول ، وفيليب الرابع ، ولا فى عهد خلفائهما المباشرين ، وانما قامت الحرب فى عهدى ادوارد الثالث ، « وفيليب السادس » . وكانت رغبة « ادوارد الثالث » فى تحقيق الشهرة العسكرية أحد أسباب تلك الحرب . حيث تشبه بعمد الأكبر

ريتشارد قلب الأسد الشهير . غير أن ادوارد كانت تنقصه شجاعة ريتشارد الشخصية ، وان كان قد شاركه في مقدرة على قيادة الرجال في ميدان القتال ومهارته في فن تنظيم القوى الحربية وتحريكها للقتال . ولم يحب الرجلان شيئا أكثر من حبهما للمهاجمة العدو ، ومعهما باروناتهما وهما واثقان من الحاق الهزيمة بذلك العدو . ونظرا لأن الحرب تمهد السبيل لأسرع طرق الشرف والمجد ، لذلك فان ادوارد لم يجد صعوبة في اقناع نفسه بايجاد المبررات فيما يتعلق باقليم جاسكوني .

وكان فيليب السادس ندا لادوارد في الشجاعة والغرومية . (أوجد فيليب أعلى لقب يمنح في مراتب التشريف في فرنسا وهو وسام النجمة . وأوجد ادوارد أعلى لقب يمنح في مراتب الشرف في انجلترا وهو الوشاح . ومع ذلك كان فيليب تنقصه مقدرة ادوارد في التأثير على الرجال ، واستثارة همهم كما أنه كان قليل البراعة في وضع الخطط وإدارة العمليات الحربية من ناحية ثانية . وكان فيليب مترددا ، ويسمح للآخرين بالتحكم فيه ، وإذا ما فقد السيطرة على أعصابه ، كان عرضة للتصرف بتهور . على أن كليهما لم يبد اهتماما بالإدارة الحكومية الدقيقة . فبالنسبة لادوارد لم تكن هذه مسؤوليته القانونية ، منذ أن اكتسب البلاط أولويته بفضل المجنا كارتا التي وقعها هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م) . وكان بلاط فيليب أقل مركزية ومقيدا دائما في عمله بوجود أربعة أقطاعات كبرى مستقلة في جاسكوني ، وبريتاني ، وفلاندر ، وبورجوندي . وربما نجح ادوارد في أن يكيّف نفسه فيما يتعلق بحقوقه ومسئوليته في جاسكوني . بيد أن فيليب السادس لم يكن من نوعية الملك القادر على اجبار البلاط الفرنسي على ذلك التوافق .

كانت أول بادرة للحرب في مايو سنة ١٣٣٧ م ، عندما أمر فيليب بمصادرة جاسكوني وهي المصادرة الثالثة في مدى أربعين عاما . مما جعل الحرب حتمية بين فيليب السادس وادوارد الثالث . ان ملوك القرن الرابع عشر أصبحوا أكثر مثابرة في جهودهم للسيطرة على أتباعهم الاقطاعيين . وان طموح فيليب في اجبار أتباعه الاقطاعيين في جاسكوني على قبول قانون يخضعهم لسلطانه جعل الموقف خطيرا لسببين : أولهما ، أن ملك انجلترا الذي كان يحكم دوقية جاسكوني لم يكن على استعداد للاستسلام للأساليب المتنمرة التي مارسها الموظفون الفرنسيون في جهودهم لاضعاف السلطة المتبقية لأتباع الملك الاقطاعيين دون اللجوء للعنف . وثانيهما أن جاسكوني أمدت الملك الانجليزي برأس جسر مهم في فرنسا اذا ما رغب في استغلاله ، ولهذا السبب فان الملك الفرنسي أصر على ضرورة أن يدرك ادوارد المعنى الحقيقي لمركزه كتابع اقطاعي لملك فرنسا .

وفي السنوات التي تلت تتويج فيليب سنة ١٣٢٨ م ازدادت حساسية ادوارد بالنسبة لمركزه « كتابع » في جاسكوني . وكانت ايزابيلا زوجة ادوارد الثاني المخلوع وعشييقها روجر مورتيمير Ragumoyrimer يحكما انجلترا ابان تتويج فيليب ، ولذلك فان غياب التابع الاقطاعي الانجليزي ، وعدم التزامه بالتزامات التبعية الاقطاعية في تلك المناسبة لم يخلق أى أزمة . وما أن قام ادوارد الثالث باعدام مورتيمير ، وطرد والدته الى قلعة بعيدة ، وتولىه مسئولية الحكم بصفته الشخصية ، حتى ذكره القصر الفرنسي بما عليه من التزامات اقطاعية ، وأعقب ذلك بعض التردد من جانب ادوارد ، وتهديد بالمصادرة من جانب فيليب ، بيد أنه في آخر المطاف وافق ادوارد على سداد ما عليه من التزامات اقطاعية . وعبر ادوارد القناة الانجليزية في يوليو سنة ١٣٢٩ م وقام بسداد الالتزامات المالية بصفة رسمية .

واذا كان ادوارد قد اعتقد أن هذا قد أنهى الأمر ، فقد جانبه الصواب . ففي السنة التالية تسلم ادوارد أمرا سريعا وغير مهذب من البلاط الفرنسي يقطع الشك باليقين بأن الالتزامات الاقطاعية التي أقسم عليها في أمين Amiens لم تكن الا تعهدا بالارتباط الاقطاعي الذي يضمن تبعية ادوارد لسيده الاقطاعي فيليب . فاستشاط غضبا من أمر البلاط الفرنسي الذي فسره على أنه مناوراة من جانب فيليب لتبرير مصادرته لاقليم جاسكوني ، بيد أن الحرب لم تبدأ . وفي النهاية أعفى فيليب ادوارد من تقديم التزامات اقطاعية أخرى ، ووافق على أنه قانع باعلان ادوارد الكتابي أن الالتزامات الاقطاعية التي قدمها في اميان كانت في الواقع تعهدا بالولاء نحو فيليب سيده الاقطاعي الأعلى . وعندما ذهب ادوارد الى فرنسا في أبريل سنة ١٣٣١ م ليؤكد بنفسه ما أعلنه كتابا ، أظهرت الحالة السائدة بالكامل أن الملكين ، طرحا مسألة جاسكوني خلف ظهريهما ، وفي تفاهم ودي شديد ناقشا موضوع حملة صليبية مشتركة ضد المسلمين . بل انهما توصلا الى اتفاق بشأن الحملة الصليبية ، وأنهما سيركبان متن السفينة من موانئ البحر المتوسط في ربيع سنة ١٣٣٥ م بناء على ذلك الاتفاق . وربما كان الملكان جادين ، اذ كانت قرارات الحكومة في العصور الوسطى شخصية الى حد بعيد ، وكذلك كان معظم الحماس للحروب الصليبية تشنجيا بيد أنه في مدى عام تفجرت الاضطرابات على امتداد الحدود الاسكتلندية ، ومن ثم صرف النظر كلية عن التفكير في حملة صليبية .

ان الاضطرابات التي أثارها الاسكتلنديون أضافت مظهرا آخر لخلفية المائة عام . وكان أمرا متوقعا أن يفرض الاسكتلنديون أنفسهم على خلفية الصورة اذ كانت العلاقات بين انجلترا واسكتلندا متوترة . وكانت

حدودهما المشتركة مسرحا للمنازعات المتكررة . وكان ملوك انجلترا قد ادعوا حق السيادة على اسكتلندا منذ أن أسر هنرى الثالث الملك مالكولم Malcolm وأجبروه على أن يقسم يمين الولاء الاقطاعى . وفى سنة ١٢٩٠م أصر ادوارد الأول على حقه فى اختيار ملك للعرش الاسكتلندى باعتباره سيدا اقطاعيا أعلى عليهما ، وبعد أن صار الجيش الاسكتلندى لا وجود له ، أعلن موافقته على حنا بوليول John Balliol من بين الراغبين فى اعتلاء ذلك العرش . وفى سنة ١٢٩٥ م فرض ادوارد التزامات على بوليول ، اعتبرها الأخير غير مقبولة ولجأ الاسكتلنديون الى فرنسا طلبا للمساعدة والتأييد ، ونظر الاسكتلنديون والفرنسيون الى انجلترا كعدو مشترك وظل الشعبان حليفين بشكل رسمى أو غير رسمى .

وظل ادوارد ينظر بعين الحذر الى اسكتلندا . وفى الوقت الذى لم يشمن فيه ادوارد هجوما مباشرا على البلاد ، إلا أنه أمد ادوارد بوليول ابن حنا بوليول بالأموال والرجال فى جهوده لعزل ادوارد الثانى عن عرش اسكتلندا . وعندما علم ادوارد ملك انجلترا أن فيليب كان يقدم العون المالى الى داود ، تحرك شمالا واستولى على بيرويك Berwick . وفى الحادى عشر من يوليو سنة ١٣٣٣ م أحرز نصرا ساحقا على الاسكتلنديين فى هاليدن هيل Haliddon Hill ولو توقف ادوارد عند ذلك النصر لخفت حدة الأزمة المتفاقمة بينه وبين فيليب ، ولما انتقلت الحرب الى القارة الأوروبية . بيد أن ادوارد استمر فى تقدمه داخل اسكتلندا . وفى صيف سنة ١٣٣٦ م أمر فيليب سفنه التى كانت راسية فى مارسيليا استعدادا للذهاب فى حملة صليبية ، أن تبحر الى الموانئ النورمانية ، ومنها الى اسكتلندا . ودفع تصرف فيليب ادوارد الى تأجيل غزوه لاسكتلندا لأنه اقنع أن غزوه سيكون مستحيلا طالما كانت فرنسا قادرة على التدخل . وقرر ادوارد تسوية مسألة جاسكونى بالقوة ، وفى النهاية ألزم أعضاء البرلمان سنة ١٣٣٦ م بدفع الاعانات المالية من أجل الأسطول والتحصينات على امتداد الشاطئ . فقام فيليب بدوره بإرسال قوات الى حدود جاسكونى ، حيث ضربت حصارا حول عدة قلاع . وأخيرا وفى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٣٣٧ م ، وبعد اتهام ادوارد بالاخلال بالتزاماته الاقطاعية لذلك الاقليم أعلن فيليب مصادرته له .

لقد عجل التدخل الفرنسى فى اسكتلندا باشتعال الحرب بين ادوارد وفيليب بسبب جاسكونى . كما أن التآمر الانجليزى فى اقليم الفلاندر أفضى الى نفس النتيجة . وكان اقليم الفلاندر اقليما كبيرا غنيا يواجه بحر الشمال ، وهو من أهم الأقاليم الصناعية فى أوروبا . وفاخر ذلك الاقليم بالمدين المزدهرة مثل بروج Bruges وجيننت Ghent . وفى أوائل القرن

الثاني عشر بدأ ملوك فرنسا في المطالبة بضم الأقاليم المجاورة وعمل فيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٣٠ م) على ضم العديد من المناطق الجنوبية بما فيها أرتوا Artois و فيراموندوا Vermondois وبعد ذلك بقرن ، وفي سنة ١٣٠٢ م حاول فيليب الخامس ، فرض سيطرته المباشرة على كل الأقاليم ، إلا أن فرسانه تعرضوا لهزيمة نكراء على أيدي سكان الاقليم من المشاة في كورتريا Courtria وخال أهل الاقليم أن تهديد فرنسا لاستقلال اقليم الفلاندر قد انتهى الى غير رجعة ولكن ظنهم تبدد سنة ١٣٢٨ م عندما حقق فيليب السادس نصرا ساحقا على الفلمنكيين في كاسيل Cassel وهي المعركة التي محت ذكرى الهزيمة في كورتريا ، وقضت أيضا على كثير من مظاهر الحكم الذاتي لذلك الاقليم ومكن النصر في كاسيل ملك فرنسا من املاء ارادته في الشئون العامة الفلمنكية عن طريق كونت الفلاندر الذي كان عليه أن يعتمد على التأييد الفرنسي لكي يحتفظ بمركزه . وتدخل الموظفون الفرنسيون على نحو منتظم في الشئون البلدية للمدن الفلمنكية وفرضوا بالقوة استعمال العملة الملكية الفرنسية .

حتى كونت الفلاندر ببعض من التأييد في نطاق اقليمه . فعلى سبيل المثال اعتمد التجار الأثرياء على النفوذ الملكي الفرنسي ، في الهيمنة على الاستثمار الصناعي للاقليم برغم استياء الحرفيين والتجار في المجتمعات الأصغر ، نظرا لأنهم يحصلون من انجلترا على معظم الصوف الخام الذي تصنعه أنوالهم . وكان من المقدر أن تضع التجارة النشطة في الصوف والمنتجات الصوفية بين الفلاندر وانجلترا الملك الانجليزي في الصورة . اذا رحب باقامة علاقات ودية مع بلد يقع في الجانب الشمالي لفرنسا ، والأكثر أهمية أنه بدأ يعتمد على ضرائب الصادرات على الصوف كجزء كبير من الموارد المالية . ونظرا لأن ادوارد لم يكن يرغب في عرقلة تدفق الموارد المالية فقد عارض جميع محاولات ملك فرنسا التي هدفت الى وضع الاقليم تحت حكمه المباشر حتى لا يصبح فيليب قادرا على تعطيل التجارة وفقا لرغبته . ونظرا لأن كونت الاقليم والتجار الأكثر ثراء وبطوا مصالحهم مع ملك فرنسا ، لذلك قدم ادوارد التشجيع الودي للحرفيين وصغار التجار .

وفي أغسطس سنة ١٣٣٦ م وفي حركة لبحث الفلمنكيين على قطع علاقاتهم بفيليب والتعامل معه ، فرض ادوارد حظرا على شحنات الصوف الانجليزي الى الفلاندر . ثم أرسل ادوارد الصوف (١) الى برابانت Brabant حيث مدن أنتويرب Antwerp وبروكسيل Brusseles ومالين Malines التي كانت لديها الرغبة في اقامة صداقة مع ادوارد مقابل الحصول على الصوف الانجليزي الذي يمكنها من اقامة صناعات المنسوجات الخاصة بها . واستعمل ادوارد المال في ولايات الأراضي المنخفضة لكي يكسبها الى صفه ، حيث وزعه ممثلوه بسخاء على عواصمهم في فالينسين

Hainaut وجولدرلاند Valenciennes وجرج Berb وجولير Julliers وكليير Cleres ومارك Mark وليمبورج Limburg وكلها انضمت الى الحلف المعادى للفرنسيين على أن أكبر كسب حققه ادوارد كان في أغسطس سنة ١٣٣٧ م عندما انضم الى قوات معسكر حلفائه لويس من بافاريا Louis of Bavaria الامبراطور الروماني المقدس ، وصهر الملكة الانجليزية . ووعد لويس هذا بتقديم ألفي رجل مسلح على أن يقوم ادوارد بدفع ثلاثمائة ألف فلورين Florins (*) مقابل خدماتهم .

ان الرجل الذي أثبت أنه مفيد بصفة خاصة لادوارد في مفاوضاته مع هؤلاء الحلفاء ، هو روبرت من أرتوا Robert of Artois صهر فيليب السادس . وكان فيليب قد نفى روبرت ١٣٣٢ م بسبب أساليبه المتنوية في حكم أرتوا . وكان أن سمح ادوارد لروبرت باللجوء الى بريطانيا ، وهو النبيل المهم بصرف النظر عن فضائله أو نقائصه ، فان روبرت هذا حث ادوارد على استمالة أصدقاء أكثر في الأراضي المنخفضة ، وأراضي الراين عن طريق الاغراء المالى لمحاربة فيليب . غير أن أنشطة روبرت لم تكن خافية ، وبخاصة بالنسبة للبابا بندكت الثاني عشر الذي عمل بكل اصرار على منع نشوب الحرب . اذ نصح البابا الملك ادوارد بطرد روبرت لمصلحة السلام ذلك لأن فيليب أعلن أنه سوف يهاجم أى بلد تقبل لجوء روبرت على أراضيها .

ومن سوء حظ ادوارد أن كلفته تلك الأحلاف الكثير من المال كما حذره البابا بندكت الثاني عشر وأنه ما أن نفدت أمواله حتى فقد أصدقاءه في القارة الأوروبية . كما أن عملية انزال قوات ادوارد في أراضى القارة الأوروبية التى خطط لها سنة ١٣٣٧ م ، اضطر الى تأجيلها بسبب نقص الموارد المالية . غير أن امكانات النجاح والتقسيم بدأت تشرق عليه عندما قلده الامبراطور لويس شارة نائب القائد الأعلى للامبراطورية فى سبتمبر التالى . على أن المنصب منح ادوارد من الناحية النظرية على الأقل السلطة على الأمراء الذين كان يقدم اليهم المساعدات المالية . وتطلبت هذه الوظيفة اقامة سلسلة من الاحتفالات التى يسودها المرح ، وان كانت باهظة النفقات ، وكان على أمراء الأراضي المنخفضة أن يقسموا فيها يمين الولاء الأبدى . وبعد تلك الاحتفالات وجد ادوارد نفسه أنه فى أشد الحاجة للموارد المالية حتى اضطر الى رهن التاج الرائع الذى كان قد أمر أن يتزين به عند اعتلائه للعرش كملك لانجلترا وفرنسا .

(*) الفلورين عملة منسوبة الى فلورنسا باقليم توسكانيا وكانت من الذهب وتم سكها لأول مرة فى القرن الثالث عشر الميلادى وفى سنة ١٨٤٩ م سككتها إنجلترا من الفضة أو النحاس المطلى بالنيكل وكانت تساوى شلنين . وتم إلغاء تداولها سنة ١٩٧١ م - المترجم .

على أن مصير ادوارد اعتمد على ما حدث في اقليم الفلاندر ، وهناك كان الموقف يبدو مشجعاً . وأدى توقف الأموال عن العمل في جينت وبروج والمدن الأخرى في الفلاندر بسبب نقص الصوف الانجليزى الى البطالة التى أشعلت المظاهرات ثم انتهت بقيام الثورة . واستفحل الاستياء ضد ملك فرنسا ، وضد كونت الفلاندر ، وضد التجار الأثرياء الذين أشاع رجال الملك الانجليزى أنهم كانوا مسئولين عن تدهور أحوال العمال . وفي أوائل سنة ١٣٣٨ م وضعت حركة تمرد في جينت نهاية لسلطة كونت الفلاندر لصالح جيمس فان أرتفيلد **Jame Van Arteveld** وهو تاجر ثرى انتخبه المواطنون قاطبة « قائدا » وانضمت المدن الأخرى الى الحركة المعادية للفرنسيين حتى وقف الجزء الأكبر من الفلاندر متخددا الكونت . وفي فبراير سنة ١٣٣٩ م هرب الكونت من البلاد بعد محاولة فاشلة لأجبار جينت وبروج على الخضوع ، ثم أعلن اقليم الفلاندر استقلاله تحت رئاسة أرتفيلد **Arteveld** .

وتوقع ادوارد أن ينضم اقليم الفلاندر الى حلفه دون تأخير ، بيد أن أرتيفيلد اعترض على ذلك . اذ طالب أرتيفيلد باستئناف شحنات الصوف الانجليزى وهو الشيء الوحيد الذى كان كفيلا بإصلاح الموقف في الفلاندر ، وبضرورة اتخاذ موقف بشأن الصوف الذى يذهب الى مدن اقليم برابانث **Brabant** ، واقامة صناعة منسوجات منافسة هناك . وبعد اجراء مفاوضات مستفيضة حصل ادوارد على وعد بالتحالف من الاقليم مقابل تعهده بإرسال الصوف من أنتويرب **Antwerp** الى بروج وأن يرسل أسطولا وقوات مسلحة لمساعدة الفلمنكيين في حالة محاولة فيليب مهاجمة الاقليم .

وقدم ادوارد وعدا ثانيا الى ارتيليد والفلمنكيين - وهو أنه سيتخذ لنفسه لقب ملك فرنسا - وبعد هزيمة الفلمنكيين في معركة كاسيل **Cassel** سنة ١٣٢٨ م ، تعهد الفلمنكيون بدفع مليونى فلورين **Florins** وألا يعلنوا الثورة ضد السيد الاقطاعى الفرنسى الأعلى . وتم ايداع المبلغ كإمانة مع الهيئة البابوية فى أفينون **Avignon** على أن يصادر هذا المبلغ اذا ما تحدى الفلمنكيون ملك فرنسا . على أن أبسط وسيلة للمراوغة . قد تحدث عندما يدعى ادوارد أحقيقته للتاج الفرنسى .

وكما حدث كان ادوارد راغبا تماما في المطالبة بهذا الحق ، وفي الحقيقة كان مصرا على حقوقه في التاج الفرنسى منذ عدة سنوات . ان أساس هذا الادعاء نما نتيجة لعدم انجاب أبناء فيليب الرابع الثلاثة . وهم لويس العاشر (١٣١٤ - ١٣١٦ م) (٢) ، وفيليب الخامس (١٣١٦ - ١٣٢٢ م) ، وشارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨ م) . على أن الشيء الذى جعل ظاهرة عدم الانجاب هذه تبدو غريبة بصفة خاصة ، هو

نجاح أسرة كابيه من الملوك فى انجاب البنين ، الذين شكلوا سلسلة متصلة لمدة زادت على ثلاثمائة عام ، منذ سنة ٩٨٧ م ، عندما أسس هوج كابيه Hugh Capet الأسرة .

وعندما مات شارل الرابع سنة ١٣٢٨ م ، لم يترك بنينا ، ولم يجد الشعب الفرنسى سوى فيليب من فلوا Philip of valois أحد أقارب شارل الرابع لكى يكون ملكا عليهم . هنا ادعى ادوارد أنه أكثر أحقية بعرش فرنسا ، اذ أنه ابن شقيقة شارل الرابع . بيد ان رجال القانون من الفرنسيين ، قالوا ان المرأة لا ترث منصب الملك ، وليس لها حق نقل هذا العرش لابنها . وكان ادوارد فى السادسة عشرة فقط فى ذلك الحين ، وهى حقيقة لم تساعد على تقوية دعواه . كما أن وجود والدته المنحرفة وروجر مورتيمور على رأس السلطة فى انجلترا ، فى ذلك الوقت كان سببا كافيا لعدم أخذ دعوى ادوارد بعين الاعتبار . واحتجت ايزابيلا على اعتلاء فيليب الخامس للعرش باسم ابنها الذى من حقه اعتلاء ذلك العرش ، بيد أنه لم يهتم أحد باحتجاجها على الاطلاق . وفى سنة ١٣٢٩ م ذهب ادوارد الى فرنسا . وقدم فروض الولاء الاقطاعى الى فيليب السادس فى احتفال رسمى عن اقليم جاسكونى .

ثم أعلن ادوارد بصفة رسمية أنه الملك الشرعى على انجلترا وفرنسا ، بيد أن مشاكله المالية ظلت حادة وملحة ، كما كانت فى كل الأوقات . ويمدنا التاريخ بحوادث ، وحقائق شاذة وغريبة عن افلاس وعجز ادوارد عن سداد ديونه . لقد كانت حالة ادوارد المالية باعثة على اليأس لدرجة أنه تسلم فى فبراير ١٣٤٠ م انذارا من أصحاب الديون الهولنديين فى مدينه جيننت بأنهم سوف يدخلون انجلترا ليجمعوا الأموال مالم يرسل اليهم زوجته الحامل ، وأطفاله كرهائن لسداد ديونه . كما أن ابنه الثالث حنا ، عرف فى التاريخ باسم حنا من جونت John of Gaunt لأنه ولد ابان غياب والده .

وعلى الرغم من أن سنة ١٣٤٠ م بدأت بهذه المذكرة الكثيبة والقاطبة للصدر فان ادوارد شعر بشيء من الرضا الحقيقى فى صيف ذلك العام عندما دخلت سفنه فى معركة مع أسطول فرنسى فى ميناء سلوى Sluys وهى فى طريقها الى اقليم الفلاندر وقامت بتحطيم الأسطول الفرنسى . لقد كان الأسطول الفرنسى متفوقا على الأسطول الانجليزى فى العدد . « وكانت صواريه تشبه غابة كبرى » على حد قول المؤرخ فرواسار Froissart وفى الحقيقة كان هناك عدد كبير جدا من السفن فى مكان ضيق للغاية . وكاد التعاون أن يكون منعهما بين السفن الفرنسية ، وكذلك

بين السمن الفرنسية الأخرى التى جاءت من قشتالة Castile ومن جنوة Genoa للمساعدة . ولقد زود النصر الانجليز الذين كانوا يعاونون من الاحساس بالاحباط بالشعور بالابتهاج الى حد ما ، واعطاهم الحرية فى استخدام بحر المانش ، وفقا لمشيئتهم طوال عدة سنوات بالية . وقام الانجليز بمحالة باكرة لاستثمار هذا النصر بيد أن هذه المحاولات منيت بالفشل الذريع . ان أرسل ادوارد جيشا قويا بلغ تعدادة حوالى خمسة وعشرين ألف مقاتل بالاضافة الى القوات الشعبية من الفلمنكيين الى تورناى Tournai بيد أنهم وقعوا فى شرك المستنقعات . وكان ادوارد تنقصه أدوات الحصار الضرورية للاستيلاء على المدينة ، على حين ظل الجيش الفرنسى عن قرب ، ورفض دخول المعركة ، واكتفى بشن غارات متكررة على خطوط مواصلات ادوارد . وبحلول شهر سبتمبر كان الجيشان الفرنسى والانجليزى ، قد استهلكا مخزون الأعلاف ، لذلك قبلا الوساطة البابوية عن طيب خاطر ، ووافقا على عقد هدنة تستمر حتى شهر يونية التالى .

وبعد المواجهتين فى سنة ١٣٤٠ م فى سلوى ، وتورناى ، لابد أن حلفاء انجلترا قد أدركوا عدم مقدرة ادوارد على الاستيلاء على تورناى المهمة ، لذلك شهد فصل الخريف انهيارا لنظام الأحلاف الذى كلفه كثيرا فى بلاد الأراضى المنخفضة . وفى يناير سنة ١٣٤١ م الغى الامبراطور لويس تعيين ادوارد نائبا للامبراطورية ، وأعلن نهاية تحالفه . ولا شك أن المال الفرنسى لعب دوره مع افتقار ادوارد للموارد المالية فى صنع هذا التحول السيئ . فى مصيره .

وفى سنة ١٣٤٢ م عاد ادوارد المتأثر الى الأراضى الفرنسية بسبب أمر جعل الحظ يبتسم له . اذ مات دوق اقليم بريتانى فى أبريل سنة ١٣٤١ م . ولم يترك ابنا ، وأسوأ من ذلك طالب شخصان بأحقتهما بحكم الدوقية . أحدهما كونت مونتفورت الذى شعر أن أهله الوحيد فى تحقيق هدفه أن يتحدى ملك فرنسا ، ويعلن تحالفه العلنى مع ادوارد . وأدت خطة حنا الى ذهاب ادوارد الى بريتانى فى نهاية سنة ١٣٤٢ م ومعه جيش بلغ تعدادة حوالى اثنى عشر ألف مقاتل . وبذلك القوات و ببعض الظروف المواتية استطاع ادوارد ، فى نهاية سنة ١٣٤٥ م أن يسيطر على الجزء الأكبر من بريتانى . وكان امتلاك بريتانى بالطبع أمرا قيما فى حد ذاته ، بيد أنه كان أمرا أكثر أهمية عند ادوارد حيث الموانىء البريتانية Breton التى كان فى احتياج شديد للغاية إليها متمكنه من الحصول على رأس جسر فى شمال غرب فرنسا . اذ كان اغتيال آرتيڤيلد Arteveld فى أوائل ذلك العام وانهيار تحالفه مع الفلمنكيين قد حرمة من الموانىء الفلمنكية .

وفي الوقت نفسه فإن الهدنة المتكررة التي نظمها المبعوثون من قبل البابوية قد حولت المعارك القتالية في بريتانى وجاسكونى الى عمليات عسكرية قليلة الأهمية نسبيا . ومن ناحية ثانية ، ان آمال البابوية في الوساطة بشأن تسوية نهائية بين ادوارد وفيليب كان من الممكن أن تتحقق ، الا أن ادوارد لم يتخل اطلاقا عن هدفه في تحقيق سيادة كاملة على جنوب غرب فرنسا - وفي صيف سنة ١٣٤٦ ، شعر بأن الوقت مناسب للقيام بمجهود آخر كبير في ذلك الاتجاه . لذلك حشد جيشا في بورتسموث Portsmouth وربما وضع خطته الأولى على أساس ارسالهم الى جاسكونى لكي يساعد قواته ضد أتباع فيليب ، الذين كانوا يحاولون طردهم . بيد أن الرياح التي كان مقدرا لها أن تسوق السفن جنوبا ، أتت بما لا تشتهي السفن ، وسأقت سفن ادوارد تجاه كورنول Cornwall ، ويقال ان ادوارد أعلن أنه سيذهب الى أى مكان تسوقه الرياح اليه ، ابان هذه الحادثة الناتجة عن سوء الحظ . وسواء كانت هذه القصة حقيقية ، فان الرياح تغيرت تغيرا كاملا ومفاجئا الى الاتجاه المعاكس بعد فترة قصيرة ، وتحكم ادوارد في سفنه على نحو ملائم الى شاطئ نورماندى ، وميناء لاهاي ، التي أعلن صاحبها الاقطاعى تأييده لادوارد ، بعد أن أعلن فيليب طرده . ودخل ادوارد ميناء لاهاي في الثانى عشر من يوليو ، وخلال الأيام التالية أنزل من السفن جيشه الذى بلغ تعداده حوالى ثمانية آلاف فارس ، وعدة آلاف من المشاة .

واتضح أن التحصينات بالمنطقة كانت ضعيفة ، لذلك لم يجد صعوبة فى التقدم الى الأمام . وفى السادس والعشرين من يوليو استولى على مدينة كاين Caen الجميلة وعرضها للسلب والنهب . ولم ينتظر حتى يستولى على قلعة المدينة . ومن كاين انطلق صوب باريس بحذاء الضفة اليمنى لنهر السين . ولم يكن واضحا فى فكره أكثر من رغبته فى إلحاق أكبر قدر من الدمار والخراب بالمناطق الريفية . وعندما وصل ادوارد الى المنطقة المجاورة لباريس بلغه أن فيليب أعد جيشا ضخما للتصدى له . واقتضت الحكمة أن يسارع بالعودة الى انجلترا بيد أن أسطول له كان قد عاد بالفعل . وكانت السفن قد ذهبت الى انجلترا بناء على أوامره لنقل الجرحى والغنائم التى حصل عليها فى كاين ، بيد أن السفن الباقية أعلنت التمرد ، وبدا الموقف حرجا بالنسبة الى ادوارد فهو من بلد معاد بها جيش متفوق عليه يتحرك لقتاله ، وليس لديه سفن تحت يده تمكنه من الانسحاب . فاتجه بجيشه صوب اقليم الفلاندر على أمل أن يجد حلفاء هناك أو سفنا تحمله الى بريطانيا . على أن العقبة الأولى والشديدة كانت فى نهر السين ، ذلك لأن كل الجسور المقامة عليه اما أنها كانت من قوة التحصين الى الحد الذى يصعب عليه العبور عليها أو أنها قد تم تدميرها . وطالما أنه لم يكن لديه

الوقت لشن هجوم فقد كان من حسن حظه أن وجد جسرا ضعيف التحصين عند بلدة بواسي Poissy ، وفي السادس عشر من أغسطس قاد جيشه على وجه السرعة فوق هذا الجسر ، واتجه الى نهر السوم Somme .

وفي ذلك الحين كان فيليب وجيشه على مقربة من ادوارد بشكل خطير ، اذ كان الملك الفرنسي لديه آمال كبرى في اللحاق بادوارد المنسحب والحاق الهزيمة به . وعلى الرغم من أن ادوارد قد نجح في عبور نهر السين ، كانت لا تزال هناك فرصة طيبة لمنعه من الحركة بين ذلك النهر ونهر السوم . وكان ادوارد حريصا على ألا يقع في كمين ، ولم يساعده الا حسن الحظ من النجاة من كارثة . اذ قام أحد أهالي قرية أشوخ Acheux بافشاء سر مكان يبعد عشرة أميال شمال مدينة أبيفيل Abbeville حيث يمكن عبور نهر السوم سيرا على الأقدام ، ودون ما حاجة الى جسر أو قوارب عند حدوث الجزر في مقابل مكافأة سخية . ونجح ادوارد في العبور في الرابع والعشرين من أغسطس في اللحظة التي كاد فيها الحرس الفرنسي المتقدم يلحق به ، كما وجد الفرنسيون أنفسهم وقد حال المد المتزايد دون تمكنهم من عبور النهر . وأدرك ادوارد أن جنوده من المشاة قد وصلوا الى حد الانهباك ، ولم يعد في مقدرتهم مواصلة السير طويلا أمام الفرسان الفرنسيين ، لذلك تفحص ما حوله بحثا عن مكان مناسب ليستريح به . أما بالنسبة للمعركة التي قررت مصيره ، فقد اختار مكانا على تل صغير شرقي قرية كريسي Crecy .

وقبل وصف ما حدث في كريسي ، أول وأكبر معركة في حرب المائة عام ، فمن المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار القوة النسبية للجيشين والموارد المالية التي اعتمد عليها كل ملك . وفيما يتعلق بالقوى البشرية والثروة يمكن من أول نظرة تشبيهه انجلترا بقرمز على وشك أن يطبق عليه عملاق ! اذ بلغ عدد سكان فرنسا حوالي ستة عشر مليونا ، منها اثنا عشر مليونا عاشوا على أراضي التاج ، وتحت الحكم المباشر لفيليب ، أما عدد سكان بريطانيا فلا يزيد عن مليونين . وفاق تطور فرنسا الصناعي مثيله في انجلترا بكثير . والواقع أن تعداد سكان فرنسا ، وكذلك ثروتها جعلها أكبر دولة في غرب أوروبا دون ريب ، على حين يمكن وضع بريطانيا في الدرجة الرابعة .

ومع ذلك فإن تعداد السكان أو التقدم الصناعي في العالم الوسيط للقرن الرابع عشر لم يكن لهما تأثير يدنو من التأثير الذي لهما في الحرب الحديثة . اذ كان المال وما زال العنصر الأساسي الذي لا بد أن يؤخذ في الاعتبار . وبصفة خاصة كلما زاد المال عند الحاكم واستطاع أن يجند الرجال ، ويجمع المرتزقة والحلفاء ، كلما ازدادت قوة الجيش الذي يمكن

أن يتحدى به العدو . وإذا ما أدخل المرء في حساباته جهود ادوارد الاولى النشطة التي كلفته الأموال الباهظة لتكوين الصداقات ، فمن المدهش أن نعرف أنه لم يجد أحدا يقدم إليه يد المساعدة في كريسى . أما فيليب فمن المحتمل أنه أصاب نجاحا أكثر قليلا من ادوارد في هذه الناحية . وعلى الرغم من عدم وجود أى حليف رسمى لمساعدة فيليب ، فقد انضم إليه عدد قليل من الفرسان الراغبين في اثبات براعتهم العسكرية وشجاعتهم القتالية من أمثال حنا من لوكسمبرج ، وملك بوهيميا الضريع ، الذى حصر المعركة ومعه حاشيته من الفرسان واستخدم الملكان الأموال لحشد المقاتلين .

وتأهب الجيشان للقتال : جيش ادوارد على شكل حملة مغيرة ضخمة أما جيش فيليب فقد احتشد ليقيم بعملية مطاردة . وزود كل جيش نفسه بالمؤن أبان تقدمه وفقا للطريقة المتعارف عليها في ذلك الوقت ، وأعنى بذلك أنهم اعتمدوا على المناطق الريفية في الحصول على ما يحتاجون اليه من طعام ومال . وهذذه الضرورة حثمت تحديد حجم الجيوش بشكل مؤثر . أما بخصوص مقدار الأموال التى أنفقها كل من الملكين على الصدام المتوقع ، فلم يجد أى منهما تجاوبا يرقى الى ضخامة المهمة من مجلسيهما المناط اليهما مهمة التصديق على تحديد الضرائب ولقد كان الملك الانجليزى يقاتل في معارك اعتبرها معظم الشعب الانجليزى تدور في أراضى أجنبية . ولذلك لم يجد ادوارد استجابة من البرلمان . أما فرنسا فكانت مفككة وغير متحدة وبها النزعة الاقليمية الأمر الذى أعاق نمو الاحساس بالروح القومية ، وهو احساس كان من الممكن أن يدفع الولايات الى استجابة كبرى عندما طالب الملك بالأموال . ان الأمر كان يتطلب سقوط بلد آخر ، واستمرار وجود الانجليز المكروهين ، وظهور البطلة جان دارك قبل أن يأمل الملك الفرنسى فى أن تعمل مناشداته على خلق شىء يشبه الجهد الموحد ضد الأجنبي ، ومن الراجح تماما أن انجلترا البلد الأفقر أمدت ملكها بمساعدة مالية أكبر مما قدمت فرنسا لملكها .

لم يكتشف الجيش الفرنسى فى عهد فيليب السادس سنة ١٣٤٦ م عن تغير أساسى بالنسبة للجيش الفرنسى الذى حارب معركة بوفين فى عهد فيليب أغسطس . غير أن تغيرا ما حدث بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن أبان السنوات الأخيرة ، من حرب المائة عام . وما يمكن قوله عن تشكيل قوات فيليب الحقيقية فى جيشه أنها ظلت فى طبقة النبلاء الذين امتطوا صهوة الخيول والفرسان المدرعين بدروع ثقيلة الذين لازمهم . لقد تغيرت تجهيزات وأسلحة هؤلاء المحاربين بعض الشئ منذ موقعة بوفين . إذ صارت البذلة الخفيفة أثقل قليلا ، وأعلى ثمنا ، كما زودت الخوذات بجزء أمامى متحرك لتغطية الوجه ، وحملت الخيول قدرا أكبر من الدروع لحمايتها . لقد أدت التكاليف المتزايدة للدروع الحربية للفرسان وخيولهم

الى انقاص عدد الفرسان الذين يحملون أسلحة ثقيلة على حين ازداد عدد أولئك الذين يرتدون ملابس وقائية أقل . وعرف هؤلاء الفرسان المسلحون بأسلحة خفيفة عادة باسم الخيالة المساعدين أو أتباع الفرسان . وربما وجدوا أنفسهم منخرطين في جماعات أطلق عليها المهاجمون routiers تحت قيادة قادة مدربين ، باعوا خدماتهم لمن يدفع . واستخدم النبلاء الصغار والطموحون من الشباب هذا النوع من المسلحين لأنهم حققوا لهم أهدافهم بطريقة أكيدة وسريعة . وبعد كارثة بواتيه Poitiers التي حدثت بعد معركة كريسى بعشر سنوات ، عندما ترنح العرش الفرنسى على حافة الهاوية صارت للكلمة (المهاجمون) دلالة شائنة بسبب عمليات السلب والنهب التي مارسها هؤلاء الجند فى المناطق الريفية فى فرنسا .

واعتقد الانجليز والفرنسيون أن مصير الحرب يمكن أن يحدده الفرسان الذين يحملون معدات حربية ثقيلة . ومن الممكن أن يحقق أفراد من الفرسان فى كل من الجيشين تميزا ، لما يبنونه من شجاعة غير عادية ، بيد أن عدد الفرسان هو الذى يحدد فى النهاية نتيجة المعركة . ولهذا كان فيليب واثقا من النصر ، اذ كان يتمتع بعنصر التفوق فى هذا المجال . وكان ادوارد فى موقف الدفاع . ومن المحتمل أنه كان يحاول الهرب مع أن بعض العلماء قالوا له أنه متفوق عدديا ، والسبب فى ذلك افتقاره الى الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة . ومن المحتمل أن تفوق الفرنسيين فى عدد الفرسان أدى الى ثقتهم الزائدة عن الحد ، الأمر الذى ثبت أنه أتى بعواقب وخيمة عليهم ، كما فعلت الاجراءات الدفاعية التى لجأ اليها ادوارد بسبب افتقاره الى الفرسان .

وكان تحت امرة فيليب قوات من المشاة فى موقعة كريسى ، وكالوا من سكان المدن بصفة أساسية ، حيث جندهم وهو فى طريقه الى كريسى . وحمل هؤلاء الرجال الرماح فحسب . وأما دور الجنود الذين حملوا الرماح فى المعركة التالية فكان التصدى لهجوم فرسان الأعداء . ولم يتوقع فيليب ومستشاروه الاعتماد الكلى على هذا الصنف من الجنود فى القتال ، لذلك كان على الفرسان أن يكونوا أمام المشاة . وكان فيليب فى حاجة الى الرماة من أهل جنوة لاجداث توازن مع تأثير الأعداد الكبيرة من الرماة الذين أحضرهم ادوارد معه . ولم يسبق للفرنسيين أن شغلوا أنفسهم بالرماية سواء كلعبة رياضية أو كسلاح حربى . ولم يكن لهم من خيار سوى استئجار الرماة بالقوس والنشاب الأجانب . على أنهم استخدموهم فى أضيق نطاق . واذا كان هؤلاء الرجال يتقاضون أجورا عالية فضلا عن ميلهم لعمليات السلب والنهب ، اذا لم يكونوا تحت ادارة حازمة . (واستعان ادوارد ببعض الرماة من جاسكونى) .

وعلى الرغم من أن الجيش الفرنسى ظل مؤسسة إقطاعية بصفه أساسية منذ قرن مضى على معركة كريسى ، بقوته التى تركز على الفرسان ثقيل العدة ، فان الجيش الانجليزى أجرى تعديلا أو تغيرا أو تغيرين مهمين . وكان حدوث ذلك نتيجة للتجربة الشاقة التى اكتسبها الانجليز فى معاركهم مع سكان مقاطعة ويلز وكذلك سكان اسكتلندة ، وليس لمجرد أى تفوق فى المهارة حققها الانجليز فى معرفتهم لفنون الحرب . ولم يكن فى استطاعة شعب ويلز أو شعب اسكتلندة الفقراء تحمل نفقات الفرسان المسلحين بمعدات ثقيلة ، بل انه حتى لو كان فى استطاعتهم ذلك لكان من الصعب استخدامهم بسبب الطبيعة الجبلية فى البلدين . لقد اكتشف الانجليز لأول مرة عندما محاربتهم أهالى مقاطعة ويلز مدى تأثير السهام عندما تنطلق من الأقواس الطويلة بمعرفة الرماة المتحصنين خلف الصخور . وكان ادوارد قد اعتمد على تسليح جنود المشاة بالرمح عند محاولته الأولى لغزو مقاطعة ويلز ، بيد أنه أدرك فى الحال مدى قوة الأقواس الطويلة واستخدامها . وأصدر ادوارد الأول قانون ونشستر Statute of Winchester (سنة ١٢٨٥ م) الذى ألزم به كل الملاك الأحرار للممتلكات التى تزيد قيمتها عن أربعين شلنا أن يزود كل فرد منهم نفسه بقوس وسهم . وفى عهد ادوارد الثالث ، شكل المزارعون الأحرار من الانجليز ، طبقة صغار مالكي الأرض واستعان بهم الملك فى محاربة الانجليز . وكان لهؤلاء الرماة تأثير كبير فى الحرب فضلا عن رخص تكاليفهم نسبيا . ولم يكن لدى الفرنسيين ما يمكن أن يقارن بهم .

وبلغ طول القوس الذى استخدمته تلك الطبقة من الفلاحين الأحرار ستة أقدام ، ومن ثم أطلق عليها القوس الطويلة . ونظرا لأنها كانت أطول من القوس التقليدية فان مداها كان أطول فضلا عن أنها كانت أكثر دقة فى إصابة الهدف . وعلى بعد مائتى ياردة استطاعت السهام أن تخترق طبقتين من القمصان المصنوعة من الجلد المغطاة برقائى معدنية التى كانت تحمى الفرسان ، برغم أن الدقة فى ذلك المدى يمكن أن تكون محدودة . على أن هذه الأقواس اذا ما تم إطلاقها على يد مجموعة كبيرة من الرماة على مجموعة من الفرسان المتقدمة ، فانها يمكن أن تقضى عليهم قضاء تاما . فحتى لو لم تحدث بعض القذائف الموت الفورى ، فانها كانت تترك الكثير من الرجال جرحى فى الوقت الذى يمكن فيه أن تسقط الغالبية العظمى على الأرض عندما تثب خيولهم التى أصابها الذعر . ويمكن أن تكون النتيجة وجود حشد كبير من الرجال والخيول ، وقد أصابتهم جميعا حالة من الاضطراب والارتباك وضعف المعنويات .

ان طول مدى الإصابة للقوس الطويلة أعطاها ميزة مهمة على القوس والنشاب الأثقل والأصعب فى عملية الإطلاق ، وهناك ميزة أكثر أهمية

أن الفرد الخبير فى الرمي بالسهم يمكن أن يطلق من ستة الى سبعة سهام فى الدقيقة . لقد تعلم ادوارد كيف يستخدم هؤلاء الرماة بالسهم على الوجه الأمثل اذ وضعهم فى مقدمة جيشه حيث أمطروا الرماحين المعادين بوابل من السهام . وما أن حلت الفوضى والاضطراب بين هؤلاء الرماحين ، حتى أفسح الرماة بالسهم الطريق لفرسانهم الانجليز حيث تقدموا للهجوم . واذا شن الفرسان المعادون هجومهم دون الرماحين ، أمر ادوارد بتمركز الرامين بالسهم على يمينه قلب الجيش وعلى يسارته ، وعندئذ استطاعوا تسديد سهامهم القاتلة الى جناحى العدو المتقدم .

وذهبت قوة من الفرسان مع ادوارد الى كريسى على الرغم من أنها لم تكن كثيرة العدد مثل نظيرتها ، التى كانت مع فيليب ، وربما كانت الأفكار التقليدية عن الفروسية أقوى فى فرنسا عن أى بلد آخر فى غرب أوروبا . لقد حدث القتال أيضا فى الأراضى الفرنسية ، أما بخصوص طبقة النبلاء الانجليزية ، فان الغالبية من أعضائها ظلت فى أرض الوطن لأن القتال دار على تربة أجنبية ، كما أنهم لن يجنوا ثمرة واحدة لجهودهم . وكان ادوارد راغبا فى بقاء معظم نبلائه بأرض الوطن - اذ أوضحت له التجربة أنهم طبقة من الصعب التعامل معها - وساعدته هذه الطبقة فى التصويت على القرار الذى مكنه من جمع الأموال الكافية لجمع جماعات من الفرسان الذين وضعهم تحت قيادة ضباطه . واستخدم ادوارد أيضا اعانات أعضاء البرلمان فى تجنيد الرامين بالسهم والرماحين . أما عن المحاربين الذين لم يشكلوا عبئا على خزانة ادوارد ، فكانوا الايرلات earls والبارونات Barons الذين كان عددهم قليلا وهم الذين وقفوا بجانب التساج ، وذهبوا للمعركة ومعهم أتباعهم من الفرسان .

ولقد وجد المؤرخون صعوبة أقل فى تحديد الأنواع المختلفة من المحاربين ونوعية الأسلحة التى استخدموها عن تحديد العدد الفعلى الذى اشترك فى المعركة . اذ ان الأرقام التى ذكرها المؤرخون المعاصرون لا يمكن الاعتماد عليها ، اذ كان هؤلاء الكتاب أكثر اهتماما باثارة اهتمام قرائهم بنفس قدر اهتمامهم بالكتابة بدقة حتى ولو كان تحت أيديهم الأدلة لذكر الأرقام الصحيحة . على أن السجلات التى يمكن الاعتماد عليها هى الوثائق الادارية القليلة الموجودة حاليا ، التى تقدم معلومات مقبولة ودقيقة عن مسائلتى التجنيد والامدادات . ومع وجود ما قدمته تلك السجلات فما زال هناك تباين شاسع فيما يتعلق بالأعداد الاجمالية التى ذكرها العلماء المحققون .

وقبل العالم لوت Lot الأعداد التي ذكرها المؤرخ الانجليزي رمزي Ramsy اذ قال ان جيش ادوارد اقترب من عشرة آلاف رجل منهم ألف ومائتا فارس ، والباقي من الرماة وحملة الرماح ، والعديد من هؤلاء كان يمتطي صهوة الخيول . ويشير العالم Delbruck الى عدد ما بين أربعة عشر ألفا وعشرين ألفا من أساس حجم الجيش الذي استخدمه ادوارد عند محاصرته لميناء كاليه Colais بعد معركة كريسي مباشرة . أما الأعداد التي ذكرها أومان Oman فكانت أقل قليلا فهو يفترض أن الجيش تكون من ألفين وأربعمائة من الفرسان . حوالي عشرة آلاف من المشاة . واعتقد كل من ديلبروك ولوت أن الجيش الفرنسي ربما كان أقل الجيشين عددا ، ويعزو ديلبروك ثقة فيليب الى التفوق العددي الذي تميز به بالنسبة للفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة ، والى حقيقة أن ادوارد حاول تجنب الدخول في معركة بكل وضوح .

وأوقف ادوارد جيشه شرقي كريسي تماما ، ولم يكن مكان التوقف على الطريق الذي توقع اجتياز الفرنسيين له عند قدومهم من أبيفيل . واما اختار هضبة صغيرة شمال هذا الطريق Abbeville وموازية له ، وحقق وجود غاية وجدول صغير بعض الحماية لمينة جيشه . كذلك أمر ادوارد بحفر الخنادق لتحقيق حماية أكثر لذلك الجناح من جيشه ضد هجوم فرسان العدو . واستنتج ادوارد أيضا أنه اذا واصل الفرنسيون تقدمهم على الطريق ، فسيكون من الصعب على الفرسان ، مهما كانت قوة تنظيمهم اختراق صفوف الجيش اذا ما قدر لهم أن يقتربوا وصاروا جنبا الى جنب مع القوات الانجليزية . وكان أمل ادوارد في حدوث هجوم عاجل وغير منظم على قواته ذلك لأنه شعر بأن مثل هذا النوع من الهجوم فحسب هو الذي يمكنه من إلحاق الهزيمة بالعدو . واذا ما أجلت طلائع الجيش الفرنسي هجومها الى أن يتخذ كل الجيش مواقعه في مواجهة الجيش الانجليزي فان احتمالات انتصار الانجليز سوف تتضاءل بلا ريب .

قام ادوارد بصف جنوده في ثلاثة أقسام كل قسم يتكون من قلب من الرماحين والرماة والفرسان الذين ترجلوا عن خيولهم ويحمي كل قسم جناحين وحاجز من الرماة والسهام . وأمر ادوارد فرسانه جميعا بالترجل عن خيولهم والانضمام الى المشاة نظرا لأن قلة عددهم لا تمكنهم من العمل العسكري كوحدة قائمة بذاتها . كما أن وجود الفرسان بين الرماحين فيه تأكيد لهؤلاء الجند المشاة أن الفرسان الراجلين الذين شاركوهم القتال لن يتمكنوا من الهروب اذا ما دارت المعركة في غير ما يتمنى الجميع ووضع ادوارد قسمين من جيشه في مواجهة الطريق على الجهة اليسرى

واحتفظ بالقسم الثالث بالقرب من طاحونة هوائية التي استعملها كبرج للمراقبة . وما أن اتخذ رجاله مواقعهم حتى تناولوا طعام الغداء وانتظروا التطورات .

أما فيليب فقد قضى الليل فى أيفيل على بعد ميلين ونصف جنوب كرىسى . وفى الصباح وبعد أن سمع فيليب موسيقى القداس اجلالا واحتراما لجده الأعلى الورع لويس التاسع بدأ فى التحرك ليلاقى الانجليز . غير أن وقتا ثميننا ضاع فى البحث عن العدو . لقد كان معروفا أن ادوارد بالقرب من كرىسى الا أن الطريق الذى سلكه الفرنسيون قادهم الى غرب تلك القرية . كما أدت السرعة فى تصحيح مسار الجيش الى حدوث تأخير واضطراب شديد . وبسبب الوقت الضائع فى تصحيح مسار تقدم الفرنسيين ، فانهم لم يلحقوا بالانجليز حتى وقت متأخر بعد الظهيرة ربما كان حوالى الساعة الرابعة . واقتضت الحكمة أن يسمح فيليب لرجاله الجرحى والمرهقين أن ينالوا قسطا من الراحة ، قبل الدخول فى المعركة وهو الأمر الذى حدث بناء على رأيه ورأى جهازه الاستشارى . وتم ابلاغ الكونت الينكون Alencon الذى كان يرأس القسم المتقدم بما تم الاتفاق عليه (كان الجيش الفرنسى مقسما أيضا الى ثلاثة أقسام) .

وعلى الفور جرت الأمور وفقا للأوامر . اذ أوقف الينكون وجيشه الأمامى تقدمهم بناء على الأوامر ، حيث كانوا فى ذلك الوقت جنبا الى جنب ميمنة جيش ادوارد تقريبا ، بيد أن الجنود الذين فى المؤخرة ظلوا يضغطون الى الأمام . ويبدو أنهم لم تصلهم التعليمات على الوجه الأكمل عن مسألة التوقف ، أو أن درجة عدم انضباطهم هى التى حالت دون تنفيذ الأمر . وساد الاضطراب بسبب اندفاع الجنود من الخلف الى الأمام وازدحامهم بين أولئك الذين كانوا قد توقفوا بالفعل . وربما من أجل انقاذ الموقف الذى أُنذر بالتحول من سيئ الى أسوأ ، وربما بسبب تهور واندفاع فيليب الذى سيطر عليه ، أو ربما ادراكه أنه لن يستطيع أمر فرسانه بالرجوع للخلف بعد أن تحركوا فى مواجهة العدو مباشرة - وإن كان التعليل ضعيفا فقد أصدر الملك الفرنسى الأوامر بالهجوم .

ويتحدث المؤرخ فرواسار Froissart عن هطول وابل شديد من الأمطار عند بداية المعركة ، ثم انقشعت السحب ، وظهرت الشمس ساطعة ، لتسلط أشعتها على أعين المهاجمين الفرنسيين مباشرة . ولم تكن المزايا التى تمتع بها الانجليز قاصرة على وجود الشمس من خلفهم ، وإنما امتدت لتشمل مزايا نفسية وبدنية اذ كانوا على منطقة أعلى من المنطقة التى بها العدو ، وتمتعوا بوضوح الرؤية والمساعدة لذلك العدو أيضا .

بدأ الرامون بالقوس والنشاب من أهالى جنوا Genoese المعركة . فبعد أن أطلقوا ثلاث صيحات عالية على أمل القاء الرغب فى قلوب الرماة من الانجليز ، أطلقوا سهامهم القصيرة . فسقط معظمها أمام الانجليز دون أن تحدث أى أذى (٣) . ويقال أن الأمطار جعلت السيور الجلدية للأقواس والنشاب رطبة وأضعفت من فعاليتها بشكل خطير . ثم اتخذ الرماة الانجليز خطوة الى الأمام ، وأطلقوا سهامهم بكميات كثيفة جعلت المؤرخ فرواسار يقول ان الأمر بدا وكأن السماء تمطر ثلجا . وعندما أدرك الرامون بالقوس والنشاب من أهالى جنوه فشل هجومهم استندادوا للنجاة من سهام الانجليز المميتة . بيد أنهم وجدوا الطريق مغلقا فى وجوههم لتقدم جماعات الفرسان عند ذلك اعتقد فيليب أن الجبن أو الخيانة هى السبب الرئيسى فى حمل الرماة بالقوس والنشاب على الانسحاب . لذلك أمر فرسانه بالتقدم وأن يقتلوا أى رام بالقوس والنشاب يعترض سبيلهم ، حيث صرخ قائلا : « اقتلوا هؤلاء الأوغاد لأنهم يعترضون سبيل طريقنا دون أى سبب » .

كان هجوم الفرسان الفرنسيين الأول شديد الضراوة . ومن بين الخمس عشرة هجمة أو الست عشرة هجمة التى حدثت كان آخر الهجمات فى المساء . (اذ يقول فرواسار ان الأخيرة كانت عند صلاة المساء) واتضح أن احدى تلك الهجمات ضد ميمنة الجيش الانجليزى كانت من الشراسة الأمر الذى وجد فيه ادوارد ضرورة لارسال ثلاثين فارسا لتخفيف الضغط الشديد الذى تعرض له أمير ويلز قائد ذلك الجناح . غير أن الأمور سارت بصفة عامة فى غير صالح الفرنسيين . اذ تعرضوا للسهام الطويلة التى أشاعت الموت والهلاك ثم كانت هجمات الرماحين الانجليز الذين استخدموا مديهم الطويلة والحادة فى بقر بطون الخيول ، وقطع رقاب الفرنسيين الذين وقعوا تحت أيديهم . وقال فرواسار أن ادوارد نفسه كان غاضبا بسبب الحماس المجرد من الرحمة الذى أبداه الرماحون الانجليز . وكتب فرواسار قائلا : « من بين الانجليز يوجد بعض الأوغاد الذين ساروا على الأقدام ومعهم مدى طويلة وقاموا بذبح وقتل الكثير من الرجال الذين كانوا مطروحين على أرض المعركة الأمر الذى أثار استياء الايرلات ، والبارونات ، والفرسان ، وأتباع الفرسان بما فيهم ملك انجلترا ، لأنه كان يفضل أسرهم » . ان الكونت القتيل لايفيد ادوارد باى شىء ، وانما الفدية الكبيرة التى يحصل عليها من عشرين كونتا مقابل اطلاق سراحهم ربما يمكن أن تغطى نفقات الحرب !

ويصف المؤرخ الفرنسى بيروى Perroy المعركة على أنها انتهت بنصر الانجليز بيد أنها لم تحقق الا القليل من الفخر والشرف . اذ كتب

يقول : « فى الحقيقة ان ادوارد مدين بانتصاره الى احساسه بالنقص نقلة عدد قواته ، وهو الامر الذى يبدو شاذاً . اذ ان مواجهته للعدو فى العراء ، ومحاولته اجراء قتال متلاحم بين الفرسان وأعنى بذلك شن حرب وفقاً للقواعد التى يحترمها شخصياً ، ويرغب أتباعه الاقطاعيون فى مشاهدتها ، كان من الممكن أن تكون حماقة لا تغتفر ، فكان عليه أن يلجأ الى خدع دون اعداد مسبق لها وربما يكون قد شعر ببعض الحجل فى أعماق قلبه من جرائها . . فالأسوار الخشبية والشجيرات الصغيرة ، أخفت المشاة الذين لم يكن لهم نصيب فى الاحترام . وفى بداية الأمر صدرت الأوامر للرماة من أهالى منطقة ويلز بأن ينقضوا على الخيول والفرسان الذين يقاتلون دون خيولهم بأقصى درجات السرعة بل ان قليلا من الموانع التى لاتستخدم سوى فى أعمال الحصار استخدمها ادوارد لاشاعة الذعر فى الوقت المناسب . وعندما بدأ القتال ذبح ايرل ساليسيورى الجنود المشاة الذين أرسلتهم المدن العديدة والذين وصلوا متأخرين وأبادهم عن بكرة أبيهم .

لقد كانت خسائر الفرنسيين فادحة للغاية . وللدلالة على شدة ضراوة المعركة وبشاعة الكارثة التى منيت بها فرنسا وجود قائمة طويلة للنبلاء الكبار الذين لقوا حتفهم بها . ومن بين هؤلاء دوق اللورين Torraine ، والينكون Alencon وكونتات الفلاندر Flanders وأوكسير Auxerre وهاركور Harcourt وسانسير Sancerre وبلوا Blois وجراندير Grandpre ، وسالم Salm وبلادمونت Blamont وفوريز Forez وملك بوهيميا Bohemai الغرير . ويقال ان حوالى ألف وخمسمائة فارس وأتباعهم ماتوا ذبحاً . وأصيب فيليب فى هذه المعركة بجرح فى رقبته من سهم ، كما نفق جواده . ولم يكن هناك افتقار الى البطولة من جانب الفرنسيين . وكانت الخسائر الانجليزية طفيفة . وبالطبع لم تكن هناك خسائر بين النبلاء الانجليز الكبار اذ أن معظمهم ظل فى انجلترا .

ومن بين الأسباب المهمة التى ساهمت فى انتصار الانجليز كان الموقع الدفاعى الذى اختاره ادوارد والذى استطاع الاحتفاظ به طوال القتال . وكان قد انتصر على لاسكتلنديين فى معركة هاليدون هل Holidon Hill فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٣٣٣ م ، عندما أمر جيشه من الرماة والفرسان بالنزول من فوق خيولهم فى موقع دفاعى قوى مشابه للمكان الذى حدثت به معركة كريسى . وأنه لعمل يدل على ذكائه ، اذ أنه كان قادراً على أن يقود جيشه فى معركة دفاعية بحتة . بل انه بعد المعركة أعطى أوامر مشددة بعدم تعقب الفارين . اذ لو أن

جماعة من الحياالة الانجليز انطلقوا لجمع الغنائم مثلا فلربما وجدوا أنفسهم تحت رحمة الفرسان الفرنسيين الذين اشتركوا فى المعركة أو لم يشتركوا فيها . وأن عدم مقدرة الفرسان الفرنسيين على اختراق موقع ادوارد الدفاعى يمكن أن ينسب الى تقاعس الرماة فى أداء مهمتهم ، ثم فى عدم توافر النظام من جانب الفرسان الفرنسيين . اذ كان عليهم الا يشتبكوا مع العدو الا بعد أن يصلوا الى موقع فى مواجهة الجيش الفرنسى ، وعندما يكونون قادرين على الهجوم على امتداد الجيش .

ومن المرجح أن دور الرماة بالأقواس الطويلة من الانجليز كان حاسما . اذ ان اصابة فيليب المؤسفة - الجرح الذى كان برقبته وجواده الذى نفق - كان من صنع الرماة بالسهم . وبرغم ذلك فان هذه النقطة جديرة بالتفكير مليا ، وأعنى أن المتخصصين المعاصرين فى الشئون الحربية لم يدركوا أن القوس الطويل لعب دوره دون منازع . وفى معركة كريسى كان ادوارد على استعداد أن يستبدل الرامين بالسهم التابعين له بعدد مساو من الفرسان ، وعلى امتداد حرب المائة عام ، فبرغم استمرار الانجليز فى استخدام الرامين بالسهم فى معاركهم فانهم وكذلك الفرنسيين كانوا مقتنعين بأن الفارس المثلث بالأسلحة والدروع يشكل القوة الضاربة فى ذلك العصر دون منازع .

ولابد أن ادوارد كان مندهشا لسهولة انتصاره مع عظم أهميته . وعلى ما يبدو أنه لم يكن يعتزم سوى القيام بغارة تدميرية فى الأراضى الفرنسية ، ونظرا لاقتراب فصل الصيف من الانتهاء ، فان ادوارد لم يكن لديه تفكير فى استثمار انتصاره . وفى هذا المقام أبدى ادوارد حكمة وبعد نظره اذ ظلت فرنسا محتفظة بكل قوتها ، وفى استطاعتها حشد جيش فرنسى جديد فى مثل حجم الجيش الذى منى بالهزيمة ، وربما تعلم الفرنسيون من الأخطاء التى ارتكبوها فى موقعة كريسى .

ولم يكن لدى ادوارد رغبة سوى فى العودة الى انجلترا . ومع ذلك فقد كان فى حاجة الى ميناء لركوب متن السفن ، وميناء آخر ليقوم بعمل رأس جسر للحملات الحربية فى المستقبل الى القارة الأوروبية . لذلك

تحرك جيشه الى كاليه Calais فى اقليم بولونيا Boulogne الذى يتاخم اقليم الفلاندر الى الجنوب . وكان ميناء كاليه أفضل الموانى على امتداد كل شواطئ البحر فيما بين اقليمى الفلاندر وبريتانى Brittany كما أنها مدينة يصعب الاستيلاء عليها . اذ ان الخنادق العميقة والصور المزدوج - كل ذلك جعلها منيعة وفى مأمن من هجوم مباشر . وأدرك ادوارد أن عليه أن يعرض كاليه الى المجاعة حتى الاستسلام ، ولهذا السبب أحاط تلك المدينة بسد ليقطع عنها المواد

التموينية ، هذا فى الوقت الذى قامت فيه سفنه باعتراض سبيل كل الاتصالات البحرية اليها عن طريق البحر . وعلى ذلك قام جيشه الذى زاد تعداده عن خمسة عشر ألف مقاتل ، بمحاصرة المدينة طوال فصلى الشتاء والربيع . كما استطاع فيليب حشد جيش فى يوليو التالى وتحدى ادوارد فى الخروج من خلف استحكاماته التى بناها على وجه السرعة من الأشجار والأحجار والملاط ومواد البناء الأخرى والدخول فى معركة . بيد أن ادوارد رفض ذلك . اذ كان ادوارد يدرك أن الوقت فى صالحه ، وبالفعل كان كذلك ثم استسلمت كاليه فى الرابع من أغسطس سنة ١٣٤٧ م . . ثم ترك ادوارد حامية فى المدينة ، ورجع الى انجلترا فى أكتوبر .

وماذا يعنى انتصار ادوارد المبين فى كريسى بالنسبة لانجلترا وفرنسا على وجه التحديد ؟ ان أهم النتائج الفورية لانتصار ادوارد هو احتلال كاليه ، اذ ثبت أن له أهمية بارزة . فطوال المدة التى سيطر فيها الانجليز على هذه الميناء (حتى سنة ١٥٥٨ م) ، ظلوا فى مأمن من أى غزو فرنسى . وأمدت كاليه الانجليز برأس جسر عبر البوغاز من دوفر Dover وفاق كالا من اقليمى فلاندر وجاسكونى البعيدين ، وإبان الفترة التى عرفت بحرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥ م) والتى تلت حرب المائة عام (١٣٤٦ - ١٤٤٦ م) كان لامتلاك ادوارد لكاليه الفضل فى تحقيق أعظم انتصار على سكان لانكستر .

ان كريسى تمثل الانتصار الأول والأكبر الذى حققته انجلترا على القارة الأوروبية باعتبارها دولة « من أمة واحدة » . وبعد كريسى كان الفرنسيون ، والجزمان ودول القارة الأوروبية الآخرون ، أقل تحمسا لطرد الانجليز على اعتبار أن ذلك أمر لا أهمية له . وفى بداية حرب المائة عام كانت انجلترا مقتنعة بالاحتفاظ باقليم جاسكونى كإقطاعية تابعة للتاج الفرنسى مع توقف جهود الموظفين الفرنسيين ، واحكام السلطة الانجليزية فى ذلك الاقليم . وبعد كريسى رأى الانجليز أن من حقهم الاحتفاظ بجاسكونى باعتبارها ملكا لهم ، وكذلك الأجزاء الفرنسية الأخرى التى كسبوها بالحرب . وباختصار فان انتصار ادوارد فى كريسى أكد استمرار الصراع المعروف باسم حرب المائة عام . اذ تبع ذلك الانتصار انتصار آخر فى بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦ م ، مما جعل الانجليز مقتنعين أنه برغم النقص الملحوظ فى تعداد سكانهم وفى مواردهم ، فانهم كانوا قادرين تماما على السيطرة على قدر من مساحة فرنسا يعادل الذى سيطر عليه الفرنسيون أنفسهم .

٨ - معركة انقره

اسمه تيمور ٠٠٠ ولد في قرية الأمير ايلجار Ilgar في بلاد كيش Gesh وهي احدى مدن بلاد شرق بحر قزوين ، على بعد يومين من سمرقند ٠٠ وكان (تيمور) ووالده من الرعاة ٠٠ ويقول البعض ان والده كان حدادا فقيرا ، بيد أن تيمور كان مفرطا في الذكاء وقوى البنية . ودفعه الفقر الى مزاوله قطع الطرق ، وأصيب بجرح أثناء هذه العمليات أدى الى حدوث عاهة . ففي احدى الليالي « دخل حائط من حوائط سجستان قد أوى اليه بعض رعاة الضأن ، فاحتل منها رأسا وأدبر ، فشعر به الراعي وأبصر ، فاتبعه للحين ، وضربه بسهمين ، أصاب بأحدهما فخذه ، وبالأخر كتفه » ٠٠ وبذلك أضيفت عمليتي التشويه والعاهة الى فقره ، وميله الشديد للاحاق الأذى بالآخرين ، وحقده الشديد ، حيث انطلق يعيث الفساد ضد كل العباد . رواه (١) .

هذا ما رواه ابن عربشاه عن تيمور . وكان ابن عرب شاه قد انتقل بالقوة الى سمرقند ومعه والدته واخوته ، مع آلاف آخرين من التعمساء ، عندما سقطت دمشق في يدي تيمور سنة ١٤٠١ م . وفي ذلك الحين جعل تيمور من مدينة سمرقند أكبر وأجمل وأهم مركز تجارى فى أواسط آسيا . وعلى الرغم من أن ابن عرب شاه وصل الى سمرقند كأحد الأسرى فان الحظ تبسم له اذ تلقى تعليمه فى سمرقند ، وسافر كثيرا وعمل مستشارا للسلطان أحمد جلال يار فى بغداد . واذا كان ابن عرب شاه احتفظ منذ صباه بأى احساس بالمرارة تجاه تيمور لتحويله أسرته الى عبيد ، فان هذا الاحساس تفاقم سنة ١٤٠١ م عندما استولى تيمور على بغداد ، وأجبر جلال يار على الهروب الى بايزيد ، سلطان الأتراك العثمانيين طلبا للحماية . ولقد خاض تيمور معركة أنقرة ضد بايزيد .

ويبدو أن عربشاه ليس مصدرا ملائما للمعلومات عن حياة تيمور ، ومع ذلك قبل العلماء الكثير من تحليلاته باعتبارها صحيحة بصفة عامة . ويعتقد ابن عرب شاه أن تيمور ينتمى الى أصول متواضعة ، ومن المحتمل

أنه ينتمي الى الرعاة ، وأنه ولد سنة ١٣٣٦ م بالقرب من كيش (شهر زاب الحديثة) التي تبعد خمسين ميلا جنوب سمرقند ، فى اقليم شرق بحر قزوين ، وتحول الى قاطع طريق فى شبابه وفى مكان ما . ابان حياة العنف أصيب بجروح نتج عنها اصابته بالشلل فى ذراعه الأيمن وساقه اليمنى . ولابد أنه أصيب بتلك الجروح من أحد الرعاة فى ثورة غضب ويقول المؤرخ العربى الشهير ابن خلدون ، الذى زار تيمور فى معسكره خارج دمشق ، ان تيمور اعترف له بذلك . وبسبب عاهته أطلق عليه تيمور الأعرج (من الاسم الفارسى تيمورلنك) وقد تأكد ذلك سنة ١٩١٤ م عندما نبش قبره فى سمرقند . وكما ذكر عرش شاه ، انطلق تيمور يعيش فى الأرض فسادا . وهو قول صحيح . اذ عرض شعوبا كثيرة للذبح والتقتيل وأحدث خرابا كثيرا ابان بناء امبراطوريته مثل سلفه المغولى جنكيزخان (٣) .

لا يعرف الغربيون الكثير عن البلد الذى ولد به تيمور . وكان الاسكندر الأكبر قد خاطر بالذهاب الى ذلك الاقليم غير المعلوم سنة ٣٢٩ ق م ، قبل الاتجاه جنوبا صوب الهند . ومنذ القرن الثانى عشر بدأت البعثات التبشيرية النسطورية ترفع الستار التى حجبت تلك الأراضى عن أوروبا . وكان جنكيزخان أشهر قادة المغول والشخص الوحيد الذى أجبر العالم المسيحى على الاهتمام اذ شملت الامبراطورية التى أقامها والتى عمل أبناؤه وأحفاده على زيادة رقعتها بلاد الصين ووسط آسيا وبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين وجزءا من بولندا والمجر والجزء الأكبر من روسيا . ولكن الامبراطورية المغولية ظلت محتفظة بكل قوتها لفترة قصيرة من الزمن فحسب وأخذت فى التدهور منذ نهاية القرن الثالث عشر ولم يقدر البقاء الا لدولة مغولية واحدة . وكان هناك تقليد ينص على أن يمارس رؤساء القبائل المحليون سلطتهم ، وفقا للسلطة العليا الممنوحة لهم باعتبارهم من سلالة جنكيزخان . ولم يكن مسموحا الا لسلالة جنكيزخان بأن تحمل لقب خان . ومن المحتمل أن الأمراء المحليين الذين انتشروا حول العالم المغولى حكموا قبائلهم ، وحاربوا جيرانهم كممثلين عن الخان وان ظلوا فى عزلة عنه نسبيا .

تلك كانت الحالة فى شرق بحر قزوين ، وعندما ولد تيمور الذى تنحدر أسرته التركية من سلالة المغول . وظل تيمور دائما يبدى تبجيلا لذكرى جنكيزخان . ومنذ الصغر كان تيمور مولعا بحياة الجندية حيث كانت الفرصة متاحة هناك فى أرض غير مستقرة وغنية وخاصة شرق بحر قزوين . وكانت هناك مدن مزدهرة مثل سمرقند ، وبخارى اللتين عملتا على زيادة أهمية البلاد واجتازت القوافل المحملة بالبضائع طريق الحرير

القديم بين غرب آسيا والصين بصفة مستمرة . وبمرور الوقت انضم
تيمور الى جيش الأمير وفاز بالخطوة عنده الى حد أنه تزوج من حفيدته .
وشهدت السنوات التالية تعاوناً بينه وبين صهره حسين ، فى بسط
نفوذهم على اقليم شرق بحر قزوين . وتلت ذلك خطوة مهمة فى حياة
تيمور عندما قتل صهره وتزوج من زوجته التى كانت احدى قريبات
جنكيزخان - وهو الرابط الوحيد الذى تمسك به تيمور فى انضمامه الى
أسرة الخان الشهيرة - وفى سنة ١٣٧٠ م انتخبه الأمراء وريثاً
لشغاطاي (الابن الثانى لجنكيزخان) وحاكماً على اقليم شرق بحر
قزوين .

وقضى تيمور السنوات التالية فى تدعيم سيطرته على اقليم شرق
بحر قزوين ومد نفوذه على خانات تركستان وخورستان . وشكل معظم
هذا الاقليم الامبراطورية التى تركها جنكيزخان الى ابنه الثانى شغاطاي
الذى اعتبر تيمور نفسه وريثاً له . وكان موقع هذه الامبراطورية جنوب
بحيرتى آرال وبلخ تقريباً . وما أن نجح تيمور فى اخضاع هذه الأراضى
الشاسعة حتى وقع فى أفدح الأخطاء فى حياته ، وفقاً لما قاله أرنولد
توينبى Arnold Toynbee (٤) . فبدلاً من تكريس جهوده لاعادة
انشاء الامبراطورية الأوروبية الآسيوية التى أقامها جنكيزخان وفرض
السلام على القبائل الرحل المختلفة التى عاشت على الترحل فى هذا
الاقليم الشاسع فانه وجه كل اهتماماته الى الغرب والجنوب وروسيا
والقوقاز وايران والهند بل وسوريا حتى أضاع وقته فى الحملات الحربية
المدمرة والمثيرة للذعر ، وضم الأراضى وهو الأمر الذى ذهب أدراج الرياح
فى لحظة وفاته تقريباً .

قاد تيمور جيشه شمال بحر آرال لى يجبر أتراك كازاخستان على
الخضوع لحكمه . وبتحركه الى هذه المنطقة دخل فى صراع مع خانات
القبائل الذهبية والقبائل البيضاء ، الذين امتد نفوذهم غرباً الى روسيا
وما خلفها . وكانت القبيلة البيضاء القبيلة الأولى التى التقى بها تيمور
لقربها منه ، ووجد تيمور الفرصة للتدخل عندما هرب اليه توختاميش
أحد الأمراء من الطبقة الحاكمة طالبا حق اللجوء . وأمدّه تيمور بالجيوش
لعدة سنوات لمحاربة خان القبيلة البيضاء . وبعد عدة محاولات غير موفقة
فقد فيها تيمور ثلاثة جيوش استطاع توختاميش هزيمة الخان وأعلن نفسه
حاكماً على القبيلة البيضاء (١٣٧٨ م) . وبعد ذلك بسنوات ثلاث هزم
توختاميش خان القبيلة الذهبية ، واستولى على موسكو بالخيانة ، وأعلن
نفسه خانا على كل القبيلتين الذهبية والبيضاء .

غير أن نجاح توختاميش جعله ينسى ولى نعمته وسيدته دفعت طموحاته فى اقامة امبراطورية أكبر الى الدخول فى مفاوضات مع سلطان مصر من أجل اقامة تحالف ضد تيمور . وعلى الفور دخل تيمور فى حرب ضد توختاميش بسبب الخلاف حول حدود اقليم خوزستان وشرق القوقاز فى بداية الأمر ثم بسبب بحر قزوين نفسها . ودفعت مغامرة توختاميش الجريئة به الى بخارى ، بيد أنه وجد المدينة قوية التحصين لدرجة أنه وجد استحالة الاستيلاء عليها . ودخل الرجلان فى معارك مريرة ، غير أنها لم تكن حاسمة . وكان آخرها فى أبريل ١٣٩٥ م فى القوقاز . وانتصر تيمور على جيش خصمه وقضى عليه .

وفى ذلك الحين تحرك تيمور صوب روسيا للاستيلاء على موسكو . وبعد التخلص من توختاميش كان دوق موسكو هو أقوى رجل فى روسيا وكان قد مد نفوذه على الامارات المجاورة له وعلى نوفجورد Novgord الى الشمال . وعند اقتراب تيمور من مدينة موسكو استعدت المدينة على قدم وساق للدفاع عن نفسها بل وأرسلت الى الكاتدرائية فى فلاديمير Vladimir فى طلب أيقونه سيدتنا (مريم ابنة عمران) (*) للحصول على بركة السماء ومساعدتها . وربما من قبيل المصادفة أن انسحب تيمور بجيشه عن مدينة موسكو وعاد ثانية الى مدينة سمرقند فى اليوم نفسه الذى وصلت فيه الأيقونة . ورغم ذلك فقد ترك تيمور الانطباع بأنه استولى على مدينة موسكو وغزا روسيا . ولقد قبل العديد من العلماء المحدثين هذه المعلومة من الناحية النظرية . ومن المحتمل أنه كان فى قدرته الاستيلاء على موسكو ، ولكن بعد أن يكون ضرب حصارا طويلا حولها وتكبّد خسائر جسيمة . ومن الواضح أنه وضع فى اعتباره شجاعة المحاربين من الروس وحلفائهم ومقدرتهم القتالية . ولاشك أنه علم أن توختاميش لم يتمكن من الاستيلاء على تلك المدينة من قبل الا بالخيانة .

على أية حال ، عاد تيمور الى شرق بحر قزوين حيث مارس عمليات السلب والنهب ، وهو فى طريقه وقام بهدم كل مراكز التجارة الكبرى فى جنوب روسيا مثل ساراي Sarax وآزوف Azov وتانا Tana واستراخان Astrakhan وسواها جميعا بسطح الأرض . وكان تخريب مدينة ساراي شديدا لدرجة أنه لم يبق سوى الأنقاض . وأصبحت خاقانية القبيلة الذهبية بضربة اقتصادية مينة كنتيجة لحملة تيمور فى روسيا . اذ ان الطرق التجارية التى كانت من قبل تمر ببحر قزوين الى الصين والهند تحولت فى ذلك الحين جنوبا

(*) ما بين قوسين من عند المترجم .

عبر شرق بحر قزوين • ولم تسترد القبيلة الذهبية مركزها المهيمن مرة ثانية أبدا وتدهورت تدريجيا نتيجة لما فعله تيمور المفرع •

ان حملات تيمور ضد توختاميش قد أفضت الى تحوله الى فاتح عالمي وكتب ادجار آلن بو Edgar Allan Pow أن تيمور قال متأملا : « انى سبأكن كوخ ، ولكن عرش نصف العالم تحت سيطرتى » (٥) • وبحلول سنة ١٣٩٥ م قضى تيمور على توختاميش وفتح أفغانستان ومولستان - ويضم هذا الاقليم الشاسع بلاد الجاتي Jats (شعب هندي أوربي يقيم فى البنجاب بالهند) (*) ويمتد جنوب بحيرة بلخ الى حدود الصين وخورستان وجورجيا ، والعراق • وكان قد توجه الى العراق سنة ١٣٩٣ م • وعند اقتراب تيمور من العراق هرب أحمد جلال يار سلطان العراق الى برقوق سلطان مصر طلبا للحماية دون أن يبدي أى مقاومة لتييمور • وعندما أرسل تيمور السفارات الى القاهرة طالبا تسليم أحمد جلال يار اليه • لم يكتف برقوق برفض تسليمه أحمد جلال يار وانما أعدم أحد أعضاء وفد تيمور • واستمر برقوق فى تحديه لتييمور الى أن توصل الى نوع من التفاهم والاتفاق مع بايزيد السلطان التركى ، من أجل اقامة جبهة موحدة ضد تيمور • ومن الواضح أن العلاقات ظلت قائمة بين مصر والعثمانيين الأتراك غير أن دورهم جاء فيما بعد •

وفى ربيع سنة ١٣٩٨ م لم يقدر تيمور جيشه لمحاربة العثمانيين الأتراك أو سلطان مصر عدوه الرئيسى ، وانما صوب الهند • وطالما أن الهند لم تكن تشكل خطرا على امبراطوريته ، فان التفسير الوحيد لذهابه اليها هو كميات الغنائم الهائلة التى توقعها تيمور وجيشه هناك • ولسنوات كثيرة قام أمراء المغول بغارات على شمال الهند • وعلى الرغم من أن هذا الاقليم كان به الكثير من المدن الغنية هنا وهناك ، فانه افتقر الى الوحدة السياسية • وهذه المنطقة وما بها من مناخ دافئ ووديان مورقة جعلها موضع اغراء بصفة خاصة الى تيمور والمغول • وفى شهر أغسطس وصل تيمور الى كابول فى أفغانستان حيث وردت الوفود التى أرسلها حكام الولايات المحيطة بها يعلنون ولاهم واستسلامهم بعد أن أصيبوا بحالة من القلق • وفى شهر سبتمبر وصل تيمور الى نهر الهندوس Indus River • وفى شهر ديسمبر ضرب الحصار حول مدينة دلهى الكبيرة • ثم قام بذبح أكثر من مائة ألف من الأسرى الذكور الذين جمعهم ، وهو فى طريقه الى الجنوب خشية أن تصدر منهم متاعب ابان حصار دلهى •

(*) ما بين قوسين من عند المترجم •

كان من الممكن أن يستولى تيمور على مدينة دلهى دون صعوبة كبيرة ، إلا أن حاكمها الضعيف سهل عليه الأمر ، إذ خرج بجيشه خارج أسوار المدينة ، والتقى مع تيمور . أما تيمور الذى كان على علم بأن جيشه سيلتقى بالفيلة ، أشعل النيران فى حزم الحشائش الجافة ، والأعلاف التى كانت على ظهور الجمال والجاموس ودفع بها جميعا تجاه الفيلة ، التى لاذت بالفرار مذعورة . وهكذا تم الاستيلاء على مدينة دلهى وهى المدينة الرئيسية ، فى شمال غرب الهند بطريقة أسهل كثيرا مما كان متوقعا . ومن المحتمل أنها كانت أكبر مخزن للغنائم التى لم يحصل عليها المغول من قبل فى أى وقت ، « ان الثروة التى جمعتها أجيال من السلاطين اختفت فى أيام قلائل فى أيدي التتار » (٦) . وتعرضت دلهى نفسها لعمليات سلب ونهب مجردة من كل رحمة لمدة ثلاثة أيام ، وبعدها صدر تحذير لكل من يجرؤ على تحدى ارادة تيمور . وبلغت كميات جماجم القتلى ارتفاع الأبراج .

وفى مايو ١٣٩٩ م عاد تيمور من الهند الى سمرقند . وكان قد بلغ الثالثة والستين من العمر . ووضع تيمور فى اعتباره ، مسألة كبر سنه ، واصابته بعاكة فى ساقه فرضت عليه أن ينتقل فى محفة من حين الى آخر واصابته كذلك عدة أمراض وضايقته لذلك كله توقع المرء أن يبقى تيمور فى عاصمته الجميلة . بيد أن تيمور كان بدويا عنيدا وعنيفا ولم تعجبه حياة المدن على الإطلاق بما فيها سمرقند عاصمته . ومازال هناك امبراطوريتان لا بد من قهرهما ، مصر والأتراك العثمانيون . ونظرا لأن الأسرتين الحاكميتين فى كل من الامبراطوريتين انحدرتا من نفس السلالة التى انحدر منها مقاتليه فان هاتين الامبراطوريتين عرضتا الى أخطر اختبار اجتازه طوال حياته .

وفى ذلك الحين كشف تيمور عن نفسه بأنه مجرد من الرحمة ، ولا يدانيه فى ذلك الا قلة فى التاريخ . اذ لم يكن يسمح لأى شئ أن يعترض سبيله من أجل تحقيق طموحاته ، حتى لو كان صهره حسين الذى بفضل مساعدته تمكن من الفوز بالسيطرة على شرق بحر قزوين . اذ لم يكده حسين يحقق هدف تيمور حتى سارع تيمور بعزله . وعمل تيمور على تنمية سلوك التجرد من الرحمة عند رجاله . اذ بعد أن جمع الصناع المهرة والعلماء والفتيات ومن شابهم من البشر « النافعين » فصلهم عن باقى سكان أى مدينة تقع فى أيدي رجاله ، وأرسل كل هؤلاء الى سمرقند ، أما ما بقى من سكان تلك المدينة ، فقد ذبحهم الجنود اذ ان كل هؤلاء لم يكن لهم قيمة تزيد على قيمة الدجاج عندهم . ونظرا لأن مدن الأعداء ليس لها فائدة لتيمور ورجالهم من البدو فان القليل منها ترك

دون الاصابة بأذى • ويذكرنا هذا بالرأى القاسى لتاكيثوس Tacitus المؤرخ القديم فى كتابه اجريكولا Agricola فى القسم المتعلق بغزو روما لبريطانيا ، « انهم أحدثوا الدمار والخراب ويطلقون عليه السلام » (V) •

ان تجرد تيمور من الرحمة كان أحد الأسلحة التى استخدمها ضد أعدائه • وكان يجبر أهالى المدن التى يرغب فى امتلاكها بالابلاغ عن كل ما فى حوزة هؤلاء الذين قاوموا قواته - فقام بهدم المدن وتسويتها بالأرض وذبح الأهالى وحول بعضهم الى عبيد ودفن الآلاف أحياء فضلا عن اقامة أهرامات من جماجم قتلاه • لذلك استسلمت مدينتا حماه وحمص دون مقاومة • وكان تيمور متعجلا فى الاستيلاء على دمشق فى ذلك الحين ، هذا فى الوقت الذى تحرك فيه جيش من مصر لذلك لم يتحمل تأخر الحصار • وتعرضت دمشق الى السلب والنهب والتدمير بالرغم من أن المدينة استسلمت • اذ ان تيمور قد أشار بتدمير المدينة منذ البداية • ذلك لأن اهتمامه الأول كان منصبا على الاحتفاظ - بسعادة محاربيه ، ولا شيء يجعلهم أكثر سعادة من السلب والنهب ، وجمع الغنائم ، حيث عودهم تيمور على السماح لهم بذلك عن طوعية بعد احتلال أى مدينة •

على أن تاريخ السلب والنهب والقتل يشير الى تفسير حالات تيمور المستمرة • اذ ان الأمر الوحيد الذى جعل رجاله يشعرون بالرضى هو جعلهم فى حالة تأهب واتاحة الفرصة لهم للاستيلاء على المدن وجمع الغنائم • فلم تكد تنتهى حملة عسكرية بالنصر وجمع الغنائم والاسلاب والقتل حتى تتلوها حملة أخرى بعد وقت قصير • وعندما يضع المرء فى اعتباره حقيقة أنه برغم اقتراب تيمور المصاب بعاة فى ساقه من سن السبعين • وكان يعد لمهاجمة الصين للمرء أن يستنتج أنه اما قد أصبح عبدا لطموحاته التى لا حد لها فى أن يحكم العالم أو أن ذلك بناء على رغبة جيشه فى السلب والنهب • ولو أنه حاول وضع نهاية لحملاته العسكرية لأفلت منه زمام السيطرة على جيشه •

كان ولاء تيمور الظاهرى للاسلام يثير الدهشة وبخاصة أنه كان رجلا فى غاية القسوة ومجردا من أى مبادئ • فقبل كل معركة كان يسجد كما يفعل المسلمون تماما ، وبعد النصر كان يتضرع لله شكرا على تحقيق النصر • وكان يزور المساجد القريبة منه ابان حملاته العسكرية ، ويبرر حملاته العسكرية بأنها ضد الكفرة والنصارى والمسلمين الذين لا يتبعون التعاليم الحنيفة للاسلام • ومع ذلك فان هذا كان من قبيل الخداع والرياء اذ لابد أنه كان يأمل من صلاته ودعائه الى الله أن يمه جنوده بنصر من عنده باعتبارهم يؤمنون بالدين

الذى تظاهر بالايمان به • على أن العلماء المتعاقبين أيدوا رأى « ادوارد جيبون » مؤرخ أواخر القرن الثامن عشر فيما يتعلق بمصادقية عقيدة تيمور أنها كانت ، « احتراماً مبنيًا على الايمان بالخزعبلات القائمة على أقوال العرافين النبوءات ، وأقوال القديسين والمنجمين ، وأنها كانت وحدها المحركة لسياسته » (٨) •

وبالإضافة الى اشاعة الذعر والتحدث باسم الدين استعمل سلاح التجسس على العدو كوسيلة لكسب المعارك • اذ كان جهاز التجسس الذى احتفظ به مزودا بالرجال القادرين على التحدث بلغات الشعوب المختلفة الذين سيحاربهم • فعلى سبيل المثال تفرض عليهم الضرورة أن يتظاهروا بأنهم يهود ويتحدثون عن التلمود • كما كانت تمر الشهور التى يجمع فيها الجواسيس المعلومات قبل أن يتحرك تيمور للقاء العدو • ووفقا لما ذكره عرب شاه فان هؤلاء الرجال كانوا يعرضون عليه حوادث وأخبار البلاد البعيدة ويصفون له الأمور التى لها أهمية وشهرة ويعرفونه أوزان السلع وأسعارها ويحددون له مراكز البريد والمدن وخرائط الطرق السهلة والوعرة والمنازل وأماكن الإقامة والمسافات طويلها وقصيرها والممرات الضيقة والمساحات الشاسعة والحدود ، وتحديد المسافات شرقا وغربا ، وأسماء المدن والقرى ، والفنادق والمنازل والخانات ، والعشائر وشعب كل مكان وقادتهم ، وأمرائهم ، وعلية القوم والشخصيات البارزة والنبلاء ، والأغنياء ، والفقراء ، والاسم ، والكنية ، واللقب ، وأسرة كل فرد والحرفة التى يمارسها ، والأدوات التى يستخدمونها وبهذه الطريقة يبدى اهتمامه بكل هذه المعلومات ، وبفضل بعد نظره استطاع اخضاع كل الممالك الى سلطانه (٩) • وبفضل احتفاظه بهذه المعلومات لم يكن تيمور قادرا على تحريك قواته بسرعة غير عادية فحسب ، وانما كان قادرا على التحديد المسبق ، قبل ضرب الحصار على أى مدينة ، لنوعية الثروة التى يتوقع الحصول عليها ونوعية الفنانين الذين يحتاج اليهم فى سمرقند •

واحتفظ جيش تيمور بنفس خصائص ونظم جيش سلفه جنكيز خان بصفة أساسية اذ كان هذا الجيش بدويا فى أغلب الأحوال ، وتركزت قوته فى الفرسان الذين يستخدمون السهام ، والذين تمرسوا على المتطلبات الجسمانية لركوب الخيل لمسافات طويلة فى أقصر وقت ممكن ، وتحدى أشد الظروف قسوة • وتمرن هؤلاء الرجال منذ طفولتهم ، على ممارسة مهارتين برعوا فيهما عندما صاروا محاربين ، وأعنى بهما ركوب الخيل والرمى بالسهم • ويقال ان صيد الحيوان كانت الرياضة الوحيدة التى مارسها هؤلاء البدو لأنهم استطاعوا ركوب الخيل واستخدام نبالهم • وبسبب قدرتهم على الحركة بسرعة ، وعلى التحمل غالبا ما كانوا

يركبون خيولهم على ضوء القمر أو بمساعدة المشاعل الكبيرة - فان جنود تيمور كثيرا ما انقضوا على جيش العدو ومدنه قبل أن يتوقع ذلك العدو بكثير . بل ان الجواد المغولى كان قويا كراكبه ، ويستطيع المراء التعرف على الطرق التى سلكها جيش تيمور من خلال الهياكل العظمية للخيول التى نفقت ابان ركوبها .

واستبقى تيمور النظام العشرى الذى استخدمه جنكيزخان فيما يتعلق بالناحية الادارية . اذ قسم رجاله الى مجموعات من عشرة رجال ، ومائة رجل ، وألف رجل ، وعشرة آلاف رجل ، وجعل لكل مجموعة قائد خاص بها . وكان لكل رجل مكانه المحدد ، الذى لم يكن فى استطاعته مغادرته مهما كانت الظروف . وحمل الفارس الرامى بالسهم سيفا ذا حد واحد وطرفه معقوف وحاد ، وقاسا وكنانة للسهم وترسا . ووضع الفارس على رأسه خوزة مدببة ، وارتدى قميصا به دروع ، وترك شعره فى شكل ضفيره صغيرة تتدلى من مؤخرة الرأس . ولحماية دابته ، وضع حول صدرها وكتفيها بعض وسائل الحماية . وكانت هناك دابة احتياطية لكل فارس لمواصلة العمل اذا ما احتاج اليها . ولجأ تيمور الى استخدام جنود المشاة ، وهو الامر الذى لم يُلجأ اليه جنكيزخان ، على الرغم من أنهم مارسوا فى العادة أعمالا حربية غير القتال المباشر . اذ قام هؤلاء المشاة بالعمل على اجتياز دفاعات العدو المحيطة بمعسكره سرا ، وحفر الأنفاق تحت مواقعه ، وتشغيل وحراسة آلات الحصار ، وتشغيل الآلات القاذفة للهب أو الزيت الملتهب ، والسيال المصنوعة من الجبال ، والأخشاب الخاصة بعمل السقالات ، والأدوات والوسائل الحربية . ونظرا لأن تيمور لم يبد على الإطلاق أنه افتقر الى معدات الحصار عندما كان يصل الى مدينة معادية ، فان تعداد الرجال المكلفين بتلك الأدوار المساعدة ربما كان يضاهى تعداد المقاتلين أنفسهم . واستخدم تيمور البارود ، فى نسف الأسوار لا كسلاح نارى يستخدم فى البنادق .

وأما أعداء تيمور ، تركيا ومصر ، فقد قرر تيمور أن يقهر مصر أولا ويخضعها لارادته . وممر هذا البلد العريق بفترات عظيمة وتدهور ، وفى عهد تيمور كان فى حالة ازدهار تحت حكم السلطان المملوكى . ان المماليك الأول قدموا الى مصر كرقيق وكانوا من الأتراك والجراسكة ، الذين جلبوا من روسيا ، والقوقاز ، ووسط آسيا لتدعيم الجيش المصرى . وليكونوا حرسا شخصيا للسلطان . وفى سنة ١٢٥٠ م حل المماليك مكان الاسرة الأيوبية المتدهورة ، تحت حكم سلطنة من بينهم . وبعد ذلك بوقت قليل قضوا على جيش مغولى ، على بعد حوالى ثلاثين ميلا شمال بيت المقدس (سنة ١٢٦٠ م) . ثم اقتتلوا جذور الامارات الصليبية الباقية فى

سوريا • وعلى الرغم من أن العهد المملوكى فقد كثيرا من نشاطه وحيويته التى ظهرت فى بداية عهده ، فإن السلطان برقوق استطاع أن يتحدى تيمور بالقدر نفسه الذى سلكه أسلافه ضد الغزاة المغول منذ قرن ونصف من الزمان •

وكان من حسن حظ تيمور ، فى صيف ١٤٠٠ م ، عندما بدأ السير غربا فى حملة للاستيلاء على سوريا ، ان برقوق كان قد فارق الحياة • اذ مات فى العام السابق وترك عرشا مترنحا لابنه الصغير فرج • ونتيجة للصراع على خلافة السلطنة فى مصر ، كان فرج موفقا فى الاحتفاظ بعرشه ، اذا تجاوزنا عن ذكر الهزيمة على يد تيمور الذى لا يقهر • على أية حال ، لم يكن تيمور منتظرا وفاة برقوق لحسم المسألة مع عدو أعد العدة لحره • وكان برقوق متهما بقتل أحد مندوبيه • واذا كانت هناك ذريعة لمهاجمة مصر ، فقد استطاع أن يجد مبررا فى رفض فرج الاعتراف بسيادته ، واعادة الفارين الذين هربوا من بلاط تيمور •

وكما حدث ، كانت تركيا وليست مصر هى التى عانت أولا من هجوم تيمور فى صيف ١٤٠٠ م • وكان بايزيد قد اجتاح الامارات فى شرق الأناضول التى كانت تحت قيادة تيمور ، بما فيها مدينة سيفاس Sivas على نهر هاليز Halys River • ولا ريب أن تيمور وضع فى اعتباره خطورة التحرك جنوبا تجاه سوريا قبل الاستيلاء أولا على سيفاس ، والقضاء على خط الدفاع البارز ، الذى بطريقة أو بأخرى يمكن أن يهدد مؤخرة جيشه ، اذا ما قرر بايزيد أن يأخذ على عاتقه القيام بعمل هجومى من تلقاء ذاته •

وشهد أوائل شهر أغسطس وجود تيمور وجيشه أمام أسوار مدينة سيفاس • غير أن استحکامات المدينة كانت من المناعة الى حد أنها صمدت لمدة شهر تقريبا ، اذ نجح المدافعون عن المدينة فى التصدى للهجمات المتكررة ، التى قام بها رجال تيمور والخراب الذى أحدثته النيران ، وآلات القذف بالأحجار (المنجانيق) (*) • على أن الأمر الذى شكل خطورة شديدة فى النهاية كان العمل البطيء ، وان كان عملا شاقا قام به آلاف من المدربين على اجتياز الأسوار بحفر الخنادق من تحت أسوار المدينة ، وكان معظمهم من العبيد • وعندما سقطت المدينة فى نهاية الأمر تم جمع الأطفال معا فى مكان واحد ، وداستهم حوافر خيول الفرسان المغول • وقام رجال تيمور بدفن المدافعين الأرمن أحياء ، وحملوا معهم آلافا من الفتيات للانضمام الى حريم المغول • أما من بقى من الرجال

(*) ما بين قوسين من عبد الترجيم •

والنساء فقد تم ذبحهم ، باستثناء المسلمين الذين استطاعوا فدية أنفسهم .

عند ظهور تيمور ، ذهب سلطان بغداد الى بايزيد طلبا للنجاة ، بيد أن تيمور لم يتجه صوب الامبراطورية العثمانية . اذ قرر أن يتعامل مع بايزيد فيما بعد أن يحسم الأمر مع مصر فى الجنوب . وكانت حلب هدفة الاول ، فهى ثانى المدن السورية بعد دمشق فى الحجم والرفاهية والازدهار . غير أن تيمور الشديد الحذر أبطا من تقدمه عندما اقترب من المدينة لمعرفته بتجمع جيش كبير للقائه ، ويضم متطوعين بعضهم من أقصى الجنوب قرب بيت المقدس . وربما فسر المدافعون عن حلب بطء تقدم تيمور على أنه ضعف . لذلك قرروا لقاء تيمور خارج المدينة ، مما عجل بالقضاء عليهم . وأباح تيمور لرجاله سلب ونهب المدينة لمدة ثلاثة أيام وبعدها ذبح سكانها وقام بهدمها .

ان المصير المرعب الذى انتهت اليه مدينة حلب دفع مدينة حماة على الاستسلام فورا ثم تبعتها كل من حمص وبلعبك ، وفى أوائل سنة ١٤٠١ م كان تيمور على مقربة من دمشق ، ووضع تيمور خطة للقضاء على تلك المدينة المهمة نظرا لأن حجمها الكبير وثروتها يمكنان سلطان مصر من الحصول على قاعدة ممتازة يستطيع منها قيادة الحملات الحربية شمالا ضد امراطوريته . على أن تيمور سارع فى استغلال الوقت نظرا لأن الاضطراب والخلافات بين سلطات المدينة - السوريين والمصريون - ساعدت على جعل مهمته أكثر سهولة . وجاء فرج من مصر ومعه جيش ، بيد أنه فعل ذلك وهو يعانى من قدر هائل من الهواجس والشكوك لأنه يخشى الهزيمة على يد تيمور التى قد تكلفه ضياع عرشه المترنح . وما أن وصل فرج الى دمشق وتناوش مع جيش تيمور حتى سارع بالعودة الى القاهرة عند سماعه أن العديد من الأمراء قد عادوا ثانية الى القاهرة دون اذنه .

وأغلقت دمشق أبوابها واستعدت لمواجهة هجوم تيمور ، فى الوقت الذى استمرت فيه المفاوضات مع القائد المغولى ، الذى أقام معسكره خارج أسوار المدينة مباشرة . وأفضل المصادر التى أمدتنا بما حدث هو المؤرخ العربى الشهير « ابن خلدون » ، الذى ذهب الى دمشق مع السلطان فرج ، وظل بالمدينة . ويبدو أن تيمور عبر عن رغبته لمشاهدة العالم ، وعلى ذلك نزل ابن خلدون ، اليه بواسطة جبل متدل من فوق سور المدينة ، ذلك لأن المجموعة التى رفضت مناقشة شروط تيمور كانت قد أغلقت أبوابها . ووفقا لشهادة ابن خلدون فإنه تباحث مع تيمور لمدة خمسة وثلاثين يوما ، وانشغلا فى مناقشات علمية تتعلق بمجموعة مختلفة

من الموضوعات • وطلب تيمور من ابن خلدون أن يعد له دراسة جغرافية عن المغرب ، اقليم شمال افريقيا غرب مصر تقريبا ، على أن يذكر له الجبال ، والأنهار ، والمدن •

كانت الفدية الأولى التي وافق تيمور على قبولها ثمنا لحرية المدينة مليوناً من الدنانير • وعندما قدم اليه قادة المدينة هذا المبلغ ، طالب بعشرة ملايين من الدنانير ، ثم أصر على أن تقدم اليه ثروة كل التجار والأثرياء الذين هربوا من المدينة ، وكذلك كل الدواب والأسلحة • وبعد أن تأكد تيمور من عدم مقدرة المدينة على الدفاع عن نفسها ، اتهم السكان بأنهم خارجون على تعاليم الاسلام الحنيف ، وأذن لمحاربيه بممارسة عمليات السلب والنهب وجمع الغنائم ، وسواء بفعل فاعل أو مصادفة ، اشتعلت النيران بالمدينة وتحولت في وقت قصير الى رماد مصحوب بالدخان • ومن بين المنشآت الشهيرة مسجد الكبير الذي ضم آلافاً من الذين احتماوا به • لقد ماتوا بعد أن انهار عليهم سقف المسجد • وباستثناء العمال المهرة والحرفيين ، قام تيمور بذبح أو تحويل باقى سكان المدينة الى رقيق •

وبعد سقوط دمشق ، أرسل تيمور قوة للاستيلاء على أنطاكية ، في الوقت الذي قاد فيه معظم جيشه الى سيفاس • وربما كانت لديه النية للهجوم المباشر على بايزيد ، بيد أنه نظرا لعدم مقدرة جيشه على احتلال بغداد ، فانه قرر المسير اليها بنفسه • واستغرق حصار بغداد ستة أسابيع ، قبل الاستيلاء على المدينة • وكان قد مر حوالى قرن ونصف قرن تقريبا عندما استولى هولاكو ، حفيد جنكيز خان على تلك المدينة وخربها (سنة ١٢٥٨ م) • أما على عهد تيمور فقد عانت من عمليات سلب ونهب أكثر ضراوة بكثير عما حدث في عهد هولاكو • وباستثناء عدد قليل من المباني الأثرية القديمة ، فان كل ما بقى عندما هاجم تيمور والمغول بغداد كان حوالى واحد وعشرين كوما عاليا من رؤوس تسعين ألفاً من سكان المدينة الذين ذبحوهم • وفي ذلك الحين أصبح تيمور مستعدا لأكراه عدوه على الدفاع عن نفسه ، وأن يضعه في موقف يستحيل الفرار منه ، ذلك العدو وهو أشد الأعداء خطوره ، انه بايزيد سلطان الأتراك العثمانيين •

كان للأتراك العثمانيين معرفة تامة بالمغول ، ففي الحقيقة ، كان من جراء هجوم المغول عليهم أن اضطروا الى الاتجاه غربا من بلاد تركستان • وفي أوائل القرن الرابع عشر ، شقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى ، تحت قيادة قائدهم عثمان الذى حملت قبيلتهم اسمه ، وأقاموا امارة خاصة بهم في الجزء الشمالى الغربى من شبة الجزيرة (بيثينيا Bithynia) •

واستطاع أورخان بن عثمان مد نفوذ الحكم العثماني على الجزء الأكبر من آسيا الصغرى بضم ما بقى من ممتلكات الأتراك السلاجقة . وكان هؤلاء السلاجقة قد انتقلوا الى تلك المنطقة منذ ثلاثة قرون قبل العثمانيين ، في القرن الحادى عشر ، وشيدوا امبراطورية قوية لهم ، بلغت أوج قوتها عندما ضمت سوريا وآسيا الصغرى ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين . وتنتهى تقاليد السلاجقة والأتراك العثمانيين الى أصول قبيلة الغز نفسها .

وفى سنة ١٣٤٥ م اتخذ أورخان خطوة حاسمة أدت الى امتداد حدود الامبراطورية العثمانية الى أوروبا عندما تزوج من ابنة حنسا الخامس كانتاكوزينوس Cantacuzenus المطالب بالعرش البيزنطى فى القسطنطينية . واستولت قواته ، التى أرسلها الى أوروبا لمساعدة صهره ، بمساعدة قوات أخرى سنة ١٣٥٤ م ، على برزخ جاليبولى . وفى سنة ١٣٦١ م استولى على أدريانوبل Adrianople عاصمة اقليم تراقيا ، التى ظلت منذ ذلك الحين عاصمة تركيا الأوروبية الى أن استولى الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٠٣ م . وفى سنة ١٣٨٧ م استولى الأتراك على مدينة سالونيك Salonika ذات الميناء المهم . وقدر للأتراك البقاء فى أوروبا .

ان الذى سهل نجاح الأتراك المبكر هو وجود حالة من التفكك السياسى فى اقليم البلقان . على أن هناك عوامل عديدة أدت الى هذا التفكك . وساعدت على تفاقمه ، وأحد هذه العوامل يمكن تسميته بالآمال القومية لعدد من شعوب ذلك الاقليم ، للتطلع لاقامة امبراطوريات صغيرة خاصة بهم . فالبغار ، والبوسنة ، والصرب ، والمجر ، والولش ، كلهم جميعا ، كانت لهم طموحات فى حكم أنفسهم بأنفسهم ، داخل حدود مشتركة عادة مع جيرانهم . وانقسم السكان أيضا بالمنطقة بالنسبة لولائهم الدينى ، فالكثير منهم كانوا من المسيحيين اللاتينيين ، وغالبيتهم كانوا من اليونانيين الأرثوذكس . ولم يحمل أى فريق منهم مشاعر الحب نحو الفريق الآخر .

أما الامبراطورية البيزنطية ، التى كانت فى وقت ما تمارس سلطة فعالة على الجزء الأكبر من الاقليم ، فكانت أضعف المجموعات فى ذلك الحين . اذ أنها لم تسترد نشاطها على الاطلاق منذ سنة ١٢٠٤ م عندما اقتحم الصليبيون (الحملة الصليبية الرابعة) ، ووضعوا حدا لوجودها . وفى سنة ١٢٦١ م قامت حركة انتعاش الامبراطورية ، بيد أنها كانت طفيفة ولم تكن سوى تذكرو للعالم بالعظمة السابقة لمدينة القسطنطينية . اذ أن الخلافات بين الأسر الحاكمة جعلتها فى حالة من الضعف على الرغم من تعرض وجودها للخطر على يد الصرب من الغرب والأتراك العثمانيين من الشرق . وفى ذلك الحين نجح البنادقة وأهل جنوة فى تحويل اتجاه معظم الأعمال التجارية الى صالحهم .

ويرجع الفضل الى مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩ م) ، الذى بنى الدولة العثمانية على قاعدة صلبة ومنها استطاعت فرض سيطرتها على البلقان وآسيا الصغرى . وفى سنة ١٣٨٧ م ، وبمساعدة المحاربين من الولايات المسيحية التابعة له فى البلقان ، استطاع مراد اضعاف اماره كارامان Karaman التى كانت أقوى الامارات فى آسيا الصغرى ،والتي لم تكن تحت سيطرته . وباخضاع اماره كارامان ، دانت كل آسيا الصغرى لسلطة مراد فيما عدا مدينة سيفاس التى استطاع حاكمها الاعتماد على المفلول فى الحصول على بلغاريا والبوسنة . وفى يونية ١٣٨٩ م ، وفى معركة كوسوفو Kossovo قوى مراد الأول دعائم حكمه على كل المنطقة عندما قضى على جيش متحالف من شعوب البلغار والولش Wallachians والبوسنة ، والصرب .

ان النصر الباهى الثمن الذى أحرزه الأتراك فى كوسوفو ، كان بداية لفترة من الهيمنة التركية قدر لها البقاء لمدة أربعة قرون . وقبيل المعركة اغتال وطنى من الصرب مراد الأول ، ولذلك كانت كوسوفو بداية أيضا لعهد بايزيد خلفا لشقيقه ، حيث عرف بايزيد فى التاريخ باسم «الصاعقة» نظرا لسرعته وشدة بطشه بالأعداء . وفى سنة ١٣٩٠ م ضم بايزيد شقيقة حاكم الصرب الى حريمه . وربما كانت هذه الخطوة أهم الخطوات التى اتخذها ، لأنها أتاحت له مساعدة الفرسان الذين يحملون دروعا ثقيلة ، وأسلحة كثيرة من أهالى الصرب . واستغرق الأمر عدة سنوات لاختضاع أمراء آسيا الصغرى ، الذين أعلنوا الثورة عند اشاعة نبأ مقتل مراد ، وأخيرا خضعوا لسيطرة الأتراك . وبحلول سنة ١٣٩٣ م عندما انتهى بايزيد من اخضاع آسيا الصغرى ، نجح أيضا فى القضاء على الثوار البلغار وحرهم من الحكم الذاتى . بل ان بايزيد أجبر الامبراطور البيزنطى على هدم التحصينات الجديدة التى أقامها حول مدينة القسطنطينية .

ان ازدياد القوة التركية وتقدمها تجاه الدانوب فى ذلك الحين أثار اهتماما عاما فى غرب أوروبا . على أن أكثر الذين انزعجوا لذلك التوسع التركى كان سيغيزموند Sigismund ملك المجر ، الذى تقع مملكته فى طريق التوسع التركى . وعلى الرغم من أن سيغيزموند حقق بعض المكاسب الطفيفة ابان مقاومته للأتراك ، فانه أدرك مدى التهديد الخطير الذى فرضه الأتراك عليه وعلى مملكته . كما اهتم الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى اهتماما شديدا (١٣٩١ - ١٤٢٥ م) ، اذ وجد المسلمين وقد طوقوا عاصمته ذاتها ، كما اهتم أيضا البابا بونيفيس التاسع Boniface IX الذى وجد أن المد الاسلامى يبتلع أراضى مسيحية جديدة عاما بعد عام . واستجابة الى نداءات بونيفيس ، ومانويل ، وسيغيزموند تجمع جيش من أكبر الجيوش الصليبية التى احتشدت فى بلاد كثيرة من غرب أوروبا ،

وانضم فرسان من انجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وبولندا ، وبوهيميا ،
وألمانيا الى أهالى المجر تحت قيادة سيجزمووند ، الذى كان فى انتظارهم فى
مدينة بودا Buda ولوحظ عدم وجود مقاتلين من المسيحيين من امارات
البلقان رغم أنهم اشتركوا فى المعركة التالية فى نيقوبوليس Nicopolis
تحت أعلام بايزيد .

ان مسألة تعداد القوات الصليبية التى تجمعت عند بودا فرضت
نفسها كمشكلة عادية عند دراسة مصادر التاريخ الوسيط . ان مدى
عدم الاهتمام بمثل تلك المصادر يظهر فى أحدها الذى قال ان عدد الجيش
المسيحى بلغ مائة ألف مقاتل ، وأن خسائر هذا الجيش بلغت مائتى ألف ،
بيد أن الكتاب المحدثين يقدرون تعداد الجيش الصليبي بحوالى
مائة ألف مقاتل . انهم قبلوا الأعداد التى ذكرها المؤرخون ، ولم لا ؟ لقد
ثبت أن معركة نيقوبوليس لها أهمية كبرى . أما المؤرخ ديلبروك Delbruck
فقد خفض عدد كل الجيش الصليبي الى ما بين تسعة آلاف وعشرة آلاف
مقاتل ، اشترك منهم فى القتال سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل . وعلى الرغم
من أنهم جميعا كانوا من الفرسان المدرعين ، فلم يرد ذكر شيء عن الجنود
المشاة ، وانضم اليها القوارب التى بها أهالى البندقية وجنود للمساعدة
فى القتال بعد تحركها من البحر الأسود وأبحرت فى نهر الدانوب .

وعندما علم بايزيد بوجود الجيش الصليبي فى بودا ، فك الحصار
عن القسطنطينية ، وبدأ استعداداته للقاء الجيش المسيحي . ومنذ اللحظة
الأولى لم يكن بايزيد متلهفا على لقاء العدو . اذ كان راغبا فى إتاحة الفرصة
للمسيحيين للتقدم فى عمق بلاده . وبعد أسبوعين من اعداد جيشه للحرب
تحرك بأقصى سرعة لدرجة أنه قضى على القوات الاستطلاعية التى أرسلها
الصليبيون لجمع المعلومات . وبذلك أدهش الجيش الصليبي ، الذى كان
ضاربا حصارا حول مدينة نيقوبوليس .

كانت مدينة نيقوبوليس القلعة التركية الرئيسية على نهر الدانوب .
ونظرا لافتقار الصليبيين الى أدوات الحصار ، فانهم تمركزوا حول المدينة
على أمل إجبارها على الاستسلام جوعا . وقبل أن يدرك المسيحيون ما قد
حدث اتخذ بايزيد موقفا دفاعيا على بعد حوالى خمسة أميال جنوب
نيقوبوليس على تحفة (سهل واسع مرتفع) (*) عرضه حوالى نصف ميل
وتحديه من الجانبين وديان صغيرة ضيقة وشديدة الانحدار . وأصبح على
الصليبيين مهاجمته من أسفل الوادى .

وعلى الرغم من ذلك لم يزعج هذا التطور كثيرا من الصليبيين ولا سيما

(*) ما بين قوسين من عند المترجم .

الفرنسيين . اذ كانت لديهم ثقة لا حد لها فى اباداة الرعاع الذين لا يعرفون شيئا عن النظام . وتوقع الفرنسيون كذلك المقدرة على التصدى لهم . وذكر المؤرخ المعاصر فرواسار Froissart « لقد تحركوا للاحاق الهزيمة بكل الأتراك والتقدم صوب الامبراطورية الفارسية ونظرا لتفوق العدو عليهم فى تخطيطه الجيد ، الأمر الذى ألحق بطلائعهم الهزيمة ، وباحتلاله موقعا دفاعيا قويا ، فانهم اختلفوا فيما بينهم بشأن من ينال شرف شن الهجوم الأول على المسلمين والحق هزيمة منكرة بهم » .

على أن سيجزمووند لم يشاركهم تلك الثقة . اذ الواقع أن الافراط فى الثقة عند حلفائه سببت له وللمجريين التابعة له ألما نفسيا مبرحا . فقد تعلم المجريون من التجربة شراسة المحاربين الأتراك ، وكانوا على علم أن هؤلاء الأتراك بسطوا سيطرتهم على شعوب البلقان ليس بمحض الصدفة ، وانما بالجهد ، والحملات المتواصلة ضد جنود كانوا من أشد جنود العالم بأسا . وحاول سيجزمووند كثيرا بأن يكون هو وأتباعه من شعب المجر أول من يتصدى للعدو ، ذاكرا أنه سبق له الدخول فى معارك مع هؤلاء الأعداء ، بالإضافة الى أن جيشه المجرى كان يضم فرسانا يستخدمون سهاماً مثل السهام التى يستخدمها الجيش التركى . بيد أن الفرنسيين أصروا على أن يكونوا أول من يقوم بشن الهجوم العسكرى ولسوء حظهم ، فعلوا ما أرادوا .

وهناك العديد من أوجه التشابه بين المعركة التى دارت رحاها فى نيقوبوليس بين الصليبيين والأتراك وبين تلك التى دارت فى كريسى Crecy بين الانجليز والفرنسيين . وأكثر أوجه هذا التشابه أن المنتصرين فى كل من المعركتين احتلوا مواقع دفاعية قوية مما أجبر العدو على الاقتراب من أراضى أكثر انخفاضاً . وعلاوة على ذلك ، فإن الفرنسيين ، فى موقعة كريسى لم يشنوا هجومهم فى شكل تكتل منظم ، وانما على شكل هجمات متقطعة وعلى موجات ، وهو ما فعله الصليبيون فى موقعة نيقوبوليس . وثالث وجه للتشابه ، وهو أن المنتصرين فى الحالتين كانوا متفوقين قليلا من ناحية أعداد القوات .

وتقابل الباحث المشكلة نفسها فى تحديد حجم الجيش التركى فى موقعة نيقوبوليس كما هو الحال بالنسبة للجيش المسيحى . اذ قدمت المصادر المسيحية المعاصرة للقارىء أعدادا مبالغاً فيها ، ولا شك أنها حاولت تبرير الهزيمة المنكرة التى منى بها الجيش الصليبيى بطريقة ملطفة . وبالنظر الى الاستراتيجية التى اتبعها الصليبيون ، أو بالأصح نقاط الضعف فيها ، فلا يبقى ضرورة الى ذكر التفوق العددي للأتراك لتفسير انتصارهم . ان الإشارة الى أن عدد الجيش التركى كان حوالى أربعمئة ألف مقاتل

كما ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أمر غير مقبول تماما ، وكذلك أيضا أنه كان مائة ألف مقاتل هو أمر غير واقعى وهو الذى افترضه العديد من العلماء المحدثين . . . ويميل المؤرخ الحديث ديلبروك Delbruck أن يكون حكما حذرا فى استخدامه الاحصاءات التى قدمها المؤرخون فى العصور الوسطى ، قام بتخفيض أرقامهم عن الجيش التركى الى ما بين أحد عشر ألفا واثنى عشر ألفا . ويتيح هذا الرقم ميزة بارزة فى القوى البشرية بالاضافة الى الموقع الدفاعى الذى سيطر عليه وزاد من قوة تفوق بايزيد .

ان اختلاف نوعية المحاربين الذين كانوا تحت قيادة بايزيد ربما كان يمثل قدرا من التفوق ، اذ ان المسيحيين فى الولايات التابعة للسلطان ضمو فىما بينهم فرسانا وجنود مشاة . وفيما يتعلق بالمعدات والأسلحة ، فان الفرسان الصليبيين كانوا مسلحين بأسلحة ومعدات ثقيلة ، على الرغم من قلة عددهم . وغالبية الحلفاء المسيحيين الذين تحالفوا مع السلطان بايزيد جاءوا من الصرب Serbia حيث كان حاكمها يمت بصلة النسب للسلطان . ويقال ان هؤلاء الصرب حاربوا بشجاعة فى معركة نيقوبوليس وأنقرة فيما بعد .

وضم المحاربون الأتراك فى جيش بايزيد جنودا على قدر من النظام بالاضافة الى عدد آخر أقل تدريبا . ومن بين الآخرين يمكن ذكر الفرسان خفيفى العدة . وهم نوع من الفرسان غير النظاميين الذين يتقدمون الجيش الرئيسى ، لكى يوقعوا الفوضى فى جيش العدو ، والعمل على اعاقته عن العمل ، أو يقوموا بشن الثغرات المتكررة على جناحى جيش العدو . وأحيانا يقوم هؤلاء الفرسان خفيفى العدة ، بالعمل كادوات لجذب العدو للمعركة ويتظاهرون بالهروب بعد أول لقاء مع هذا العدو . عند ذلك يندفع العدو الى الأمام على أمل احراز نصر سهل ، دون أن يتوقع أنه قد وقع بالفعل فى فخ نصبه الطرف الآخر .

ان القوة الحقيقية للجيش التركى فى أواخر القرن الرابع عشر كانت تكمن فى جماعة السباهيز Sipahis والانكشارية Janissaries

وجماعة السباهيز هم فرسان تحميم دروع ، وينسب الى أورخان استخدامهم فى الجيش لأول مرة . وقاموا فى بداية الأمر بمهمة الحرس الشخصى للسلطان . وبتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه وكان القوس والسهم سلاحهم الرئيسى ، أو على الأقل السلاح الذى استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة . وما أن تنفذ سهامهم ، ويصبحوا على مقربة من العدو ، فانهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة الوحيدة الحد ، وكذلك الخناجر . ان قتال التلاحم لم يتناسب مع الفارس الثقيل العدة فى غرب أوروبا ، بيد أن السرعة

واستخدام السهم غالبا ما يكفيان لتحقيق النصر قبل أن يطبق هؤلاء
الفرسان على العدو .

على أن القسم الفريد في جيش بايزيد كان الانكشارية أو « القوات
الجديدة » . ان غالبية هؤلاء المحاربين تم انتزاعهم من أسرهم منذ صباهم
كنوع من الضريبة التي فرضها السلطان على تلك الشعوب التي أخضعها
لأرادته ، وكان معظمهم من المسيحيين ، وتمت تنشئتهم في مساكنهم
الخاصة ، وتلقوا تدريبات على درجة عالية حتى صاروا متخصصين . وتولى
الدراويش تلقينهم مبادئ الاسلام ولم يسمح لهم بالزواج أو تكوين أسر ،
ولم يكن هناك لأحد سيادة عليهم سوى قائدهم السلطان . وحاربوا كمشاة
استخدموا السهام . وإذا ما استطاع قائد ماهر أن يزامن هجوم الانكشارية
مع هجوم السيباهي Sipahis كان النصر حليفه . ومن ثم جعل الجيش
التركي من أفضل جيوش العصر ، ان لم يكن أفضلها جميعا . وعلى الرغم
من أن أروع صفحات تاريخ الانكشارية سجلت لهم في المستقبل ، فان
عددهم في نهاية القرن الرابع عشر بلغ حوالى خمسة آلاف مقاتل . ويبدو
أنهم لهم الفضل في انتصار السلطان في موقعة نيقوبوليس .

وقبل حدوث المعركة بين الجيش المسيحي والجيش التركي في
نيقوبوليس ظهرت للعيان نقطة الضعف الرئيسية في الجيش الصليبي .
كان الجيش الصليبي يفتقر الى وجود قيادة موحدة ، فرغم أن سيجزمووند
ملك المجر القائد العام بصفة رسمية . لكنه إذا لم يكن قد سمح
للفرنسيين بأن يكونوا أول المهاجمين للعدو على سبيل المثال ، لقام
الفرنسيون رغم أنف الجميع ، بتنفيذ رغبتهم . كما لم يكن سيجزمووند
متأكدا على الاطلاق من أن الولش Walichians سكان اقليم ترانسفاليا
الذين كانوا ضمن رعاياه ، سيحترمون أوامره . وباختصار كان جيشه به
نقطة الضعف الرئيسية في الجيش الاقطاعي التقليدى .

وقام سيجزمووند بمحاولة أخيرة يائسة لاقناع الفرنسيين بالسماح
له وللمجريين التابعين له بأن يكونوا أول من يتقدم صوب العدو وذلك
بارساله قائد جيشه الذى توسل اليهم شخصيا . بيد أن الفرنسيين
أصروا على تحقيق المجد لأنفسهم . وعلى الطريقة الفروسية التقليدية هاجم
الفرنسيون طليعة الجيش التركي المكون من قوات غير نظامية من الفرسان
والرايين بالسهم ، ومن المحتمل أن الآخرين كانوا من الانكشارية . وطلب
سيجزمووند الابطاء في تقدمهم ، والانتظار حتى يتقدم اليهم الجيش الرئيسى .
ولكن دون جدوى . وكما كان متوقعا ، لم يجدوا صعوبة فى تشتيت شمل
الفرسان الأتراك الذين التقوا بهم . أما الأمر مع الانكشارية فقد كان
مختلفا . اذ لم يتوقف الفرنسيون عن التقدم فحسب ، وانما وجدوا

أنفسهم فجأة محاصرين من الجانبين ، كما هاجمتهم قوات السيباهى الذين ظلوا مختفين خلف أحد التلال . وفى مدى قصير تمت محاصرة الفرنسيين وبادتهم .

وفى الوقت الذى تحرك فيه سيجزمووند وجيشه وحلائؤه من الألمان والبولنديين ، كان قد سبق السيف العذل . أما الولش وأهالى ترانسلفانيا فانهم لم ينتظروا حتى يقاتلوا . اذا ما أن شاهدوا الخيول التى كان يمتطيها الفرنسيون فوق التل ، تتقدم بسرعة الى الخلف دون راعيها حتى غادروا ميدان المعركة بكل بساطة . وكان سيجزمووند من بين القلة التى لاذت بالفرار . اذ كان مضطرا الى ترك ميدان المعركة والهروب مستخدما قارباً فى نهر الدانوب . وعلى الرغم من أن المعركة انتهت بالقضاء على الجيش الصليبي ، فان القتال كان شرسا . ويقال ان بايزيد استشاط غضبا لفداحة الخسائر فى الأفراد لدرجة أنه أمر بذبح كل الأسرى الذين زادت أعمارهم عن العشرين ، وتحويل من هم دون ذلك السن الى عبيد ، مع استثناء عدد قليل يمكن الحصول على فدية عنهم .

ان القضاء على الجيش الصليبي فى نيقوبوليس أفسح المجال للاستعداد للمعركة الفاصلة بين بايزيد وتيمور . واذا ما أدخل المرء فى اعتباره شخصية الرجلين ، أدرك أن معركة حتى الموت تنتهى بمنصر دون منازع ، باتت أمرا لا مفر منه . اذ لم يستطع تيمور أن يهدأ له بال الا بعد أن يدين له بالولاء كل الحكام على امتداد حدود امبراطوريته . أما بايزيد فلم يقنع بأقل من حكمه لامبراطورية تمتد من الدانوب الى نهر الفرات وربما الى نهر النيل .

قام تيمور بتفجير الموقف . اذ بعد أن عاود بايزيد حصاره للقسطنطينية بوقت قصير ، طالب تيمور بتسليمه أحمد جلال يار ، سلطان بغداد . بيد أن بايزيد الجريء قص لحية مندوب تيمور على الفور ، وأرسل رسالة مهينة الى تيمور . وورد فى رسالته كما ذكر عربشاه أنه يعرف أن هذا القول سيدفعه الى مهاجمة بلاده فان لم يفعل تكون زوجاته مطلقات طلاقه بائنة . ويقال ان تيمور رد على ذلك القول متعجبا : ان ابن عثمان أصيب بالجنون من ولعه بالسبايا اذ أنهى رسالته بذكر النساء ، لأنه وفقا لما ذكره ابن عربشاه كان من عادة المغول أن ذكر المرأة جريمة وإهانة لا تغتفر ، الى الحد أنهم لا ينطقون كلمة امرأة ويتجنبون ذلك بكل حرص ، فيقولون ، اذا أنجب أحدهم أنثى : « ولدت احدى المحجبات ، أو ربة بيت ، أو محجبة أو أى شئ من هذا القبيل » (١٢) .

تشجع العالم المسيحي لاقترب اللحظة المصيرية عندما أصبح الصراع بين بايزيد وتيمور واقعا لا محالة . اذ ان ما كان يتمناه البابوات وأوروبا

المسيحية منذ أمد بعيد ، أن تنشب الحرب بين المسلمين والمغول ، وأضحت تلك الحرب وشيكة الوقوع . وشعرت القسطنطينية بالارتياح وتنفس الصعداء ، عند اقتراب المعركة ، لأن أسوارها كانت واقعة تحت الحصار للمرة الثانية . اذ بدأ حنا الوصى على عرش القسطنطينية ، المفاوضات مع تيمور ، وفعل الشيء نفسه شارل الخامس ملك فرنسا . بل حتى امارة طرابيزون الصغيرة أرسلت اليه ما يعبر عن تقديرها له وتعاطفها معه معلنة استعدادها للسماح له باستخدام مينائها الوحيد وكذلك وعده أهالي جنوه الذين يديرون منطقة بيرا Pera ، الجزء الذي يقع عند القرن الذهبي من القسطنطينية ، بارسال سفنهم ، ومنع أى امدادات عسكرية تركية تحاول العبور من أوروبا الى آسيا الصغرى اذا ما شن بايزيد حربا هناك .

لا شك أن تيمور لم يول تلك التعهدات أدنى أهمية . اذ كان يدرك أن الممالك المسيحية لا يعنها شيء سوى أن يقضى بايزيد وتيمور على بعضهما البعض . على أية حال ، فلن تتحرك أى دولة من تلك الدول المسيحية الا بعد أن يصبح من الواضح للعيان أى الجانبين كتب له النصر .

وفى أواخر ربيع سنة ١٤٠٣ م قام باستعراض كبير لقواته فى سيناس حيث أمرهم بالتجمع للاستعداد النهائى للمعركة ضد بايزيد . ووصلت اليه التعزيزات من كل أنحاء امبراطوريته . وكان معظم المحاربين من الفرسان الرامين بالسهم ، وارتدى بعضهم معاطف عليها صفائح معدنية ، والبعض الآخر ارتدى بدلة حربية عليها دروع وكذلك دروع على خيولهم . أما هؤلاء الذين أتوا من سمرقند فكان منظرهم نابضا بالحياة بسبب معداتهم المثيرة للاعجاب ، وبذلك قدموا الدليل المقنع على ضخامة كميات الغنائم التى جمعها تيمور فى عاصمته ، وعن التقدم فى الصناعة على أيدي الفنانين الذين أحضرهم الى هناك . ولكل مجموعة أعلامها الخاصة بها - منها القرمزى ، والأصفر ، والأبيض ، والأرجوانى ، والألوان الأخرى - التى توافقت مع ألوان السروج ، والملابس ، والتروس ، وجعب السهام ، والأحزمة ، والتروس الصغيرة المستديرة .

حشد بايزيد جيشه ، بدوره فى مدينة بروسا Brusa عاصمة آسيا الصغرى التركية . وتجمعت هناك قواته التركية من الانكشارية والسيباهى ومعهم الفرسان ثقيلو العدة من الصرب ، والفرسان الآخرون والمشاة الذين أرسلهم الأتباع المسيحيون فى أقاليم البلقان . وجاء محاربون ، وبما متساوون فى العدد مع القوات « الأوروبية » من الامارات المختلفة فى آسيا الصغرى ، بعضهم كان من رعايا الأمراء المغول الذين هربوا الى تيمور عندما اجتاحت الأتراك أراضيهم . ولم يكن هناك قوات مصرية ، اذ تجاهل فرج طلب بايزيد لتقديم المساعدة .

ومن مدينة بروسا قاد بايزيد جيشه تجاه الشرق • وسلك بايزيد طريقا اجتاز خلاله الممرات الضيقة والوديان حول توقات *Tuqat* وهو طريق مواز تقريبا لمجرى نهر انهاليز *River Halys* على بعد حوالي خمسة وسبعين ميلا الى الجنوب • ان الطريق الذى سلكه بايزيد كان أقصر الطرق الى الأقاليم الشرقية لآسيا الصغرى • وكانت معلومات بايزيد أن تيمور سيتقدم من خلال ذلك الطريق • وكان من المفروض أن ينتظر بايزيد تيمور فى معسكره الوافر المياه فى أنقرة *Anqora* وألقى الكتاب المحدثون اللوم على بايزيد لعدم قيامه بذلك • بيد أن بايزيد كان لديه ثقة فائقة فى مقدرة جيشه على هزيمة تيمور ، وعمل على تقوية هذه الثقة ما قد حدث مؤخرا فى نيقوبوليس • اذ لم يستسغ بايزيد فكرة تحرك تيمور فى أراضى دولته وتعريض مدنها وقرائها للسلب والنهب • وربما خشى بايزيد أيضا من أن يستغرق تيمور وقتا طويلا الى أن يقرر الدخول فى المعركة ، وهو الأمر الذى لا يستطيع أن يتحملة بايزيد الا بصعوبة • اذ كلما طالت الفترة قبل خوض تلك المعركة ، واستمر تيمور معسكرا بقواته فى آسيا الصغرى كلما أتيحت فرصة أكبر للأمم المسيحية فى اعداد جيش صليبي جديد •

وكان فى استطاعة تيمور أن يؤجل الهجوم • اذ بالنسبة اليه لا يوجد خطر ثورة يتم تدبيرها من خلفه • لذلك ترك بايزيد ليقوم بتسديد الضربة الأولى • وكان تيمور على علم أن بايزيد لا يستطيع الانتظار وربما فعل شيئا ينم عن حماقة فى تلفه على حدوث المعركة • فبدلا من أن يقود تيمور جيشه غربا على امتداد أقصر الطرق ، الذى سوف يجعله يصطدم وجها لوجه مع بايزيد ، فانه قرر أن يسلك الطريق الأطول ، والأسهل على امتداد نهر الهاليز *Halys River* وفى الطريق عبر وادى هذا النهر يستطيع رجاله الحصول على الكثير من الغنائم لأنفسهم ، والعشب الوافر لحيولهم • كما أن هذا الطريق غير المباشر بعض الشيء سيجعله على مقربة من مؤخرة جيش بايزيد ، مما يغلق الباب فى وجه الأتراك أمام أى تراجع اذا ما كسب تيمور المعركة •

وبعد ستة أيام من بدء المسير من سيفاس وصل تيمور ورجاله الى منتصف الطريق الى أنقرة ، ونعنى بذلك أنه وصل الى قيصرية ، حيث استراح رجاله هناك لمدة أربعة أيام • وبعد مرور أربعة أيام أخرى وصلوا الى قيرشهر *Wirshahr* ثم وصلوا الى أنقرة بعد ثلاثة أيام أخرى ، حاول خلالها تيمور حث رجاله على الانطلاق بسرعة اضطرارية بهدف مباغته الأتراك • وما أن وصل تيمور الى المعسكر الذى كان قد غادره بايزيد منذ أقل من أسبوعين ، حتى أحاطه بالخنادق ، والأسوار القوية ، وقطع امدادات

المياه عن المدينة ، وضرب حصارا حولها . وكان تيمور على وشك شن هجوم نهائى على أسوار المدينة عندما علم أن بايزيد قد عاد بجيشه ، وفى طريقه الى الاقتراب من ناحية الشرق .

ان عودة بايزيد وجيشه ثانية الى أنقرة كانت عملية مروعة . اذ كان رجاله متعبين تماما عندما وصل الخبر الى بايزيد أن تيمور قد سلك طريقا جانبيا تجنباً للقائه ، ولم يكن أمام السلطان من خيار سوى أن يأمر رجاله بالاستدارة والعودة الى أنقرة . وتحققت مخاوف السلطان بشأن استيلاء تيمور على المعسكر الذى أقامه بايزيد ، وكذلك مسألة منع المياه عن المدينة . وهكذا كان الموقف بالنسبة للجيش التركى باعثاً على اليأس تماما . اذ بلغ رجال بايزيد حد الانهالك والمعاناة من شدة العطش ، ولم يكن هناك أمل فى الحصول على ماء . « لقد خسروا المعركة قبل أن تبدأ » (١٣) .

والتقى الجيشان فى يوم الجمعة فى الثامن والعشرين من شهر يوليو ١٤٠٢ م ، شمال شرق مدينة أنقرة ، فى سهل شيبوكاباد Chibukabad ومن المحتمل أنه المكان الذى أحرز فيه بومبى Pompey النصر على الميثرايين Mithradates سنة ٦٥ ق م ولم يجرؤ بايزيد على الانتظار ليأخذ رجاله للحصول على الماء . فأسند قيادة الجناح الأيمن لجيشه الى صهره لازارافيك عن صربيا Lazaravic of Serbia ، وأمدّه ببعض الفرسان الأتراك لمساندة فرسانه ثقيلى العدة . وأسند الجناح الأيسر الى ولده سليمان . وتكون هذا الجناح من قوات من مقدونيا ومن آسيا الصغرى . ومعظم هؤلاء الجنود الذين كانوا فى الجناح الأيسر من جيش بايزيد كانوا من امارات تابعة لسيادة تيمور فى وقت ما . أما قلب الجيش فقد تكون من الانكشارية والسيباهى ، وتحت قيادة بايزيد نفسه . ووضع بايزيد بعض الفرسان فى الاحتياط .

كان جيش تيمور الذى واجه جيش بايزيد يضم ثلاثين فيلا من الهند فى الصفوف الامامية . واستعمل الجيشان النار الاغريقية ، غير أن تلك النار الاغريقية أو الفيلة لم تلعب دورا حاسما فى المعركة . انها كانت صراعا بين جيشين من الفرسان . وربما لم تحدث معركة أكبر منها ؛ استخدمت فيها الفرسان » (١٤) .

كانت لهذه المعركة نتائج مهمة لأنها حدثت بين أقوى رجلين فى العالم ، ومال كل من الكتاب المعاصرين والمحدثين الى الافراط فى تحديد أعداد الرجال فى كل من الجيشين . ويذكر العالم جروسى Grusset أن حوالى مليون مقاتل اشتبكوا فى تلك المعركة . ويذكر شيتلتبرجر البسافاراي

الذى عاصر هزيمة المسيحيين فى

نيقوبوليس وانتقل الى خدمة الأتراك - ان عدد جيش بايزيد بلغ مليوناً وأربعمائة ألف مقاتل ، وأن جيش تيمور زاد عن ذلك الرقم بحوالى مائتى ألف مقاتل . وأكثر الأرقام اعتدالا كان حوالى عشرين ألف مقاتل تقريباً لكل من الجانبين . ان الاتجاه المعارض لذكر أعداد أكثر من ذلك يستند الى أن القوات التى تزيد عن ذلك الرقم لا يمكن لها التحرك عبر أناتوليا على نمط جيش تيمور وبايزيد ، كما لم يكن فى استطاعة جيش مغولى يزيد تعداداً عن عشرين ألفاً أن يجد مكاناً له فى المعسكر المحصن فى أنقرة .

ومع ذلك ، فلم يكن حجم القوات أو شجاعتهما هى التى حسمت المعركة ، أو ربما معاناة جيش بايزيد من العطش والاجهاد . وانما يعود ذلك الى تفوق تيمور على بايزيد فى التخطيط للمعركة ، كما تفوق بايزيد على الصليبيين فى التخطيط فى موقعة نيقوبوليس . اذ وضع تيمور قواته الى الغرب من قوات بايزيد ، كما أتاح تيمور لقواته الفرصة للراحة والتحفز للمقاتلة . وفوق كل ذلك أمر تيمور أتباعه بالتغفل بين القوات المغولية فى جيش بايزيد طوال الأشهر السابقة على المعركة ولجج هؤلاء الأتباع فى التأثير عليها لصالح تيمور . حيث وعد هؤلاء المحاربون بالتخلي عن بايزيد فى اللحظة التى تبدأ فيها المعركة . وربما كانوا حلفاء مشاكسين لبايزيد فى المقام الأول ، وأنهم عرفوا أن ولاهم لابد أن يكون لتيمور . وبالإضافة الى ذلك لابد وأنهم شعروا أن تيمور سيكتب له النصر ، وعرفوا كيف يكافئ القائد المغولى قواته بسخاء . ومن المحتمل أيضاً أنهم لم يستسيغوا فكرة محاربة زملائهم المغول .

وفى حوالى الساعة العاشرة صباحاً بدأت المعركة على أصوات الأبواق ودقات الطبول . ومن المدهش أن المعركة ظلت محتدمة حتى الغسق ، ذلك لأن الذى حسم الموقف بوضوح هو فرار المحاربين المغول فى الجيش التركى . ولابد أن ذلك حدث فى أوائل المعركة . وأول من غادر أماكنهم هم الساروخان Sarukhan والايدين Aydin والمنلشيا Menlesha والكيرميان Kermiyan ثم تبعهم سكان الإمارات الشرقية الأخرى . ولو أن الفارين اكتفوا بترك المعركة ، لما سبب ذلك خطورة شديدة ، اذ ان الذى أحدث الطامة الكبرى هو استمرارهم فى القتال ، وهاجموا الجناح الأيسر للجيش التركى ، الذى كان تحت قيادة سليمان بن بايزيد من الخلف ، فى الوقت الذى كانت تسدد فيه قوات تيمور الرئيسية الضربات العنيفة والمتكررة على هذا الجناح من الأمام . وفى الوقت نفسه تقدم لازاروفيك وأتباعه من الفرسان ثقيل العدة من الصرب الى الأمام فى مواجهة العدو الذى دفع بايزيد الى ارسال تحذير لهم بالانسحاب المنظم خشية أن يطوقهم العدو . وعندما علم

لازاروفيك بوضع سليمان الحرج ، قاد فرسانه ليؤمن ويغطي انسحاب ابن السلطان . كما أن آخر مجموعة من الأتراك استمرت في القتال كانت قلب الجيش ، حيث ظل بايزيد والانكشارية والسيباهي يقاتلون بشراسة حتى النهاية . وقبل الغروب تماما قرر بايزيد الهروب ، بيد أن جواده تعرض لاصابة قاتلة ، ومن ثم وقع في الأسر .

وأرسل تيمور قوة لتعقب سليمان ، الذي هرب الى بروسا Brusa ومعه قدر كبير من كنوز والده . وفي اللحظة التي وصل فيها جيش تيمور الى بروسا ، كان سليمان قد غادرها ، لذلك اكتفى المغول بسلب ونهب ذلك المركز التجاري المهم واشعال الحرائق بها . وبدون أدنى معارضة ، فانتشرت القوات المغولية في آسيا الصغرى الى مضيق الدردانيل Hellespont . ينهبون ما يقابلهم في طريقهم ، وسار تيمور من خلفهم على مهل تماما . وبحلول شهر ديسمبر وصل تيمور الى مدينة سميerna . احدى ممتلكات القديس حنا ، وآخر القلاع المسيحية في آسيا الصغرى . وكان الأتراك قد فشلوا في محاولاتهم العديدة للاستيلاء على المدينة ، بيد أن تيمور لم يقض سوى أسبوعين تقريبا أمام أسوارها . وكالعادة يعود الفضل الى جنود تيمور المتخصصين في اجتياز استحکامات العدو سرا اذ عجلوا بحسم الأمر عن طريق حفر نفق تحت الاستحکامات . وعندما سقطت الاستحکامات ، أعمل رجال تيمور السيف في رقاب الحامية والسكان .

وعاد تيمور في ذلك الحين الى سمرقند . لقد أنجز ما قد خطط لتنفيذه . ووافقت القسطنطينية ، وبيرا Pera على دفع الجزية (*) الى تيمور ، وكذلك فعل سليمان بن بايزيد ، وفرج سلطان مصر . ويقال أن تيمور عامل بايزيد معاملة طيبة ، على الرغم من أن تيمور كان يسجن بايزيد ليلا ، ويسمح له بالتجول نهارا في محفة يحملها اثنان من الخيول ، ومحاطة بشبكة حديدية . ولابد أن هذه الشبكة الحديدية تشير الى القصة الباكورة عن أن بايزيد ظل حبيسا في قفص من حديد ، وأنه مات من سوء المعاملة ، وهي القصة التي رفضها جيبون Gibbon باعتبارها قصة خيالية . ومع ذلك يبدو أن صحة بايزيد تدهورت على الفور ، ومات أوائل مارس ١٤٠٣ م . ولم يمهل القدر تيمور طويلا بعد ذلك . اذ لم يكد يصل الى مدينة سمرقند حتى بدأ استعداداته الفورية لارسال حملة الى الصين . وغادر المدينة في أواخر ديسمبر ١٤٠٤ م ، بيد أنه شعر بالمرض بعد وقت

(*) الجزية tribute هي مبالغ من المال كانت تدفع بصفة منتظمة مقابل عدم الاعتداء . وكانت روما تفرضها على الشعوب الخاضعة لها - المترجم .

قصير ومات فى التاسع عشر من يناير • ودفن فى سمرقند فى تابوت من
الآبنوس •

ان النتيجة الرئيسية للمعركة الكبرى التى دارت فى أنقرة ، كانت
فترة الراحة التى نعمت بها القسطنطينية لمدة خمسين عاما بفضل انتصار
تيمور • وكان من الممكن أن تسقط هذه المدينة الكبرى فى أيدي الأتراك
سنة ١٤٠٢ بدلا من سنة ١٤٥٣ م • وعلى الرغم من أن سقوطها الفعلى كان
أمرا حتميا ، فان الخمسين عاما مكنت غرب أوربا من استرداد أنفاسها
بعد الكارثة التى حدثت فى نيقوبوليس Nicopolis ولو لم يتوقف
طريق الأتراك فى الغزو فى موقعة أنقرة ، لما اقتصر الأمر على احتلالهم
القسطنطينية ، فى وقت قصير ، فحسب ، وانما كان من الممكن أن يمتد
الى احتلال بودابست Budapest وفيينا • Vienna ، أيضا •
ومن المهم أيضا أن الأتراك نقلوا عاصمتهم الآسيوية ، بعد هزيمة أنقرة
من بورسا Brusa الى أدريا نوبل Adrianople ، وهى خطوة شجعتهم
على تركيز جهودهم فى التوسع فى أوربا بدلا من الشرق الأدنى •

PREFACE

1. Fletcher Pratt, *The Battles That Changed History* (New York : Hanover House, 1956, p. 12.
2. Helen Waddell, *The Desert Fathers* (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1957), p. 35.
3. J. Otto Maenchen-Helfen, *The World of the Huns* (Berkeley : University of California Press, 1973), p. xxvi.

CHAPTER 1 : MEDIEVAL WARFARE

1. See H. Mattingly, trans., *Tacitus on Britain and Germany* (Harmondsworth : Penguin Books Ltd., 1951), p. 112.

CHAPTER 2 : THE BATTLE OF CHALONS.

1. Dante, who refers to Attila as a "scourge on earth," has him plunged in a river of boiling blood *Inferno*, XII, 135ff
2. Jordanes, *The Origins and Deeds of the Goths*, trans. by Charles Mierow (Princeton : Princeton University Press, 1908), pp. 39-40.
3. *Ammianus Marcellinus*, trans. by John Rolfe, *The Loeb Classical Library* (Cambridge : Harvard University Press, 1939), III, pp. 381-87.
4. J. Otto Maenchen-Helfen, *The World of the Huns* (Berkeley : University of California Press, 1973), p. 204.
5. They may be more precisely classified as Indo-Iranian nomads. They were the only non Germanic people of the migration period to make important settlements in in western Europe.
6. The exact "legal" relationship of the Vandals with the empire remains a point of dispute. They may have enjoyed the status of *foederati*. See Frank M. Clover, (Flavius Merobaudes, A Translation and Historical Com-

mentary," Transactions of the American Philosophical Society, 61 (1971), pp. 52-54.

7. From a fragment (*Fragmenta Historicorum Graecorum*) cited by Maenchen-Helfen, *The World of the Huns*, p. 38.
8. Jordanes, *The Goths*, p. 57.
9. C.D. Gordon, *The Age of Attila* (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1960), p. 95.
10. *Ibid.*, p. 96.
11. This was a title held by the leading generals in the eastern Roman Empire. In the western empire it became the rule in the fifth century, for only one man to have that title. He was, therefore, the commander in chief.
12. "I disregard the often told melodramatic story of the vicious Princess Honoria, her clandestine engagement to Attila, and what follows from it. It has all the earmarks of Byzantine court gossip." Maenchen-Helfen, *World of the Huns*, p. 20.
13. Jordanes, *The Goths*, pp. 57-58.
14. The *laeti* were Germans who had been settled on lands within the empire. In return for these lands they were to do military service. *Foederati* were troops supplied by allied peoples along the frontier who were pledged to defend that frontier.
15. Of four Frankish units listed in the *Notitia Dignitatum* in c. 425, all were cavalry regiments. See Bernard S. Bachrach, *Merovingian Military Organization* (Minneapolis : University of Minnesota Press, 1972), p. 14.
16. "I refrain from trying to reconstruct the tactics of the battle ; and such attempt only leads to arbitrary suppositions. The confused and contradictory information of Jordanes reveals that he himself had no understanding of how the battle took its course." Ulf Tackholm, "Aetius and the Battle on the Catalaunian Fields." *Opuscula Romana*, 7 (1969), p. 267.

17. Bernard S. Bachrach, *A History of the Alans in the West* (Minneapolis : University of Minnesota Press, 1973), p. 66.
18. This is how Jordanes describes the situation : "The battlefield was a plain rising by a sharp slope to a ridge, which both armies sought to gain, for advantage of position is a great help. The Huns with their forces seized the right side, the Romans, the visigoths and their allies the left, and then began a struggle for the yet untaken crest." Jordanes, *The Goths*, p. 61.
19. Charles Oman in his *History of the Art of War* (London: Methuen, 1898), p. 21, credits the defeat of Attila to the Visigothic cavalry, which rode down the more lightly armed Hunnic horsemen.
20. *Cambridge Medieval History* (Cambridge : University Press, 1963), I, p. 398.

CHAPTER 3 : THE BATTLE OF THE YARMUK

1. J. J. Saunders, *A History of Medieval Islam* (New York: Barnes. and Noble, 1965), p. 14.
2. Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (London : Macmillan, 1970), p. 25.
3. *Ibid.*, p. 19.
4. Andreas N. Stratos, *Byzantium in the Seventh Century* (Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 19, 2, p. 43. Also see Hitti, *Arabs*, p. 26.
5. Hilli, *Arabs*, p. 145.
6. See the description of Khalid's maneuver, p. 72.
7. Philip K. Hitti *The Origins of the Islamic State*, a translation of the *Kitab Futuh Al-Buldan* (Beirut : Khayatz, 1966), p. 211.
8. Stratos, *Byzantium*, p. 49, n. 162.
9. Stratos, *Byzantium*, p. 47, n. 50.
10. Hitti, *Arabs*, p. 150.
11. Omar, in Mecca, must have been confident his Arabs

would destroy the Byzantine army, since here at this critical stage in the campaign he demoted Khalid, his ablest general, and gave the command of the Arab forces to another. See note 13.

12. Of such Arab allies, Edward Gibbon observed : "Their service in the field was speedy and vigorous ; but their friendship was venal, their faith inconstant, their enmity capricious." *The Decline and Fall of the Roman Empire* (New York : Random House, 1932), III, p. 64.
13. Khalid had actually been relieved of his command by Omar just before the battle, but Abu Ubayda, the man who replaced him, kept this information a secret until victory had been won, lest the transfer of authority arouse dissension among the Arab chieftains. Omar did not doubt Khalid's generalship, rather his lack of administrative ability, which the conquered area would most need in the years to come.

CHAPTER 4 THE BATTLE OF HASTINGS

1. Frank Stenton, *Anglo-Saxon England* (Oxford : Clarendon Press, 1943), p. 588.
2. A castle of the simple motte and bailey type is shown in the 1957), p. 16.
3. A castle of the simple motte and bailey type is shown in the Bayeux Tapestry. The motte was a mound of earth surmounted by a palisade and wooden keep and girdled by a ditch. Around this was a courtyard, called a *bailey*, which was in turn protected by a ditch and a palisade. Here the garrison had its quarters and supplies. Under heavy attack the men would men inside the *motte* area.
4. The chronicler says Harold "was pierced in the eyes," although this is doubted.
5. See G.N. Garmonsway, trans., *The Anglo-Saxon Chronicle* (London : J.M. Dent and Sons Ltd., 1933), p. 199.

CHAPTER 5 : THE BATTLE OF HANTTIN

1. As quoted in T.S.R. Boase, *Kingdoms and Strongholds of the Crusaders* (London : Thames and Hudson, 1971), p. 126.
2. See Charles Oman, *A History of the Art of War* (London: Methuen 1898), pp. 306-14, for this quotation and those immediately following.
3. Oman, *Art of War*, p. 67.

CHAPTER 6 : THE BATTLE OF BOUVINES

1. William, Eleanor's first son by Henry, died in infancy. Four sons reached maturity : Geoffrey, Henry, Richard, and John.
2. The wound was caused by a bolt shot from a crossbow.
3. See also J.F. Verbruggen, *The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages* (New York : American Eisevier, 1976), pp. 223-28, who suggests 5,000 or 6,000 foot soldiers for Philip's army, 7,500 for Otto's.
4. Ibid., p. 228.
5. Ibid., p. 236. Verbruggen believes 169 imperial knights were slain.

CHAPTER 7 : THE BATTLE OF CRECY

1. The staple was essentially the principle market or trading center.
2. A son, born posthumously, died five days after birth.
3. One chronicler says the rain reduced the tensile qualities of the crossbow cords. See Charles Oman, *A History of the Art of War* (London : Methuen, 1898), p. 610, note 1.
4. Edouard Perroy, *The Hundred Years War* (London : Capri-corn Books, 1951), p. 119.

CHAPTER 8 : THE BATTLE OF ANGORA

1. See J. H. Sanders, trans., *Tamberlane, or Timur the Great Amir*, from *The Arabic Life by Ahmed Ibn Arab-shah* (London : Luzac and Co., 1936), pp. 1-2.
2. See Walter J. Fischel, *Ibn Khaldun and Tamperlane* (Berkeley : University of California Press, 1952), p. 47.
3. The terms Mongol, Tatar, and Tartar are used indiscriminately, although Mongols and Tatars were originally distinct tribes in Mongolia. *Tartar* is a corruption of *Tatar*. The term was applied to Mongols by medieval Christians possibly because they looked upon these Mongols as demons from the underworld (*tartarus*).
4. Arnold Toynbee, *A Study of History* (abridgement of volumes 1-7) (New York : Oxford University Press, 1946, vol. 1, 345.
5. Thomas Ollive Mabbott, ed., *Collected Works of Edgar Allen Poe* (Cambridge : Harvard University Press, 1969), vol. 1, p. 33.
6. Hilda Hookham, *Tamburlaine the Conqueror* (London : Hodder and Stoughton, 1962), p. 198.
7. See H. Mattingly, trans., *Tacitus on Britain and Germany* (Harmondsworth : Penguin Books Ltd., 1951), p. 80.
8. Edward Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire* (New York, Random House, 1932), vol. p. 1253.
9. See Sanders, *Tamerlane*, pp. 300-301.
10. See Fischel *Ibn Khaldun and Tamberlane*, p. 35.
11. John Bouchier, trans., *The Chronicle of Froissart* (David Nutt, 1903), vol. 6, p. 193 (Modernized).
12. See Sanders, *Tamerlane*, p. 173.
13. Michael Prawdin, *The Mongol Empire : Its Rise and Legacy*, 2nd ed. (London : G. Allen and Unwin, 1967), p. 495.
14. Lynn Montross, *War Through the Ages*, rev. Ad ed. (New York Harper, 1960), p. 219.

BIBLIOGRAPHY

CHAPTER 1 : MEDIEVAL WARFARE

- Bachrach, Bernard S. *Merovingian Military Organization* 481-751. Minneapolis : University of Minnesota Press, 1972.
- Beeler, John. *Warfare in Feudal Europe, 730-1200*. Ithaca : Cornell University Press, 1971.
- Blair, Claude *European Armour circa 1966 to circa 1700*. London : H. Milford, 1915.
- Cleator, P.E. *Weapons of War*. New York : Crowell, 1968.
- Creasy, Edward. *The Fifteen Decisive Battles of the World*. London : H. Milford, 1915.
- Delbruck, Hans. *Geschichte Der Kriegskunst*. Dritter Teil. Das Mittelater. Berlin : W. de Gruyler, 1964.
- Dupuy, R. Ernest, and Dupuy, Trevor N. *The Encyclopedia of Military History from 3500 B.C. to the Present*. New York : Harper and Row, 1970.
- Fuller, J.F.C. *A Military History of the Western World*. vol. 1. London : Byre and Spottiswoode, 1954.
- of *Military History from 3500 B.C. to the Present*. New York : Funk and Wagnalls, 1954.
- Hewitt, John. *Ancient Armour and Weapons in Europe*. Graz Akademische Druck u. Verlagsanstalt, 1967.
- Lot, Ferdinand. *L'art Militaire et les Armées au Moyen Age en Europe et dans le Proche Orient*, vol. 2. Paris : Payot, 1946.
- Mitchell, Joseph B., and Creasy, Edward S. *Twenty Decisive Battles of the World*. New York : Macmillan, 1964.
- Montross, Lynn. *War Through the Ages*, rev. ed. New York : Harper, 1960.

- Oman, Charles. *A History of the Art of War in The Middle Ages from the Fourth to the Fourteenth Century*, vols. 1 and 2. London : Methuen, 1924.
- Pratt, Fletcher. *The Battles That Changed History*. New York : Hanover House, 1956.
- Verbruggen, J. F. *The Art of Warfare in Western Europe During the Middle Ages*. New York : American Elsevier, 1977.
- Wise, Terence. *Medieval Warfare*. New York : Hastings House, 1976.
- Zook, David and Higham, Robin. *A Short History of Warfare*. New York : Twayne, 1966.

CHAPTER 2 : THE BATTLE OF CHALONS

- Bachrach, Bernard S. *A History of the Alans in the West*. Minneapolis : University of Minnesota Press, 1973.
- Bury, J. B. *History of the Later Roman Empire*, vols. 1 and 2. New York : Macmillan, 1958.
- Cambridge Medieval History, vol. 1, *The Christian Roman Empire and the Foundation of the Teutonic Kingdoms*. Cambridge : Cambridge University Press, 1936.
- Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*.
- Gordon, C.D. *The Age of Attila*. Ann Arbor : University of Michigan Press, 1960.
- Hodgkin, Thomas. *Italy and Her Invaders*, vol. 2. Oxford : Clarendon Press, 1892.
- Hutton, Edward. *Attila and the Huns*. London : Constable, 1915.
- Jones, A.H.M. *The Later Roman Empire, 284-602*. Oxford : B. Blackwell 1964.
- Jordanes, *The Origins and Deeds of the Goths*, translated by Charles Mierow. Princeton : Princeton University Press. 1908.

Maenchen-Helfen, J. Otto. *The World of the Huns*. Berkley : University of California Press, 1973.

Thompson, E.A. *A History of Attia and the Huns*. Oxfod : Clarendon Press, 1948.

CHAPTER 3 : THE BATTLE OF THE YARMUK

Thompson, E. A. *A History of Attia and the Huns*. Oxford : Capricorn Books, 1949.

Cambridge Medieval Histor, vol. 4, The Eastern Roman Empire. Cambridge : Cambridge University Press, 1923.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*.

Glubb, John Bagot. *The Great Arab Conquests*. London : Hodder and Stoughton, 1963.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs*. London : Macmillan, 1970.

Jenkins, Romilly. *Byzantium : The Imperial Centuries A.D. 610-1070*. New York : Random House, 1966. !

Saunders, J. J. *A History of Medieval Islam*. New York : Barnes and Nobles, 1965.

Shaban. M.A. *Islamic History A.D. 600-750*. Cambridge : Cambridge University Press 1971.

Startos, Andreas N. *Byzantium in the Seventh Century*. Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 1972.

Vryonis, speros. *Byzantium : Its Internal History and Relation with the Muslim World*. London : Varionun Reprints, 1971.

CHAPTER 4 : THE BATTLE OF HASTINGS

Brooke, Christopher. *Europe in the Central Middle Ages*, York : Collier, 1965.

Brokke, Christopher. *Europe in the Central Middle Ages, 962-1154*, New York : Rinehart and Winston, 1964.

- Broke, Christopher. *From Alfred To Henry III, 871-1272*.
Edinburgh : T Nelson, 1961.
- Douglas, David C. *William the Conqueror*. Berkeley : Uni-
versity of California Press, 1964.
- Hollister, C. Warren. *Anglo-Saxon Military Institutions*.
Oxford : Clarendon Press, 1962.
- Hollister, C. Warren. *Anglo-Saxon Military Institutions*.
New York : Wiley, 1969.
- Korner, Sten. *The Battle of Hasting, England, and Europe*,
1035-1066. Lund : C.W.K. Gleerup, 1964.
- Loyn, H. R. *The Norman Conquest*. London : Hutchinson,
1965.
- Poole, Austin Lane *Medieval England*. Oxford : Clarendon
Press, 1958.
- Sayles, G. O. *The Medieval Foundations of England*. London :
Methuen, 1948.
- Stenton, Frank. *Anglo-Saxon England*. Oxford : Clarendon
Press, 1943.
- Stenton, Frank. *The Bayeux Tapestry*. London : Phaidon
Press, 1965.

CHAPTER 5 : THE BATTLE OF HATTIN

- Baldwin, M.W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jeru-
salem, 1140-1187*. Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 1969.
- Boaes, T.S.R. *Kingdoms and Strongholds of the Crusaders*.
London : Thames and Hudson, 1971.
- Brundage, James A. *The Crusades : A Documentary Survey*.
Milwaukee : Marquette University Press, 1969.
- Gabrieli, Francesco, trans. *Arab Historians of the Crusades*,
London : Routledge and Kegan Paul, 1969.
- Hindley, Geoffrey. *Saladin*. London : Constable : 1976.
- Hitti, Philip K. *History of the Arabs* London : Macmillan,
1970.

La Monte, John L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291*. Cambridge: Medieval Academy of America, 1932.

Lone Poole, Stanley. *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*. Beirut : Khayats, 1964.

Mayer, Hans Eberhard. *The Crusades*, translated by John Gillingham. Oxford : Oxford University Press 1972.

Munro, Dana C. *The Kingdom of the Crusaders*. New York : Appleton-Century, 1935.

Setton, Kenneth M., ed. *A History of the Crusades*, vol. 1. The First Hundred Years, edited by M.W. Baldwin Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1955.

Smail, R.C. *Crusading Warfare, 1097-1193*. Cambridge : Cambridge University Press 1956.

CHAPTER 6 : THE BATTLE OF BOUVINES

Appleby, John T. *John King of England*. New York : Knopf, 1959.

Barraclough, Geoffrey, *The origins of Modern Germany*. Oxford : B. Blackwell, 1947.

Cambridge Medieval History : VI, Victory of the Papacy. Cambridge : Cambridge University Press, 1929.

Fawtier, Robert. *The Capetian Kings of France*, translated by Butler and Adam. New York : St. Martin's Press, 1962.

Hampe, Karl. *Germany under the Salian and Hohenstaufen Emperors*, translated by Ralph Bennett. Oxford : B. Blackwell 1973.

Cambridge Medieval History, VI, Victory of the PaPacy. Cambridge : Cambridge University Press, 1929.

Fawtier, Robert. *The Capetian Kings of France*, translated by Butler and Adam. New York : St. Martin's Press, 1862.

- Hampe, Karl *Germany under the Salian and Hohenstaufen Emperors*, translated by Ralph Bennett. Oxford : B. Blackwell, 1973.
- Kantorowicz, Ernest. *Frederick II*, translated by E. Lorimer. London : Constable, 1931.
- Packard, Sidney R. *Europe and the Church under Innocent III*. New York Holt, 1927.
- Painter, Sidney. *The Reign of King John*. Baltimore : John Hopkins Press, 1949.
- Petit-Dutaillis, Charles. *The Feudal Monarchy in France and England*, London : Paul, Trench. Trubner, 1936.
- Poole, A.L. *From Domesday Book to Magna Carta*, EFBS-ETEP. Oxford : Clarendon Press, 1951.
- Smith, Charles E. *Innocent III. A Church Defender*. Baton Rouge :
- Louisiana E. *Innocent III : Church Defended*. Baton Rouge : Louisiana State University Press, 1951

CHAPTER 7 : THE BATTLE OF CRECY

- Burne, Alfred H. *The Crecy War*. London : Eyre and Spottiswoode, 1955.
- Cambridge Medieval History, VII Decline of Empire and Papacy-Cambridge : Cambridge University Press, 1923, 1932.
- Froissart. *Chronicles*.
- Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*.
- Hay, Denys. *Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries*. New York : Rinehart and Winston, 1966.
- Jenkins, Helen. *Papal Efforts for Peace under Benedict XII, 1334-42*. Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1933.
- Lucas, H.S. *The Low Countries and the Hundred Years War*. Ann Arbor : University of Michigan Press, 1929.

McKisack, May. *The Fourteenth Century*. Oxford : Clarendon Press, 1959.

Perroy, Edouard *The Hundred Years War*. London : Capricorn Books 1951.

Power, Eileen. *The Wool Trade in English Medieval History*. Oxford University Press, 1941.

Ramsay, James, *Genesis of Lancaster, 1307-99* vol. I. Oxford : Clarendon Press, 1913.

CHAPTER 8 : THE BATTLE OF ANGORA

Atiya, Aziz Suryal *The Crusade in the Later Middle Ages*. London: Methuen, 1938.

Cambridge Medieval History, vol. 8, *The Close of the Middle Ages* Cambridge : Cambridge University Press, 1936.

Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamberlane*. Berbery : University of California Press, 1952.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*.

Grousset, René. *The Empire of the Steppes H A History of ... Central Asia*, translated by Naomi Walford. New Brunswick : Rutgers University Press, 1970.

Hookham, Hilda. *Tamurlaine the Conqueror*. Londo : Hodder and Stoughton, 1962.

Inalcik, Halil. *The Ottoman Empire, translated by Norman Itskowitz and Colin Lmber*. London : Weidenfield and Nicolson, 1973.

Lamb, Harold. *Tamberlane the Earth Shaker*. New York : R.M. McBride, 1928.

Le Strange, Buy. *Clavijo's Embassy to Tamerlane 1403-6*. London : G. Routledge and Sons, 1928.

Prawdin, Michael. *The Mongol Empire H Its Rise and Legacy*. London : G. Allen and Unwin, 1967.

Tamerlane, or Timur the Great Amer, translated by J. H. Sanders from *The Arabic Text By Ahmed Ibn Arabshah*. London : Luzac, 1936.

Vernadsky, George. *The Mongols and Russia*. New Haven : Yale University Press, 1953.

Waugh, W.T. *A History of Europe from 1378 to 1949*. New York : Methuen, 1932.

فهرس

٥	تصاير
٧	١ - الحرب فى المصور الوسطى
٢٣	٢ - معركة شالون
٥٥	٣ - معركة اليرموك
٧٤	٤ - معركة هيسينجز
٩٧	٥ - معركة حطين
١٢٥	٦ - معركة بوفين
١٤٧	٧ - معركة كريسى
١٦٩	٨ - معركة أنقرة
١٩٥	المراجع

SEVEN DECISIVE BATTLES of the MIDDLE AGES

Joseph Dalmas

يضم هذا الكتاب بين صفحاته سبع معارك
فاصلة في العصور الوسطى تركت كل واحدة منها
بصماتها التاريخية .

والكتاب جديد في فكرته . الفه الاستلا جوزيف
داموس استلا تاريخ العصور الوسطى بالولايات
المتحدة الأمريكية . ثم قدم المؤلف فصلاً رائعاً عن
الحرب والأسلحة في العصور الوسطى في الشرق
والغرب . وقد أنصف المؤلف بذكره معركتي
اليرموك وطين فسم تلك المعارك الفاصلة . وليس
من المبالغ في شيء القول بأن هذا الكتاب جامع
وشامل : إذ قدم المؤلف الأسباب والأحداث
والنتائج بمنهج علمي سليم .